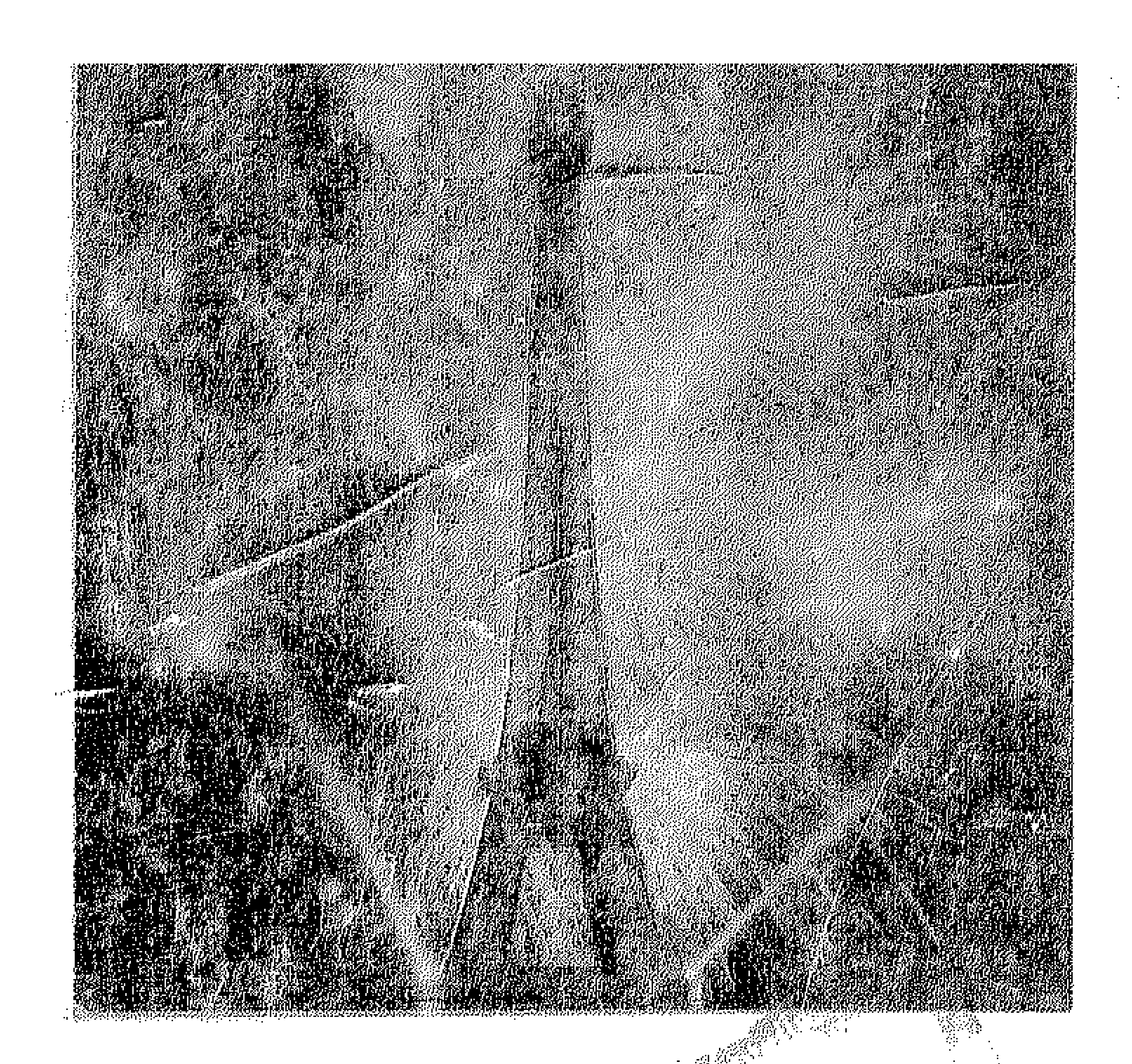
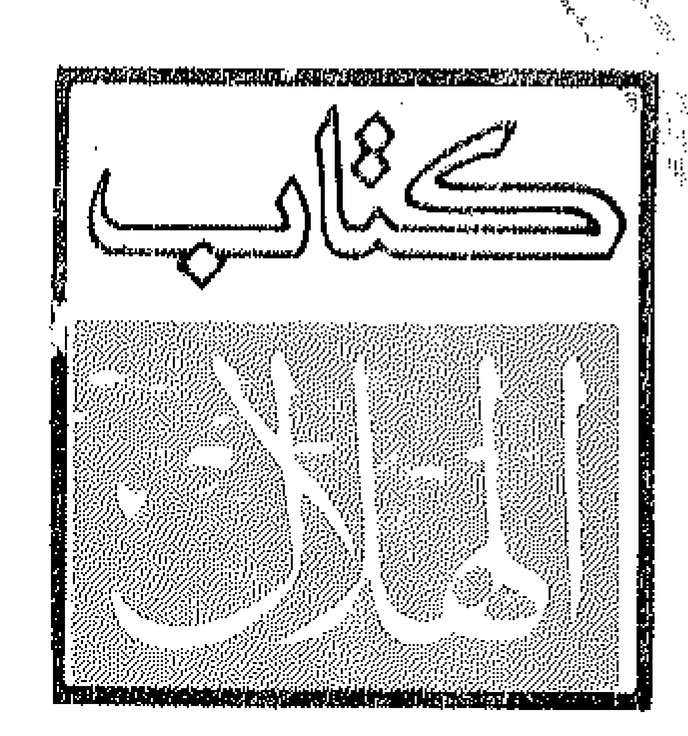
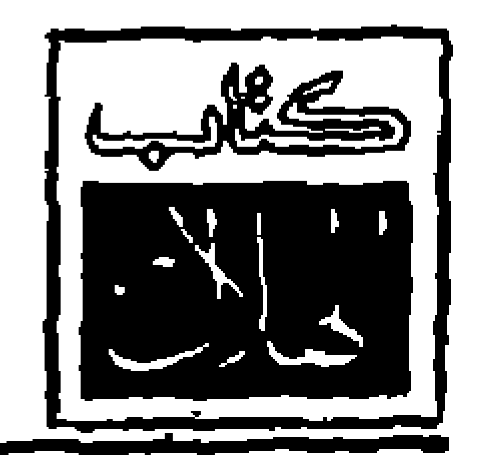


حول العالم

د . محمود سمير أحمد





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 513 - SE - 1993 العدد ٥١٣ – ربيع أول – سبتمبر ١٩٩٣

FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٧٧٥٠ ليرة – الأردن ٢٧٥٠ فلسا – الكويت ١٤٠٠ فلس – السعودية ١٢ ريالا – تونس ٢٫٥ دينار – المغرب ٣٠ درهما – البحرين ١٫٢٠٠ دينار – الدوحة ١٢ ريالا – دبى / ابوظبى ١٢ درهما – مسقط ١٫٢٠٠ ريال – غزة ، الضفة ، القدس ٢ دولار – لندن ٢ جك .

حول العالم مع
دبلوماسى مصرى

تأملات فى بعض الحضارات المعاصرة
وفى سياسات بعض الدول

بقلم

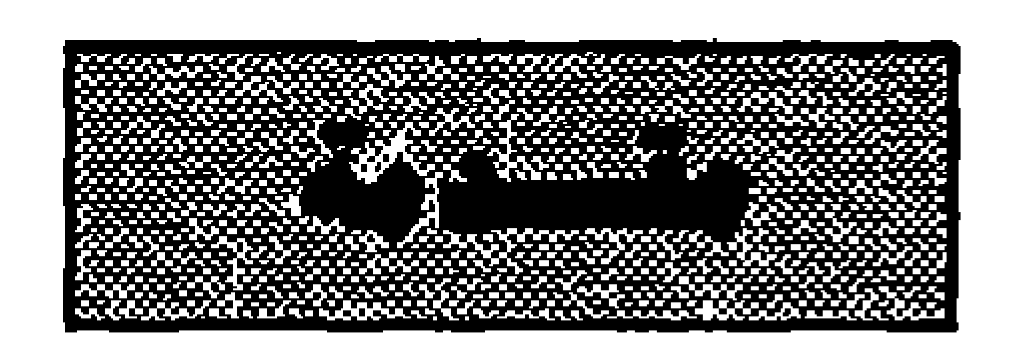
د. محمود سمير أحمد

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب



مقدمة

إذ تقدم دار الهلال هذا المؤلف للقارئ المصرى والعربى ، تعتقد بأمانة وموضوعية ، أنه عمل فريد فى بابه ، طموح فى مقصده ، غنى فى مادته ، طريف فى قراءته .

فهو فريد فى بابه لأنه ليس من قبيل أدب الرحلات وحسب ، أو أدب السياسة وحسب ، بل لقد جمع كلا النوعين فى مجلد واحد . ولِمَ لا ؟! وصاحب الكتاب من هواة الأدب وقد تخرج فى كلية الآداب إلاّ أن القدر ساقه بعد ذلك لينغمس فى مهنة الدبلوماسية وليقضى بها كل حياته العملية ! وليس هناك من فرصة أفضل لدراسة ووصف محاسن وخصائص بلاد الله الواسعة نيف وثلاثين بلدا - هى موضوع هذا المؤلف - زارها الكاتب ، خير من فرصة أديب انغمس فى مهنة الدبلوماسية فأتاحت له أجمل الفرص وأطولها عبر السنين لمشاهدة ووصف وتحليل خصائص البلدان المختلفة ، والتمعن فى عقد المقارنات المفيدة والطريفة بينها ، ولسرد تجارب الزائر إليها ، ولتسجيل انفعالات نفسه وخلجات فكره عند زيارتها .

وكما تتيح الخدمة فى السلك الدبلوماسى الظروف المثلى للزيارة والمشاهدة وإشباع رغبة المراقب دقيق الحس فى وصف وتقييم تلك المشاهدات ، فإن العمل الدبلوماسى ، مثله مثل العمل الصحفى ، يتيح امكانية كفاية مستلزمات وأسس الكتابة السياسية التحليلية المتمعنة ، أو ما يسمى بأدب السياسة .. وهو ما سوف يتضح للقارئ عند تصفحه لهذا المجلد .

وهذا المؤلف طموح فى غايته . فهو يستهدف فيما يهدف إليه تسلية القارئ ومتعته وثقافته السياحية العامة إذ يقوده فى رحلات فكرية سياحية رائعة ، تارة بالبحر وتارة بالطائرة أو السيارة ، عبر بلدان البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وأوروبا الغربية والامريكتين وجنوب شرقى آسيا واستراليا ونيوزيلانده وهونولولو وجزر فيجى وأفريقيا .. إلاّ أنه لا يستهدف تسليته ومتعته وحسب بل يرى لزاما على الأديب والدبلوماسى أن يمزج المتعة السياحية بالثقافة السياسية وأن يشرك القارئ فى تفهم وتذوق تجارب الكاتب وانفعالاته سياحية وأدبية كانت أو سياسية ، وأن يتيح للقارئ نتيجة أو حصاد حياته وتجاربه فى ميدان السياسة الخارجية والعمل الدبلوماسى .. وعلاقات تلك الدول والشعوب بمصر وبالعالم الخارجى .. هذه الحصيلة الهامة التى جمعها الكاتب الأديب عبر ثمانية وثلاثين عاماً تنقل فيها بين سفارات مصر فى أربع عشرة

سفارة من أهم سفارات مصر فى الخارج من درجة ملحق إلى «سفير ممتاز» .. ومن خلال هذه الحصيلة وهذه التجارب يعقد الكاتب السياسى المقارنات والمفاضلات ويسرد التأملات والتحليلات ويسوق جمهرة من الملاحظات والمعلومات السياسية والاحصائية والسياحية فى مزيج شيق من أدب الرحلات وأدب السياسة وبتذوق واضح لكليهما ..

أما أن هذا الكتاب غنى فى مادته فيتضح ذلك من حقيقتين بارزتين .. فهو حصيلة اقامة الكاتب وزياراته ومشاهداته وتأملاته فى نيف وثلاثين دولة أو مدينة واتسمت كتاباته عنها بما لا يكتمل إلا فى نوعى الأدب مجتمعين ! أدب الرحلات وأدب السياسة .

وسوف يجد القارئ متعة فكرية فى تمعن مقارنات الكاتب بين تركيا واسبانيا وعلاقة كل منهما بالعرب والعروبة ، وبين مصر والمكسيك ، ومصر وبيرو Peru .. وفى تأمل ملاحظات المؤلف ومعلوماته الغزيرة عن الحياة فى الولايات المتحدة فى ثلاثة فصول طريفة قدر ما هى هامة ومفيدة . كما سوف يقف القارئ متأملا عند الفصلين الخاصين بسياسة الولايات المتحدة الداخلية ومدى تأثيرها على سياستها الخارجية ، وعلاقات مصر بالولايات المتحدة؛ كما أن الفصول الخاصة بتونس وكولومبيا والمكسيك وبريطانيا وإيطاليا من امتع ما كتب فى أدب الرحلات وأدب السياسة .

أما الفصلان الخاصان بدبلوماسية الأمم المتحدة ودبلوماسية نزع السلاح فقد قلّ أن يجد القارئ فى المكتبة العربية مثيلا لهما . وسوف يجد القارئ متعة في ملاحظات الكاتب السريعة النافذة عن هونولولو وطوكيو وهونج كونج وسنغافورة وبانكوك ومانيلا وعديد من عواصم أمريكا الجنوبية .. وقلَّ أن يجد القارئ المولع بالسياحة وأدب الرحلات هذا الكم وهذا العدد من الرحلات بين ضلفتى كتاب واحد .

لكنها تجربة أديب ودبلوماسى أمضى كل سنوات حياته ، من شاب يافع إلى مرحلة الكهولة وسن المعاش في الترحال والتجوال والمشاهدة والتأمل ثم الكتابة المدققة الفاحصة ..



الفصل الأول

تلميذ وطالب جامعى رحال

تقترن وظيفة «دبلوماسى» فى أذهان الغالبية منا بكثرة الأسفار والتنقل بين شتى بلاد العالم ، وهذا صحيح ولا شك ، وخاصة إذا كان الدبلوماسى دبلوماسيا محترفا كرّس حياته لمهنة الدبلوماسية منذ شبابه وبدء حياته العملية ، أى أنه لم يطرق الدبلوماسية مصادفة أو نقلا من وظائف أخرى ، كما هو الحال فى بعض الاحيان . فالدبلوماسية تتطلب قضاء سنوات طويلة خارج الوطن «الأم» قد تصل إلى عشر سنوات متصلة أحيانا ، مقابل قضاء سنتين أو ثلاث فى العاصمة «الأم» أو فى «المركز La Centrale» وقد أصبحت الأنظمة المعمول بها فى وزارة الخارجية المصرية منذ أواخر الستينات تقضى ببقاء الدبلوماسى المصرى مدة لا تزيد على أربع سنوات فى الخارج (قد تمتد إلى خمس سنوات أحياناً) ، لقاء سنتين فى القاهرة . وبحساب بسيط يمكن التوصل إلى النتيجة بأن

متوسط مدد بقاء الدبلوماسى المصرى خارج بلاده قد تصل إلى ٢٥ أو ٢٦ سنة مقابل ١٠ - ١٢ سنة يقضيها فى القاهرة بافتراض أن مدة خدمته ٣٧ سنة إذا ما التحق بالسلك الدبلوماسى فى سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، وظل به إلى أن يتقاعد فى سن الستين مثلما يقضى القانون . وبديهى أن تلك السنوات الطوال التى يمضيها الدبلوماسى خارج بلاده تتيح له فرصة العمل والعيش فى خمس أو ست عواصم أجنبية على مرات مختلفة ، ولمدة أربع سنوات متصل فى كل مرة فى المتوسط ، إلى جانب ما تتيح له من فرص زيارة بلدان كثيرة أخرى تحيط بمقر عمله أو تجاوره .

وأرانى أميل إلى الاعتقاد بأن اختيار المرء لمهنة مثل الدبلوماسية تقتضى دوام السفر والترحال ، وطول فترات البعد عن الوطن الأم قد تتفق مع مشارب وقدرات بعض الناس وحسب ، فى حين أن الكثرة الغالبة من الناس قد ترى فى ذلك - وعن حق - اغترابا وتغربا قاسيا على النفس بل وعلى الجسم ، من شأنه أن يضعف من صلات الود مع الأهل والأصدقاء والمعارف فى الوطن ، كما أن دوام السفر والتنقل بين مناطق وأجواء شديدة التباين يشكل عبئا وعناء جسمانيا حقيقيا ، هذا فضلا عما يسببه من قلق نفسى وقلقلة للزوجة إذا ما كانت تمارس هى أيضا مهنة أخرى متصلة بوطنها الأصلى ، تختلف فى طبيعتها ومتطلباتها عن عمل الزوج

الدبلوماسى . وفضلا أيضا عما تسببه تلك الحياة الدبلوماسية من قلق وقلقلة بالنسبة لتعليم أبناء أسرة الدبلوماسى لكثرة تنقلهم ما بين أنظمة دراسية متفاوتة وبين تعلم لغات مختلفة ..

ومن هنا فإن محترفى مهنة الدبلوماسية قد اختاروا حياة كرست كلها للسفر وعدم الاستقرار . فهم إذن لطبيعة عملهم ومتطلبات حياتهم ، وحسب أمزجتهم ، طائفة فريدة من «البدو المحدثين» ، طائفة جبلت على حب السفر والتنقل والترحال الدائم واستكشاف ما خفى عنهم من أنحاء العالم البعيدة والقريبة .. طائفة حظيت بحظ غير قليل من حب الاستطلاع وحب المغامرة ومن القدرة على سرعة التكيف مع الأجواء والمجتمعات المختلفة والعادات والأطعمة الغريبة ، وعلى تحمل مشقة الوحدة والعزلة أحيانا ، وأحيانا أخرى ضرورة مخالطة طوائف مختلفة تماما من الناس ذوى الأمزجة والمشارب المتباينة ..

وبديهى أن ذلك النمط من الحياة يختلف تماما عن مجرد قيام الفرد العادى بفسحة أو نزهة صيفية خارج الوطن يقضيها الإنسان غير الدبلوماسى وعائلته بعيدا عن مصر لفترة صيفية قد تصل إلى شهر أو اثنين ، يعودون بعدها لالتقاط خيط حياتهم الرتيبة دون ازعاج أو قلقلة أو تبديل ..

وقد بدأ حبى للاسفار والترحال قبل سن التاسعة بقليل حينما

اصطحبني والداى رحمهما الله فى رحلة صيفية سنة ١٩٣٥ إلى أوروبا .. كان السفر إلى أوروبا حينئذ يقتضى ركوب البحر من الاسكندرية فلم تكن قد بدأت «موضة» السفر بالطائرات بعد .. وكانت المعيشة في أوروبا سهلة رغدة وكان قضاء الصيف فى أوروبا في مقدور متوسطى الحال وعديد من الموظفين المصريين ناهيك بكبار القوم ، وكان أبى من هواة السفر إلى أوروبا مرة كل سنتين أو ثلاث للاستشفاء أو العمل أو تغيير الجو .. وقد ركبنا الباخرة الإيطالية "أوزونيا" (١) من الاسـكندرية قاصدين إلى جنـوا بإيطاليا ..

وقد سحرتنى الحياة على ظهر الباخرة . فمقصوراتها (كبائنها) متسعة ومريحة وكأنَّ الحياة على ظهر تلك السفينة فرح أو وليمة دائمة ، فالطعام والشراب الفاخر ومتعدد الألوان يفوق حاجة الإنسان .. ويعمد المشرفون على الباخرة إلى تشجيع المسافر على أن يتناول طعام الإفطار والغداء والعشاء بكل ما تشتهي نفسه . وما بين الإفطار والغداء يقدمون إلى المسافرين حساء ساخنا مع بعض الشطائر وذلك على ظهر الباخرة ، وما بين الغداء والعشاء يقدمون للمسافر الشاى والفطائر (الجاتوهات) فى صالونات الباخرة أو قاعات الموسيقى ، ثم هناك فرق الموسيقى تصدح أثناء الشاى

---

(١) Ausonia

وأثناء العشاء وبعده حينما تنقلب صالونات السفينة إلى « كازينو عائم» . وأما فترة بعد الشاى وقبل العشاء فهناك عرض سينمائى يومى . ناهيك عن أنواع الألعاب الرياضية والاجتماعية بما فى ذلك حمام للسباحة بحيث لا يمكن أن يضج المسافر أو يمل سواء أكان طفلا أو شابا يافعا أو كهلا ينشد الراحة .

والواقع أن «ركوب البحر» وبخاصة فى مثل هذه الظروف الفريدة متعة لا تعدلها متعة أخرى خاصة إذا ظل البحر هادئا . ولحسن الحظ كان البحر هادئا والجو صيفيا معتدلا خلال اليومين الأولين من الرحلة إلا عندما عبرت السفينة فى اليوم الثالث مضيق مسينا Messina (ما بين جزيرة صقلية الإيطالية وطرف الحذاء الإيطالى) فهناك البحر لجج مضطرب أغلب الأحيان وقد عانى منه كثرة المسافرين بعض الوقت فلزموا مقصوراتهم .. إلا أنى اكتشفت أنى امتلك قدرة خاصة على تحمل هياج البحر دون أن أشعر بما يشعر به غالبية المسافرين من غثيان أو دوار .. فرحت أجرى فرحا متنقلا ما بين صالونات السفينة وكأنى أعلن على الملأ اكتشافى لصفتى الجديدة «كملاح» بحكم المولد ! وقد قيل لى فيما بعد إن للأطفال قدرة على تحمل ثورة البحر لأن أكبادهم لم ينلها

واحد من أمراض الكبد التى تصيب الكبار بسبب كثرة ما يحشونه فى معداتهم . إلا أن تجاربي اللاحقة مع البحار الهائجة والمائجة بعد أن تقدمت بى السن أكدت صفتى كبحار أو ملاح لا يتأثر كثيرا باشتداد الموج . فما علىّ إلا أن أجارى حركة السفينة باهتزازاتها وأتمشى معها ولا أقاومها وبهذا أتفادى دوار البحر .. ومن هنا كثرت أسفارى بالبحر أثناء خدمتى الدبلوماسية .. كلما كان هناك سبيل للاختيار ما بين الباخرة والطائرة !

ومازالت ذاكرتى تحمل صورة أول منظر شاهدته فى أوروبا ، أى طرف الحذاء الإيطالى وكان ذلك ليلا .. أثناء مرور السفينة قرب بركان جزيرة سترومبولى الثائر والمنير ليلا بسبب ما تصاعد منه من حمم ولهب وأدخنة حين كانت السفينة تنساب فى المضيق على بعد أميال قليلة من البركان ..

وفى اليوم التالى كان أول ما طالعنا حينما اشرقت شمس الصباح كان ساحل إيطاليا الجنوبى الغربى بما يتخلله من خلجان وجبال خضراء حينا أو بنية داكنة اللون حينا آخر .. وكان هذا أول عهدى بمنظر الجبال أو التلال الخضراء التى تحف بشواطئ جبلية أو صخرية تنحدر من حولها الجبال فجأة إلى حافة الماء فى منظر أخاذ خلاب لا يقاوم . وظننت أن هذا المنظر أجمل وأروع ما وقعت عليه عيناى وقد أثر فىّ هذا المنظر تأثيرا مازال يلاحقنى إلى الآن

حتى بت أعتقد أن من يسكن فوق ربوة عالية تطل على البحر من علٍ يكون قد حقق أول أسس المتعة والسعادة !

وفى اليوم الرابع رست بنا السفينة فى ميناء جنوا أكبر موانىء إيطاليا .. ومنظر جنوا لمن يشاهده لأول مرة من البحر رائع اخاذ لا ينسى فالمدينة مبنية على عشرات من التلال الخضراء المرتفعة التى تنحدر رويدا رويدا نحو الشاطئ وقد اصطفت صفوف المنازل والعمارات بألوانها المتباينة التى تميل كلها إلى البياض أو الألوان الزاهية وبأسقفها الحمراء Les Toits Rouges فى صفوف متتالية على التلال إلى أن تنحدر نحو البحر . ومن السفينة يمكنك أن تشاهد أكثر من عشرين صفا متواليا من المنازل والعمارات ، الصف يعلو الصف التالى بدءا من مستوى الميناء إلى أعلى التلال .. والمدينة فوق هذا تضم عددا غفيرا من الكبارى الضخمة التى تشاهد من البحر والقائمة على أعمدة ضخمة والتى تحمل الطرق الموصلة ما بين التلال وما بين جميع أحياء المدينة .. وكان هذا أيضا من المناظر الأخاذة التى طبعت فى مخيلتى منذ ذلك الحين ..

ومن جنوا ركبنا القطار المتجه شمالا إلى ميلانو ومنطقة البحيرات الإيطالية وعبر جبال الألب الرائعة المناظر إلى ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا .. وكان مقصد والدى من الرحلة أصلا الاستشفاء فى كارلسباد فى تشيكوسلوفاكيا ويطلقون عليها حاليا اسم

كارلوفيفارى .. وقد نزلنا فى فندق البوب Pope الذى كان ومازال شهيرا كبيرا فخما ذا واجهة صفراء اللون أمامه حدائق فسيحة منمقة ووراءه تلال خضراء وغابات كثيفة كانت تفوح منها رائحة الخضرة الندية الزكية التى كانت جديدة علىّ مثلما كانت أغلب تجارب تلك الرحلة الشائقة ..

ومازلت اذكر أنى كنت أصحب والدى أحيانا إلى مركز الحمامات القريب من الفندق وشاهدت كيف كانوا يعالجون السمنة وأمراض الكبد والمعدة والمرارة وضغط الدم وغيرها والمتفرعة أحيانا كثيرا من تلك السمنة ، بشرب المياه المعدنية المتدفقة من النافورات فى تلك «الحمامات» Baden وكان الرجال والنساء يحمل كل منهم كوبا خاصا به طويلا ضيقا (مبططا) مثل حجم علبتى سجائر سويا وللكوب فم صغير ملتو (بزبوز) وكان على المريض أن يشرب من تلك المياه على الأقل ثلاثة أو أربعة أقداح يوميا ان لم يكن أكثر حسبما يرى الأطباء المعالجون الذين ينتمون إلى المركز .

ومازلت أحمل فى مخيلتى صورة هؤلاء الرجال والنساء .. كانوا جميعا يميلون إلى البدانة وقد حمل كل منهم «كرشا» منتفخا أمامه لم يستطع اخفاءه صديرى البذلة ولا كاتينة (سلسلة) الساعة الذهبية العريضة . وكانت نساء ذلك الجيل أيضا يملن إلى السمنة بصفة عامة .. ومازالت النساء الألمانيات وكثير من نساء وسط أوروبا إلى

يومنا هذا يملن إلى البدانة بالمثل .. وكن يلبسن قبعات الصباح كما جرت العادة فى ذلك الحين .. وكانت حمامات الطين الساخن فى مركز العلاج والمياه المعدنية والتدليك وسيلة القادرين لاصلاح ما أفسدته كثرة الطعام وقلة الحركة والرياضة . كما كانت محطات المياه المعدنية (Baden) فى كل أوروبا منتجعا اجتماعيا يؤمه علية القوم ومن أراد التشبه بهم أو الاختلاط معهم .. وباسم الاستشفاء أقامت أوروبا مراكز أو منتديات اجتماعية سياحية علاجية كثيرة لصالح اصحاب النقود الكثيرة وأوقات الفراغ والباحثين عن الأنيس أو الرفيق أو الصديق في الكازينوهات الملحقة بتلك المجتمعات .

كانت اقامتنا فى فندق البوب سهلة مريحة وإن كانت لا تقارن باقامتى على سطح الباخرة من حيث امكانيات التسلية لطفل صغير.. ولكنها تركت فيّ حتى اليوم عشق الخبز الأسود Schwarz Brod المصنوع من دقيق الشوفان Ryc الموجود فى أوروبا وأمريكا أى فى الأماكن الباردة . ولهذا الخبز مذاق طيب يميل إلى المزازة .. وقد اكتشفت أن أكله طيب جدا وبخاصة مع قليل من الزبد ومع مربب (مربة) المشمش .

ومن كارلسباد Karlsbad ركبنا القطار إلى برلين ثم فرانكفورت.. ومازلت أحمل فى ذاكرتي منظر شارع انتردن ليندن Unter den Linden الشهير فى برلين ولم يكن يقل شهرة عن

طريق الشانزليزيه فى باريس .. وكان فى ذلك الحين يعتبر قلب ألمانيا كلها ، بل قلب الشعوب الناطقة بالألمانية كلها ، جمالا وثقافة ومدنية وجاها .. وكان عن حق يعتبر واحدا من أفخم وارقى شوارع أوروبا بل العالم كله . لكنى أذكر أيضا أن الألمان كانوا يعملون فى أسفل أنتردن لندن وغيره من الشوارع فى قلب برلين فى منتصف الليل فى حفر انفاق قيل لنا حينئذ إنها انفاق لمترو برلين .. لكن يبدو أن هتلر كان وقتها قد بدأ استعداداته للحرب القادمة بعد سنوات أربع لا أكثر !!

كذلك مما استلفت نظرى وأنا حدث صغير شدة اقبال الألمان على العمل وحبهم الشديد للنظام وغيرتهم الوطنية الشهيرة بل تعصب كل منهم لولايته أو مدينته ، سأل والدى ذات مرة صبيا لم يتجاوز الثالثة عشرة يعمل فى خدمة أحد مصاعد الفندق فى انتردن لندن من أى مكان أتى من ألمانيا فأجابه الشاب بافتخار ومازالت كلماته ترن فى أذنى : Ich bin ein Berliner أنا واحد من أفراد برلين (أنا من برلين !) وقد ردد المرحوم الرئيس كيندى هذه الكلمات فى إحدى خطبه الحماسية عند زيارته لبرلين الغربية ! قبل توحيد الألمانيتين .

سرعان ما عوضنى الله خيرا عن مللى وضجرى فى كارلسباد وبرلين حينما ذهبنا إلى فرانكفورت ومنها نظم لنا والدى رحلة نهرية

جميلة على نهر الراين من ماينز إلى كوبلنز Mainz - Koblenz وكولون Köln وحتى منذ سنة ١٩٣٥ كانت هناك سفن كبيرة جميلة للنزهة على نهر الراين الذى يعتبر واحدا من أجمل أنهار العالم ، والسفن السياحية التى تجوب النهر قد تحمل كل واحدة منها أكثر من مائتى راكب . ويمكن الآن ركوبها لمسافات مختلفة قد تأخذك من بحر الشمال إلى البحر الأسود مرورا بنهر الراين فنهر الدانوب .. ولكن ذاكرتى تحمل ذكرى المسافة ما بين ماينز وكوبلنز ذهابا وإيابا، ومازالت مخيلتى تحمل صورة الركاب الألمان يسمرون ويتضاحكون ويغنون ويأكلون ويشربون البيرة ، والمنطقة غنية جدا بأنواع البيرة (الجعة) الألمانية الطيبة وبالانبذة البيضاء التى تشتهر بها منطقة راين لاند .

وقد عدت فيما بعد إلى ركوب مثل تلك السفينة فى سنوات لاحقة فى نفس المنطقة لكى أعيد إلى ذهنى صور ومناظر القصور والحصون التاريخية المقامة فوق التلال الخضراء التى تطل على نهر الراين فى هذه المنطقة . وما من شك أن نفس التجربة ونفس المناظر تعنى أشياء مختلفة تماما بالنسبة للحدث الصغير عنها بالنسبة للدبلوماسى الشاب . فان رحلتى الثانية على نفس نوع السفينة وعلى نفس النهر فى نفس البقعة كانت أغنى كثيرا بما حملته من تداعيات وصور وأفكار وذكريات وقراءات لاحقة لابد أن

يبرز فيها ويطغى عليها اسم واجنر Wagner وأوبرات وموسيقى واجنر واسماء سيجفريد وبارسيفال وتانهاوزر ودى فالكيرى ! وكذلك هتلر وبرخستجادن (عش النسر المقام فوق الجبال فى مناطق مشابهة)!

المهم ان رحلتى إلى أوروبا وأنا حدث صغير جعلتنى أحس مبكرا بلذة السفر ومعيشة البواخر والفنادق وألتهم جمال مدن أوروبا وحسن نظامها . وحدث لى ما يحدث عادة لمن فى هذه السن المبكرة حين يعودون من أمريكا أو أوروبا إلى مدنهم فى شتى أنحاء العالم الثالث فينالهم تأثير تلك «الصدمة الحضارية» ويسألون ذويهم بلهفة وقلق «متى ستتاح لنا فرصة العودة إلى أوروبا أو أمريكا مرة ثانية ؟» .. ولابد أن يعى الأهل هذا الدرس فإنهم حينما يصحبون أولادهم الصغار إلى أوروبا وأمريكا سواء للاقامة فترة من الزمن أو حتى للزيارة فهم إنما يشكلون تفكير واتجاهات خطط أولادهم للمستقبل حتى دون أن يشعر الأهل أو يشعر الأولاد ..

ولست أشك فى أن ذكرى رحلتى إلى أوروبا وأنا فى هذه السن المبكرة قد هيأتنى ذهنيا بل جذبتنى بشدة لحياة السلك الدبلوماسى ولكثرة الاسفار والترحال . فانى اذكر جيدا أنى ومازلت فى مراحل الدراسة الثانوية كنت ألهو – كما يحدث لنا كلنا كثيرا – أثناء أحلام اليقظة الجميلة ، برسم وتخطيط دوائر ومربعات وصور وأسماء

بالقلم الرصاص ، كانت تنتهى فى كثير من الأحيان بتوقيعى لاسمى وقد سبقه لقب « السفير» وأحيانا مع تخصيص صفة «سفير مصر لدى بلاط سان جيمس (فى بريطانيا)» .. وكان منصب سفير مصر فى لندن فى تلك السنوات (أى قبل الخمسينات) هو أكثر ما يصبو إليه رجل السلك الدبلوماسى فقد كانت لندن عاصمة العالم قبل أن تزاحمها فيه واشنطن ، ولم تبدأ أهمية واشنطن سياسيا وعالميا إلا بعد الحرب العالمية الثانية ..

وبدأت فكرة الالتحاق بالسلك الدبلوماسى تختمر وتتأصل فى نفسى حتى استقر بى الرأى نهائيا على ذلك حتى قبل التحاقى بالجامعة . وكان دخول السلك الدبلوماسى فى تلك الأيام يستلزم – عادة – التخرج فى احدى كليتين ، الحقوق أو التجارة كما جرت العادة فهاتان الكليتان تدرسان المواد التى ستكون موضوع اختبار الدخول الذى تشترطه لوائح وزارة الخارجية ، إلا أننى فضلت الالتحاق بكلية الآداب قسم الأدب الانجليزى تشبها بأستاذى المرحوم دكتور رشاد رشدى الذى كان لى حظ التتلمذ على يديه فى مراحل دراستى الثانوية فى مدرسة مصر الجديدة الثانوية حيث كان رشاد رشدى يدرس اللغة الانجليزية بعد عودته من بعثته فى بريطانيا . وكان يعامل تلاميذه بطريقة جديدة تماما ومختلفة عما اعتاده التلاميذ المصريون من اساتذتهم . أى أنه كان يطبق علينا

ما رآه وعايشه فى اكستر بانجلترا فكان يدعونا إلى حفلات شاى فى منزله فى الزيتون وكان يسمعنا موسيقاه ويقرأ علينا مقتطفات من الأدب الانجليزى وكان يقرضنا كتبا من مكتبته الخاصة وكان كل هذا جديدا علينا وعلى مصر . وقد تأثرت بشخصيته واستاذيته إلى درجة أن قررت أن احتذى حذوه وأدرس الأدب الانجليزى تشبها برشاد رشدى من ناحية ولما اظهرته استاذيته فىّ من استعداد فطرى لتعلم اللغات الاجنبية .. وهذا مثال حى لمدى امكانيات تأثير الاساتذة على طلبتهم إن حسنا أو سيئا ، ان حبا أو بغضا .

وقد ساعدنى الحظ على تنفيذ أحلام يقظتى كلها كما رسمتها فقد التحقت بكلية الآداب قسم الأدب الانجليزى بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) سنة ١٩٤٣ وتخرجت فيها فى يوليو ١٩٤٧ .

وكانت جائزة تخرجى فى سن الحادية والعشرين هى قبول والدى لإيفادى فى رحلة جامعية نظمتها كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول للاساتذة والطلبة فى صيف ١٩٤٧ إلى أسبانيا . وكانت هذه «القشة التى قصمت ظهر البعير» على رأى المثل ، أو القطرة التى جعلت الكوب يفيض بما فيه من ماء . فقد كان تأثير هذه الرحلة حاسما فى انهاء أى تردد بشأن تقريرى اختيار حياة السفر والترحال . كما كان لها أثر لا ينمحى - حتى اليوم - فى اجتذابى إلى حب اسبانيا والشعب الاسبانى واللغة الاسبانية والموسيقى

الاسبانية سواء أكانت فلامنكو أو ثارثويلا [1] أو كلاسيكية طالما كانت موسيقى اسبانية تقليدية ، حبا مازال يملأ جوانحى حتى هذه الساعة وقد غلب على حبى لأى ثقافة أجنبية أخرى لمدة طويلة لاحقة.. هل كان هذا تأثير السن فحسب عملا بالمثل الشائع «التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ؟» أم هو خليط من هذا ومن تأثرى بعظمة ما خلّده العرب من ثقافة وحضارة وآثار بالغة الجمال والرقة فى اسبانيا وبخاصة فى الأندلس وبافتخار الأسبان بانتسابهم إلى أمجاد هذه الحضارة الأندلسية العربية التى ورثوها عن العرب فى بلادهم ؟

وبديهى أن ادراكى وتفهمى للمسات ولمعانى الجمال والابداع فى زيارتى الثانية لاوروبا لا يعادله تأثرى بزيارتى الأولى لها مع والدى، سوى أن زيارتى الأولى كانت أول ما تفتحت عليه عيناى من هذه الدنيا الجديدة الفاتنة ، المنظمة والنظيفة والجميلة ، أما زيارتى لأسبانيا فقد حققت تعميق إحساسى بروعة وجمال الطبيعة وبعظمة الخالق وابداع وتفنن الإنسان . فالطبيعة فى اسبانيا متنوعة متجددة ورائعة الجمال ، وما خلّفه الإنسان - العربى والأسبانى

---

(١) الموسيقى الفلامنكو هى التى تصحب الرقص الأسبانى التقليدى الشهير أما الثارثويلا فهى موسيقى اوبريتات يصحبها الغناء المسرحى وأصل الكلمة يرجع إلى «الثرثرجة» بالعربية !!

Flamenco - Zarzuela

بها، من آيات الجمال والإبداع اثار شهيتى إلى الاستزادة من هذه المتعة الذهنية والحسية الجديدة التى تفتحت أمام ناظرى وأمام مخيلتى .

بعد أن حملتنا السفينة المصرية إلى ميناء مرسيليا بفرنسا ركبنا قطارا فرنسيا صوب الحدود الاسبانية ووصلنا مدينة ناربون الفرنسية فى المساء . ولم تكن مقصدنا ولم يكن لها مكان فى رحلتنا سوى أنها معبر وملتقى خطوط السكك الحديدية المتجهة من مرسيليا غربا ومن باريس وليون جنوبا صوب الحدود الاسبانية . إلا أننا تذكرنا أن ناربون قريبة جدا من بواتيير [1] التى وصلتها جيوش العرب فى محاولتهم الزحف شمالا من اسبانيا . وفى بواتيير صدهم شارلمان وأوقف المد العربى . ولم يصل قطار باريس إلى ناربون إلا بعد منتصف الليل بوقت ليس بقصير امضيناه فى السمر والمرح فى محطة القطار . ولما كنا فى رحلة جامعية فكان طبيعيا أن نستقل القطار فى عربات الدرجة الثانية ودون عربات نوم بطبيعة الحال . لكن الشباب وفرحة اللقاء مع الاخوان والتطلع إلى بهجة الرحلة المستقبلة كان كفيلا بتمتعنا التام بمقاعد الدرجة الثانية بل والثالثة إذا لزم الأمر . وهو قطار فرنسى على أى حال أى أنه جمع ما بين الراحة والنظافة والاناقة فى غير تبرج .

ولما كان الصباح طالع عيوننا منظر من أجمل مناظر الدنيا دون

---

(١) Poitiers

منازع . فقد كان القطار يجتاز بنا قمم جبال البيرينيز (أى البرانس كما اسماها العرب لان قممها الكثيرة المدببة تشبه رؤوسا تغطيها البرانس التى كانت شائعة بين أهل المغرب والأندلس) . وكنا نعلو واحدة من تلك القمم التى تشرف من علٍ بل من ارتفاع شاهق على شريط الساحل الفرنسى الاسبانى لمسافة عشرات الكيلو مترات شمالا وجنوبا وعلى اديم البحر الأبيض صافى الزرقة رائع الجمال وهو يداعب شاطئ اسبانيا الشمالى الشرقى الذى تحف به التلال والربا الخضراء المكسوة بالغابات ذات الخضرة الداكنة . واجتاز القطار القمم التى تشرف على مدينة سيربير Cerbére آخر مدن فرنسا والتى تواجه مدينة بوربو Porbou الأسبانية وهبط بنا رويدا رويدا إلى تلك المدينة التى هى أول مدينة يقابلها المسافر فى اسبانيا إذا ما دخلها من ذلك الشريط الفرنسى الساحلى .

وقد ذكّرنى ذلك المنظر الرائع فوق قمم البيرينيز بوصف أمير الشعراء أحمد شوقى للطبيعة فى مناسبة شديدة الشبه وهو يجتاز جبال التيرول فى النمسا جالسا فى القطار هو الآخر

حين قال :

تلك الطبيــعة قـف بنا يا ســارى
حـتى أريك بديع صـنع البـارى

الأرض حـولك والسـماء انفضـتا
لروائـــع الآيـــات والآثـــار

كشف الغطاء عن التيرول فاشرقت

منـــه الطبيعـة غير ذات ســـتار

شبهــتها بلقيس فـــوق ســـريرها

فى نضـــرة ومـعـــالم وجـــوارى

أو بابــن داود وواســـع ملـــــكه

ومعـــالم للـــعـز فيــــه كبــار

من شـك فيـه فنظرة فى صـنعه

تمحـــو اثيـم الشـــــك والانـكار

وهناك فى بوربو كان فى انتظارنا وفد يضم البعثة الاسبانية التى كلفت باستقبال الجامعيين المصريين Los Universitarios Egipcios ومرافقتنا طوال أيام الزيارة في أسبانيا والتى كان مقررا لها ثلاثة أسابيع . وكانت بعثة الاستقبال تضم اثنين من شباب دبلوماسى اسبانيا واحد منهم على الأقل كان يتكلم العربية أذكر ان اسمه كان سنيور البرتو باسكوال وقد تابعت نشاطه بعد ذلك وعلمت انه وصل إلى رتبة سفير اسبانيا فى عدة عواصم منها الرباط وجاكارتا . وإلى جانبه كان يوجد أيضا ثلاثة من الطلبة الأسبان فى جامعتى مدريد وبرشلونة «والمتبحرين» فى دراسات اللغة العربية والآداب العربية فضلا عن عدد من موظفى الجمارك

الذين سهلوا مرور امتعتنا ونقلها إلى حافلة (أوتوبيس) اسبانية خصصت لرحلتنا وظلت معنا إلى نهاية المطاف مع سائقها الاسبانى .

ومازلت اذكر بحنين وشوق واحدا من طلبة جامعة برشلونة الذى ظل مرافقا لنا طول الرحلة وكان يدرس اللغة العربية وآدابها فى تلك الجامعة وكان اسمه رامون فوستى دى آرا وقدم نفسه إلينا على أن اسمه المختار هو رامون «النجار» (كذا .. بالعربية) . ويبدو أن كل طالب اسبانى كان يدرس العربية كان يشجع على أن يختار كنية (اسم كناية) عربية – مثلما كانت عادة العرب قديما – فاختار هو كنية النجار ! وكم كانت دهشته عندما علم أننا نحن المصريين لم نكن نتمثل بمثل العرب القدامى فى اختيار الكنية ! لكنه كان شابا رقيقا وديعا وسهل المعشر وكان يتيم الأب ويقيم مع والدته فى برشلونة أى أنه كان من مقاطعة كاتالونيا (قطالونية) ولهجتها أو قل لغة أهلها تخالف كثيرا لغة كاستيل El Castillano لغة أهل مدريد والأندلس ، اللغة الرسمية لاسبانيا كلها . لكنه كان يتكلم الفرنسية أيضا وقليلا من الانجليزية .

بيد أن الجميع سرعان ما أدركوا أن إجادة المصريين للحديث بالانجليزية أو الفرنسية تفوق كثيرا إجادة اصدقائنا الاسبان للغة العربية مهما كانوا متقدمين فى دراستها . فكانت أحاديثنا المشتركة مع مضيفينا الأسبان تدور إما بالانجليزية التى يفضلها

غالبية المصريين أو بالفرنسية وفقا لدرجة اجادة المصريين أو الأسبان لهذه اللغة أو تلك .. وكنت خريجا لكلية الآداب ، ومتخصصا فى الانجليزية .. كما كنت أحسن التحدث بالفرنسية التى كانت تدرس فى ذلك الحين ولمدة السنوات الأربع فى كلية الآداب حتى فى قسم اللغة الانجليزية .. وكانت دراسة اللغات فى مصر فى تلك الأيام محل الاهتمام الجدى وكانت تتم على أيدى مدرسين من ابناء اللغة الاجنبية ذاتها .. ومن هنا فقد توثقت بى العلاقات سريعا مع الجامعيين الاسبان ودارت بيننا احاديث طويلة وطريفة طوال أمسيات الرحلة ..

وكان معنا ضمن الاساتذة المرافقين أو المشرفين على الرحلة الاساتذة والدكاترة (رحم الله من توفى منهم رحمة واسعة) الشرقاوى رئيس قسم الجغرافيا بكلية الآداب ، وخلف الله استاذ اللغة العربية بالكلية ، الاستاذ الدكتور أمين الخولى وزوجته عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» ، والدكتور أحمد جيرة ، طبيب الأسنان بالجامعة ، والأستاذ عبد الخالق مسجل كلية الآداب فى ذلك الحين . وكما نعلم كلنا فقد سبق للدكتور الخولى أن أمضى عدة سنوات فى إيطاليا وكان يجيد الحديث بالإيطالية ومن ثم كان يستمع إلى الأسبانية ثم يجيب عنها بالإيطالية ويخطب بها أيضا فى المناسبات الرسمية فقد كانت لغته الأجنبية الأولى كما كانت مفهومة للأسبان إلى حد ما ..

ومن هنا ظهر هناك نوع من اللبس والفكاهة بسبب اختلاف اللغتين الاسبانية والإيطالية فكان اسمنا وفقا للإيطاليين Egizziani أى المصريين وتنطق بالإيطالية اجيتسيانى لكن وفقا للنطق الأسبانى كان الأسبان ينطقون نفس الكلمة بالخاء بدلا من تعطيش الجيم أى «اخبتيانى» وكانوا ينطقون كلمة مصر Egipto اخيبتو وكنا نحن «الاخبتيانى» وكان هذا مثارا لكثير من ضحك وفكاهة المصريين بسبب وقع الكلمتين على اسماعنا .

أما المرحوم دكتور جيرة فكان يكتب اسمه بالحروف اللاتينية هكذا Gira وقد أدى ذلك إلى أن ينطق الاسبان اسمه حسب عادتهم هكذا دكتور «خيرا» .. ورغم محاولاته فى البداية اصلاح ما افسدته الألف باء الاسبانية فقد ظل اسمه إلى نهاية الرحلة «خيرا» وكان رحمه الله خفيف الظل حسن المعشر فكان هو نفسه أول من شارك الأسبان فى «جر شكله» بترديد كلمة خيرا على اسماعه . كما كان رحمه الله قائد المجموعة المصرية كلها فى تلقيننا وقيادتنا فى الأغانى الجماعية الترفيهية الخفيفة .

ولم نمكث فى بوربو فسرعان ما نظمنا أساتذتنا المشرفون على الرحلة داخل الحافلة : الزميلات الطالبات الجامعيات فى الصفوف الأولى ثم الاساتذة الذين احتلوا الصفوف التالية لهن ، ثم بقية «المهرجين» أى الطلبة المصريين والاسبان ومعنا مضيفونا من الوفد

الاسباني . وسرعان ما جمعتنا روح الألفة وحماسة الشباب وفرحة لقاء الأصدقاء الجدد والتطلع بلهفة إلى رحلة سعيدة فى احاديث ونكات وضحكات ولهو برئ ظل معنا طوال أيام وليالى الرحلة (فكثيرا ما كانت تسير بنا الحافلة من مدينة لأخرى اثناء الليل) إلا فى السويعات التى يكون قد انهكتنا فيها التعب وكثرة الكلام والضحك وغلبنا النعاس داخل الحافلة .

وأمضينا ليلتنا الأولى فى مدينة فيجيراس الصغيرة Figueras القريبة من بوربو والواقعة فى الطريق إلى برشلونة ثم ثاراجوثا ثم قلعة أيوب Calat ayub ثم مدريد .

وقد أعجبنا نحن المصريين كثيرا بنظافة واناقة هذه المدينة الصغيرة فيجيراس بل قل إنها قرية كبيرة .. اعجبنا إيما اعجاب بنظافة شوارعها المسفلته كلها وبحوانيتها الأنيقة وبالنظافة برغم بساطة الفندق الذى نزلنا فيه .. ولا شك أن زملائى من المصريين تمنوا مثلما تمنيت أن نرى اليوم الذى تصبح فيه قرى مصر بنفس مستوى النظافة والأناقة البسيطة .. لكنا وجدنا بعد ذلك انها كانت سمات مشتركة مع كل القرى أو المدن الصغيرة فى أوروبا الغربية كلها ..

وفى فيجيراس وجدت فى أحد المحال الصغيرة قميصا سماوى اللون به مربعات صغيرة بيضاء اعجبنى كثيرا لونه وسعره الرخيص

وملمسه فقد ظننته حريرا ولعله كان حريرا صناعيا وكان هذا أول عهدنا بالحرائر الصناعية . وصرت أختال به ثم سرعان ما ضممت إليه فى مدريد جاكتة «سبور» صيفية دون ياقة وبها صف من الأزرار الأمامية يطلق عليها الأسبان Una Americana [1] .

وسارت بنا الحافلة . وقد دهشنا نحن المصريين لما اكتشفناه لأول مرة بشأن طريقة معيشة الأسبان فى فصل الصيف . فقد كانت الحافلة تطوى بنا المسافات الطويلة ما بين المدن والقرى ليلا ، وكثر دخولنا وخروجنا من قرى ومدن صغيرة فى منتصف الليل أى بعد الثانية صباحا ، هذا ما حدث لنا عندما دخلنا مدينة قلعة أيوب Calat ayub فقد هالنا ما وجدناه من استمرار جميع مظاهر الحياة والنشاط وكثرة الأنوار فى هذه المدينة الصغيرة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .. جميع المقاهى والمطاعم مزدحمة على آخرها . النساء والأطفال يتنزهون فى الشوارع وكأنهم فى عز الظهيرة .. وعجبنا لأمر هذا الشعب الأسبانى .. ثم اكتشفنا شيئا آخر .. فالحياة والنشاط الاقتصادى يبدآن حوالى التاسعة صباحا ويستمران إلى الواحدة أو الواحدة والنصف ظهرا .. ثم تعطل كل الحركة تماما حتى الرابعة أو الخامسة مساء حين تستأنف ولا تنتهى حتى الساعات المتأخرة من الليل أى أن الأسبان وبخاصة فى

(١) يطلق الأسبان كلمة امير كان على الجاكتات .

النصف الجنوبى من اسبانيا ومناطق أخرى حيث تشتد الحرارة صيفا يعيشون أغلب حياتهم ليلا .. ويتناولون طعام الغذاء فى الثانية أو الثانية والنصف ظهرا ثم يمارسون «رياضة» النوم بعد الغداء (القيلولة) La Siesta لعدة ساعات حين تخلو الطرقات تماما من الحركة ومظاهر النشاط ، ثم حين تغرب الشمس يهرعون للخارج ، لتناول بعض المشروبات والمرطبات فى المقاهى أو الكازينوهات ابتداء من السابعة مساء ، ساعة الفيرموث La Hora del Vermuth أما العشاء فلا يمكن التفكير فيه قبل العاشرة مساء أو حتى الحادية عشرة مساء . وإذا ما ذهب اجنبى إلى أحد المطاعم قبل العاشرة مساء لخيل إليه أنه فى عطلة أو أنه مقفل . اما قبل العشاء فهناك ظاهرة اسبانية أخرى تصحب «ساعة الفيرموث» واسمها Las Tapas أى تناول بعض المشهيات أو قل اشبه شىء «بالمزات» وبخاصة نتاج البحر كالسردين الصغير المشوى أو الجمبرى أو القواقع البحرية وخلافه مع بعض النبيذ الذى تشتهر به اسبانيا أو بعض المشروبات الكحولية الأخرى . ولا يخلو شارع فى مدينة اسبانية من مقهى أو حانة تحمل كلمات Tapas أو Bocadillos (مزات) وهو ما يتناوله الأسبان وقوفا حول البار اثناء تبادل الاحاديث أو الفكاهة بأصوات تكاد تقارب ارتفاع اصوات المصريين !

أما الرياضتان الوطنيتان المحبتان للاسبان فهما الخاى ألاى Jai Alai أو Fronto'n وأصلها فى شمال اسبانيا أى منطقة الباسك وهى لعبة كرة سريعة جدا أقرب إلى الاسكواش لكن المضرب يلبس في اليد ولا يزيد كثيرا على حجم الكف . أما فى بقية أنحاء أسبانيا «فالرياضة» الشعبية الأولى مازالت مشاهدة مصارعة الثيران تليها مباريات كرة القدم .. أما مصارعة الثيران فلها أهلها وطقوسها وتقاليدها القديمة وموسيقاها الخاصة واحتفالاتها الخاصة .. وهى رياضة (ان امكن ان نسميها بذلك) تقوم على شجاعة المصارع ورباطة جأشه وخفة حركته وطريقة ادائه التى يجب أن تتميز بالكبرياء والخيلاء إلى جانب الشجاعة وخفة الحركة . وكانت ومازالت أهم وسيلة لكسر الحواجز الاجتماعية وتسلق درجات المجتمع سريعا إلى الثراء والطبقات العليا لمن ولدوا أصلا أسفل الدرك . فالاسبان يقدسون ابطال مصارعة الثيران ، ورياضة مصارعة الثيران تختلف فى اسبانيا عنها فى البرتغال (رغم أن كليهما ظل حوالى سبعمائة سنة تحت الحكم العربى) ففى البرتغال لا تنتهى المصارعة بقتل الثيران مثلما يحدث فى اسبانيا .. كذلك فى اسبانيا يحتفلون بعيد القديس فيرمين San Fermin فى مدينة بامبلونا فى منطقة الباسك بتخريج فئات جديدة من الثيران الصالحة للمصارعة باطلاقها دفعة واحدة فى شوارع المدينة فتعدو

الثيران وراء الشبان والشابات الذين يجرون أمام الثيران ويحفزونها على متابعتهم أو مطاردتهم في شوارع المدينة . كل ذلك والهرج والمرج والضحك والفكاهة على أفواه العدائين والمشاهدين لا يقطعها إلا تمكن ثور هائج وسريع من اللحاق بأحد العدائين وطرحه أرضا وغرس قرونه الحادة في جسده . وفي سنة ١٩٨٨ قتلت الثيران في احتفالات بامبلونا اثنين من هؤلاء الشبان وجرحت عددا آخر .

لما وصلنا مدريد عاصمة اسبانيا احتفت بنا وزارتا الخارجية والسياحة الاسبانيتان حفاوة كبيرة حقا فقد كان وفد الجامعيين المصريين أول وفد جامعي مصرى يزور اسبانيا بل لعلنا كنا من أوائل الوفود الأجنبية التي زارت اسبانيا بعد الحرب . فقد كانت أسبانيا في أوائل حكم الجنرال فرانكو دولة فاشية محافظة وشبه مغلقة أو شبه معزولة عن العالم الغربي والشرقي على حد سواء . فقد كان نظام فرانكو غير محبب إلى الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين إذ قام بعد حرب أهلية طاحنة ٣٦ - ١٩٣٩ على اكتاف وبمساعدة هتلر وموسوليني إبان تلك الحرب الأهلية حتى تمكن فرانكو من هزيمة الجمهوريين الاشتراكيين الاسبان الذين كان يساعدهم السوفييت .. ناهيك عن أن فرانكو كان قد رفض الانضمام إلى الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وظل على الحياد وإن كان حياده متسما بالتعاطف الواضح مع هتلر وموسوليني

اللذين ساعداه في الحرب الأهلية الاسبانية .. ومن هنا كان ترحيب السلطات الأسبانية بتوسيع وتعميق اتصالاتها مع العالم العربى حديث الاستقلال بعد الحرب .. فهو عالم جديد فتي وإن كان عالما محافظا هو الآخر ومن ثم كان معقدا كثيرا من الآمال . زد على ذلك ما لمسناه حقا من تعاطف الشعب الأسبانى مع العرب ومن اعجابهم واعترافهم بفضل الحضارة العربية على تطوير وتنشيط الحضارة الأسبانية [1] . وقد سمعنا فى رحلتنا هذه كثيرا من الأسبان يفخرون بانحدارهم من أصول عربية عاشت فى الأندلس كما سمعنا منهم أن عدد الكلمات العربية أو المشتقة من العربية التى مازالت تستعمل فى اللغة الأسبانية قد لا يقل عن عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف كلمة وتوجد معاجم أسبانية كثيرة مخصصة لدراسة الكلمات المشتقة من العربية فى اللغة الأسبانية .

وقد استضافنا الأسبان فى أغلب المدن الكبيرة التى زرناها فى المدن الجامعية لتلك المدن وكنا نتناول وجباتنا فى المطاعم الجامعية،

---

(١) بعد هزيمة جيوش الدول العربية سنة ١٩٦٧ ورفض العرب السلام والمفاوضات والاعتراف باسرائيل وقف مندوب اسبانيا فى الأمم المتحدة فى خطبة عصماء فأشاد بفضل الحضارة العربية على العالم الغربى ونادى دول العالم بتفهم موقف العرب من اسرائيل وحليفاتها من الدول الغربية قائلا : إن أى حل للمشكلة يجب أن يأخذ فى اعتباره أمجاد العرب وتاريخهم وطريقة تفكيرهم وكبرياءهم الجريحة وإحساسهم بالظلم وحاجتهم للعدالة ..

وان كانت هذه مغلقة صيفا بسبب العطلة الصيفية كما حدث فعلا فقد ظلت مفتوحة خصيصا من أجلنا ومن أجل خدمتنا واطعامنا . والحق ان كل شيء كان محببا إلى النفس فيما عدا أن بعضنا لم يقدر أن يستسيغ ما جرى عليه الأسبان من طهى كثير من ألوان الطعام "كالاومليت" واللحوم والأرز والخضراوات بزيت الزيتون الذى تشتهر اسبانيا بانتاجه بكثرة ووفرة عظيمة . فهو يترك - إذا ما استعمل فى الطهى - طعما معينا ورائحة نفاذة فى اجواء المطاعم لم نعتدها نحن فى مصر . ومازالت كثير من الأماكن الريفية فى اسبانيا تجرى على استعمال زيت الزيتون فى طهى الطعام لاعتدال سعره نسبيا ووفقا للذوق الاسبانى الذى اعتاده تماما . إلا أن المطاعم والفنادق الكبرى حاليا اقلعت عن تلك العادة وبدأت منذ زمن فى طهى الأطعمة بالسمن الصناعى وذلك تماشيا مع ذوق السائحين الاجانب بعد القفزة الهائلة التى قفزتها السياحة فى اسبانيا منذ حقبتين أو أكثر . وفى سنة ١٩٨٧ استقبلت اسبانيا خمسة وخمسين مليون سائح اجنبى فى حين أن الشعب الاسبانى بأكمله لم يتجاوز تسعة وثلاثين مليونا !

ويجمع الأسبان على أن لهذه الظاهرة الهامة فوائدها الاقتصادية بل والسياسية وان كانت لها مضارها الاجتماعية الواضحة . فقد كان لتكرار زيارة واقامة ملايين من السائحين من

أهل اسكندناوة والمانيا وبريطانيا وفرنسا وهكذا تأثير أى تأثير على تغيير عادات واخلاق الشعب الاسبانى الذى اشتهر اصلا بالميل إلى التدين والمحافظة .

أما فى بقية المدن التى قمنا بزيارتها أو المبيت فيها فكان مبيتنا فى فنادق صغيرة متواضعة ونظيفة وكان مأكلنا فى مطاعم كان لنا حق اختيار الوجبات فيها كل حسب ذوقه وفى كثير من الاحيان كان مبيتنا داخل الحافلة نفسها وهى تطوى بنا الطريق الطويل من مدينة لأخرى فالمسافات فى أسبانيا ما بين شمالها وجنوبها وشرقها وغربها شاسعة حقا .. ولم تكن الطرق السريعة المزدوجة قد عرفت بعد فى كل أوروبا ناهيك باسبانيا ..

بعد وصولنا إلى مدريد كما سبقت الاشارة اقامت لنا السلطات الأسبانية حفلا لاستقبال البعثة الجامعية المصرية دعت إليه لفيفا من رجال الخارجية الاسبانية واساتذة الجامعات والمستشرقين ورجال «المفوضية» المصرية فى مدريد (فقد كانت مازالت مفوضية لم ترفع إلى سفارة بعد وكان يرأسها قائم بالأعمال بدرجة سكرتير أول) وكان القائم بالأعمال فى المفوضية حينئذ (المرحوم السفير) الأستاذ محمد عبد الشافى اللبان (رحمه الله وكان من أقدم وألمع رجال السلك الدبلوماسى المصرى) وكان يعاون سيادته ملحق

دبلوماسى شاب هو (المرحوم) الاستاذ عبد المنعم الطحاوى (أصبح سفيرا فيما بعد) .. كانت فرحة الاسبان بنا واضحة وتعادل فرحتنا بهم وبكرم ضيافتهم وحسن وفادتهم .. كما كانت فرحة رجال مفوضيتنا بنا كبيرة فإن المصريين الذين كانوا يسافرون للخارج أو يزورون اسبانيا سنة ١٩٤٧ كانوا قليلين جدا .

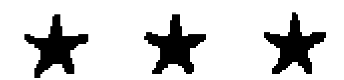
ومن هنا أقام لنا القائم بالأعمال المصرى أيضا حفل استقبال ردا على احتفاء الأسبان بنا ودار الحديث بينى وبين المرحوم الأخ عبد المنعم الطحاوى ملحق السفارة الذى رافق البعثة أيضا فى جزء من تجوالها . سألنى ذات مرة اما وقد تخرجت فى الجامعة فما هى خططك للمستقبل ؟! واجبته بالطبع انى أميل كثيرا إلى التقدم لامتحان مسابقة وزارة الخارجية الذى تعقده كل سنة لاختيار الملحقين الجدد . وأذكر جيدا اجابته حرفيا فقد قال لى «لا يكفى أن تتكلم الانجليزية أو الفرنسية كاحد أبنائها لكن يجب أن تنجح فى الامتحان التحريرى فى كافة المواد الأخرى ثم الامتحان الشفوى وألا تنسى أيضا أن يكون لديك الواسطة» .. وقد شكرت له نصيحته التى افادتنى فى شحذ همتى فى استذكار المواد الجديدة بالنسبة لى والاستعداد للاختبارين التحريرى والشفوى ..

فى اثناء الاحتفالات التى كان مضيفونا الأسبان يقيمونها لنا فى شتى العواصم التى زرناها كان بعض الأسبان يتبادلون لعب

البيانو أوالقيثارة La Guitarra أو الغناء وأداء بعض الأغانى الشعبية الشائعة كمجموعة.. ومع الأسف فقد تكرر مشهد طالما لمسته فيما بعد كثيرا طيلة كل حياتي الدبلوماسية فلم يكن وفدنا الجامعى إلى اسبانيا يضم من يمكنه العزف على أى آلة موسيقية سوى الزميل المرحوم الفنان حمادة عبد الوهاب التليفزيونى الشهير الراحل فكان رحمه الله مجندا وموكلا نيابة عنا فى تلبية أى دعوة فنية فكان يحسن لعب البيانو والغناء باللغات الأجنبية ايضا.. أما الأغانى المصرية الجماعية فلم تكن معروفة لجماعتنا ولم نكن سنة ٤٧ نعلم الكثير على أى حال وأعتقد أنه ينقصنا فى المدارس والجامعات المصرية حتى اليوم اعداد شبابنا لمواجهة هذه المواقف الفنية وبخاصة فى الأوساط الأجنبية التى تستدعى سرعة وسهولة الاستجابة لدعوة أداء الأغانى المصرية الجماعية سواء الحماسية أو الشعبية الخفيفة التى يحسن وقعها على الأذن الأجنبية والتى اعتادت الايقاع السريع وليس الآهات ! .

أما زملاؤنا الأسـبان المرافقون لنا فى الحافلة فسرعان مالقنونا أغنية أسبانية جماعية كانت شائعة وقتئذ صرنا نرددها معهم فى كل مناسبة بايقاعهـا السريع وهى :

لسوف اعطيك ..	yo te daré
لسوف اعطيك أيتها الفتـــاة الجميلة ..	Te Dare` Nirna Hermosa,
لسوف اعطيك شيئا ..	Te Daré una cosa,
شيئا أنا الوحيد الذى أعرفه ..	una cosa que yo solo sé Cofé
ألا وهو القهوة !	



كانت أسبانيا كما اسلفت قد خرجت من الحرب الأهلية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ منهكة مثخنة بالجراح المادية والنفسية وكانت لهذا السبب تعتبر شديدة التأخر نسبيا عن فرنسا وانجلترا . وبرغم ذلك فقد كانت ومازالت غنية حقا بمناظرها الطبيعية الخلابة المتفاوتة فضلا عن مدنها وقراها التاريخية التى تحوى روائع الفن المعمارى على مختلف العصور ومنها الجسور الموصلة للمياه التى بناها الرومان فى أسبانيا . Aquaductos

(مثال ذلك فى مدينة سيجوفيا) والآثار العربية، والفترة الانتقالية ما بين الفن العربى والمسيحى art mazarcbe ثم عصور النهضة المسيحية المتعددة من القوطية Gothic حتى الروكوكو -Roc cocco وأضف إلى ذلك كثرة القلاع والحصون والقصور، ثم الكنائس والكاتدرائيات والمتاحف ولعل أغلبنا من شباب الطلبة

المصريين كان يرى كل ذلك لأول مرة ولا شك، فكنا نقبل على الاستمتاع بمشاهدة هذه الروائع اقبال الجائع النهم على مائدة طعام حافلة شهية! ولم يبخل مضيفونا علينا فاعدوا لنا وجبات سياحية دسمة تضمنت زيارة أهم متـــاحف ومعالم مدينة مـــدريد مثل متحف البـــراد و El bra do الشهير وهو حافل بمجموعات رائعة من الرسوم الزيتية لمشاهير وكبار رسامى أوروبا وطبيعى أن المتحف يضم أكبر مجموعات لمشاهير الرسامين الأسبان انفسهم : جويا وفيلاسكيث والجريكو وهكذا ..

ومدينة مدريد لها تاريخها الحافل القديم فقد كانت عاصمة الامبراطورية الأسبانية المترامية الاطراف ولكنها أصيبت باضرار بالغة أثناء الحرب الأهلية الأسبانية لكن أعيد ترميمها وتعد اليوم واحدة من أفخم وانبل عواصم العالم ومن اقربها شبها بباريس فشوارعها فسيحة وتحليها مجموعة من التماثيل والأنصبة التذكارية الفخمة يأتى على رأسها ميدان Los Cibeles الذى يتوسط طريق الكاستيليانا Castelliana الشهير الذى يماثل الشانزليزية فى باريس . وكلمة Clibeles تعنى ماترمز اليه الكلمة العربية «السبيل» أى توفير مياه الشرب لعابرى السبيل . والنصب الأسبانى يقوم على أساس مجموعة من النافورات التى ربما كانت أصلا توفر مياه الشرب لعابرى السبيل. كذلك فان مدريد تضم مجموعة من الحدائق

العامة الواسعة على غرار Le Bois de Bologne في باريس أيضا وأهمها في مدريد El Parque del Retiro حديقة المنتجع .

وبعد مدريد أو بالأحرى من مدريد زرنا بعض الأماكن الأثرية المهمة حولها ومنها El Valle de los Callodos (١) وهو نصب فخم نحت من الجبل الأصم لتخليد ذكرى قتلى الحرب الأهلية الذين «سقطوا» إلى جانب الجنرال فرانكو.. ثم مئات الأفدنة التي تحتلها مدافن الشهداء الذين سقطوا Callidos في ساحة الشرف .

وبعد ذلك زرنا مدينة الاسكوريال El Eacosial وهي مصيف جبلي يقع على هضبة مرتفعة تبعد ثلاثين أو أربعين كيلو مترا شمال غربي مدريد بها قصر ملكي ومكتبة ومتحف من أكبر وأغنى مكتبات ومتاحف اسبانيا ومن أجلها أيضا. وكان ينتقل إليها بعض ملوك أسبانيا صيفا فرارا من حرارة مدريد (قد تصل الحرارة في مدريد صيفا إلى ٣٥ - ٤٠ درجة مئوية أما شتاء مدريد فقارس أيضا وتهبط الحرارة إلى مادون الصفر) .

ومازالت كثير من عائلات مدريد الثرية القديمة تملك منازل صيفية في الاسكوريال تنتقل إليها لتمضية بعض الصيف أو حتى تسكنها طوال العام هربا من ازدحام مدريد وحرارتها الشديدة

---

(١) ترجمتها الحرفية وادي الذين سقطوا .

صيفا وأذكر جيدا أن جولتنا في الاسكوريال تضمنت جولة على الاقدام في حدائق الاسكوريال الفسيحة المنمقة .. وقد لفت نظرنا نحن شباب المصريين جمال فتيات الاسكوريال بالذات جمالا تفوقن به على ما دونهن من فتيات اسبانيا .. وليس صحيحا طبعا أن كل فتيات اسبانيا جميلات لكن فتيات الاسكوريال كن يمثلن مجموعات من أرقى وانبل بيوتات اسبانيا القديمة وخرجن جماعات كثيرة للنزهة وسط الحدائق وقد لاحظ أحدنا ولفت نظرنا إلى كثرة عدد الفتيات ذوات العيون البنفسجية اللون "التى هى وسط ما بين اللونين الأزرق والأخضر" والبشرة الناصعة البياض والشعر الأسود الفاحم الناعم .

والواقع أن الشعب الاسبانى مثله مثل غالبية الشعوب مزيج من عدة أجناس وشعوب وتجد الشقراوات بكثرة مثلا فى شمال اسبانيا وشمالها الشرقى وتغلب السمرة على سكان جنوب اسبانيا وجنوبها الشرقى حيث كثر اختلاط الاسبان بالعرب، وهذه الصفة ليست مقصورة على الأسبان فان كثيرا من الشعوب الأخرى – مثل مصر وفرنسا – تحوى عناصر عرقية متفاوته .

وتمتاز أسبانيا – مثل غيرها من البلاد الأوروبية الراقية – بكثرة عدد الحدائق العامة الفسيحة المنمقة ولعل الأسبان ورثوا حب وفن غرس الحدائق عن أجدادهم من العرب الذين أدخلوا إلى أسبانيا

زراعات كثيرة لم تكن معروفة أصلا بأسبانيا، فضلا عن فنون الرى والصرف والمساقى والساقية بل وطواحين الهواء. فمدريد يزينها El Parque del Retiro كما اسلفنا وفى وسطه بحيرة صناعية واسعة حولها اكشاك الموسيقى ويؤم هذه الحديقة أعداد كبيرة من الأسبان للنزهة أو الخلوة بعيدا عن ضوضاء المدينة. وكل مدينة كبيرة أخرى فى أسبانيا لا بد أن تضم حديقة عامة أو أكثر إلى جانب تقليد أسبانى أصيل آخر هو La Plaza Major أى الميدان الكبير أو الأكبر وغالبا ما كان يقع وسط المدينة ويعتبر مركز نشاطها.. لكن إلى جنوب شرقى مدريد وعلى مسافة حوالى ستين كيلو مترا توجد مدينة أرانخويس Aranjuez وبها قصر ملكى جميل ذو حدائق غاية فى الجمال والإبداع التنظيمى وقد خلدها الموسيقار الأسبانى خواكين رودريجو Roderigo في مقطوعته الموسيقية كونسيرتو دى ارانخويس التى تصف شعور الزائر حين يزور القصر والحدائق المحيطة به..

كذلك فى مدينة غرناطة Granada إحدى درر الفن العربى فى الأندلس بل وفى كل العالم توجد حدائق قصر الحمراء La Alhambra التى بناها وخلفها العرب والقصر وحدائقه آية فى إبداع الفن والتصميم الهندسى العربى الرائع الذى يعكس تعطش

العرب للمياه ومدى حبهم لها واهتمامهم باستغلال وجودها أجمل استغلال فى شكل سلسلة متصلة من مساقط المياه والنافورات والمساقى. وقد احتفظ الأسبان بهذا القصر وحدائقه فى أجمل صورة، ويشيد المرشدون الأسبان الذين يرافقون السائحين إلى هذه التحفه الفنية الرائعة بفضل الحضارة العربية وتأثيرها على أسبانيا.. وقد خلد الموسيقار الأسبانى دى فايا De Falla جمال حدائق قصر الحمراء بغرناطة فى مقطوعة شهيرة هى «ليالى فى حدائق اسبانيا» : Noches en los jardines dc Espana

ومن مدريد بدأت رحلتنا الجامعية زيارتها للأندلس فاتجهنا جنوبا إلى مدينة طليطلة Toledo التاريخية وتبعد عن مدريد سبعين كيلو مترا فى اتجاه الأندلس ، وهى مدينة قديمة جدا على هضبة مرتفعة تشرف على أخاديد وسهول منخفضة وتعتبر المدينة شديدة التحصين وقد خلف العرب بها قصرا حصينا مازال الأسبان يسمونه El Alcazar أى القصر ويعتبر تحفة معمارية هندسية عربية ، والمدينة كلها تذكرك بما كانت عليه مدن أسبانيا والأندلس (بل وأوروبا قديما) من شوارع وأزقة ضيقة ، وفى أسبانيا أو بالذات فى جنوبها حيث تشتد الحرارة صيفا (٤٠ درجة مئوية فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية) درج العرب على تخطيط مدنهم على أساس من الطرق والأزقة الضيقة التى تقلل من فرص دخول

الشمس إليها ومن ثم تستمتع بالظل الوافر والأنسمة الطرية . أما المنازل المطلة على تلك الأزقة فجدرانها من «الحجارة البيضاء أو الصفراء مرتفعة شاهقة وشديدة السمك حتى تعزل الحرارة بالمثل . وأبوابها مرتفعة من الخشب السميك أو من المعادن الثقيلة وكانها / أبواب للحصون وإذا ما فتحت أمامك هذه الأبواب وجدت نفسك توا فى حديقة داخلية Un Patio تحيط بها الأسوار والجدران المرتفعة التى تعزلها عن الناظرين من الخارج ، وتتوسطها نافورة أو نافورات وبها تكعيبات العنب وأشجار الفاكهة والظل الظليل .

كانت هذه الهندسة المعمارية تعكس ولاشك أخلاق العرب وأمزجتهم وحرصهم على خصوصياتهم وقد ورثها الأسبان عن العرب (إلى أن بدأت رياح التغيير الأخيرة تنقل أسبانيا إلى السوق الأوروبية المشتركة) وكلما ارتفع قدر صاحب الدار اجتماعيا زادت مساحة حديقته الداخلية وزاد حجم أو عدد النافورات وكذلك ارتفاع الجدران حول الدار وزادت فخامة الأبواب الخشبية الثقيلة المحلاة بالمعادن .

ويجدر بى الوقوف هنا هنيهة لأذكر القارئ بأن جانبا كبيرا جدا من جمال وسحر المدن أو القرى التاريخية القديمة التى تعود إلى العصور الوسطى سواء فى أسبانيا أو غيرها من بلدان أوروبا إنما يعود إلى توفر عنصرين هامين هما النظافة التامة والصيانة

المتجددة التى تظهر وتؤكد جمال وسحر العنصر الثانى ألا وهو مدى اهتمام فنانى ومهندسى العصور الوسطى بالتفاصيل الصغيرة فى كل شيء كما تظهر الشخصية المتميزة المصاحبة للإبداع الهندسى والفنى الجمالى المتوافر فى كل ما شيدوه من منازل وشرفات وأبواب وجدران وحصون وقلاع وكل صغيرة أو كبيرة من الكاتدرائيات والكنائس والقصور التى شيدت منذ العصور الوسطى حتى عصر النهضة .

نعود إلى طليطلة فأذكر أنها تشتهر حتى اليوم بصناعة لون معين من المصاغ والتحف الصغيرة الذى يسمى El Arte de Tole-do أو El Arte Damasquino أى الفن «الدمشقى» : أى انه باعتراف الأسبان أنفسهم هو فن موروث عن العرب ، عن صناع دمشق واساسه طلاء القطعة من المصاغ أو التحفة الصغيرة بطلاء من اللون الأسود الحالك Esmalte ثم يحفر وتضاف فوقه خيوط الذهب أو الخيوط المذهبة (عيار ٢٤ قيراطاً) فى الأشكال والصور المرادة وبهذا الشكل تخرج طليطلة سنويا آلاف الاطنان من المصاغ (اساور - اقراط - أزار قمصان) فضلا عن التحف الصغيرة والصور وخلافه .

هذا وقد أقام الاسبان فى طليطلة إلى جانب القصر سالف الذكر Alcazar بعد أن انتهى حكم العرب للمدينة أقام الأسبان

كاتدرائية ضخمة تخليدا لانتصارهم وتحريرهم لطليطلة وقد لعبت الكاتدرائية والقصر فى طليطلة دورا بطوليا هاما فى الحرب الأهلية الأسبانية ٣٦ – ١٩٣٩ بسبب شدة تحصين الموقع الذى اختاره العرب . ومازال مئات الألوف من السائحين الأسبان أو الأجانب يؤمون طليطلة فى رحلات ليوم واحد من مدريد أو فى طريقهم البرى تجاه الأندلس . وفى كثير من مدن اسبانيا وبخاصة فى الجنوب نجد أن أهم معالم المدينة تنقسم إلى قسمين رئيسيين : قسم يخلد ويذكِّر بآثار وأمجاد العرب فى اسبانيا ، وقسم آخر يذكِّر ويخلد انتصار المسيحيين على العرب واستردادهم السـيطرة على بلادهم !!

وبهذه المناسبة فإن الأسبان ومن بعدهم بقية الأوروبيين – كانوا يطلقون كلمة Moros على العرب فى أسبانيا نسبة إلى موطن عرب أسبانيا الأصلى فى Morocco أى المغرب وربما كانت كلمة More-no الأسبانية التى تعنى «أسمر» مشتقة أيضا من Moros أى العرب السمر . كذلك فالشىء بالشىء يذكر .. بعد أن اشتد ساعد الدولة الأسبانية وبعد أن اقامت امبراطوريتها فى امريكا اللاتينية والفلبين (وقد حكم الأسبان الفلبين ثلاثمائة سنة إلى أن استولت عليها الولايات المتحدة سنة ١٨٩٨) اطلق الاسبان لقب Moros على مسلمى الفلبين أيضا .. وكأنَّ Moros فى نظر الأسبان كانت تعنى

المسلمين بافتراض أن كل العرب فى اسبانيا كانوا مسلمين وكانوا من السمر أيضا وإلى يومنا هذا يعرف سكان الفلبين المسلمون حتى بين بقية الفلبينيين باسم Moros . أما فى جمهورية بيرو فى أمريكا الجنوبية فيوجد "القديس الأسمر" El Santo Moreno فى محاولة لاجتذاب قلوب الشعب أو الشعوب الملونة (من هنود حمر وعـــرب) إلى هذا القديس الذى يظهر تمثاله ووجهه يميل إلى السواد ..

أما الآثار الإسلامية فى اسبانيا والتى تركها العرب فتنقسم إلى قسمين أو ثلاثة أقسام صغيرة . القسم الأول يطلقون عليه Sti-lo Arabe أو Stilo Andaluz ويمثل اصالة الفن العربى والخطوط العربية الأصيلة ، والقسم الثانى يطلقون عليه Stilo Mozarabe أى الشبيه بالعربى ويعنون بذلك أنه اختلط إلى حد ما بالفن الأسبانى ولم يعد اسلوبا عربيا أصيلا مثلما كان ، والقسم الثالث يمثل فترة انتقالية من الفن العربى إلى الفن المسيحى وبدء القرون الوسطى المؤدية إلى عصر النهضة Rennaissance وقد بدأ الفن المسيحى بسيطا متأثرا بالفن القوطى gothic الذى يتميز بالخشونة Ous-terity والبساطة والخطوط المستقيمة وغياب الزركشة . ثم غلب عليه تأثر المسيحيين (والاسبان) رويدا رويدا بالثروة الطارئة وبحبوحة العيش فزالت تلك البساطة وبدأ يحل محلها التعقيد والخطوط المستديرة أو المنبعجة ثم كثر استعمال الألوان الزاهية واستعمال

الزركشة من ذهب أو خطوط مذهبه استعمالا فجاً يعكس قلة الذوق مع شدة الثروة أحيانا وهو ما يسمى بالفن الباروكى Baroque وأسوأ منه الـ Rococco .

وفى كثير من كاتدرائيات اسبانيا يجد المرء كميات هائلة من الذهب والفضة أو قشرة الذهب وعديد الألوان . ويغلب طابع فنى الباروك أو الروكوكو على كثير من الكنائس والكاتدرائيات ولا يفوتنى أن أذكر أنه فى واحدة من الكنائس قرب مدينة قادش Cadiz جنوب غرب الأندلس يوجد تمثال جميل جداً للعذراء وهى تبكى .. أما دموعها فمن الماس الخالص ..

وأخيرا وصلنا قرطبة Cordoba وكانت فى بعض العصور عاصمة الدولة العربية الأندلسية وكانت منارة للعلوم والفنون باسبانيا بل وكل أوروبا وبها جامعة ومكتبة لعلهما كانتا أعظم مثيلاتهما فى أوروبا فى تلك العصور وبها بنى أيضا ارحب جامع فى العالم قاطبة يضم عددا من العمد الرخامية ذات الألوان المتعددة من رخام أبيض إلى أسود إلى الرخام ذى الحمرة الخفيفة أو الخضرة الخفيفة وهكذا يبلغ عددها فيما اذكر اكثر من ألف وخمسمائة عمود رخامى تحمل أسقف الجامع الذى يتسع لحوالى خمسة آلاف من المصلين ويدلل على فترة المجد والقوة والثراء وفتوة الإسلام فى أسبانيا من القرن الثامن حتى قرابة نهاية القرن الخامس عشر

حين زالت آخر دويلة إسلامية فى غرناطة سنة ١٤٩٢ ميلادية وبعدها حول الأسبان الجامع إلى كاتدرائية ثم عادوا أخيرا فاعادوه جامعا وأثرا تاريخيا مهما يحافظون عليه مثلما كان . ويؤمه مئات ألاف السياح الأسبان والأجانب ليستمعوا إلى شرح المرشدين السياحيين الأسبان الذين لا ينكرون شرح أمجاد العرب وتاريخهم الحافل فى أسبانيا . ومن قرطبة التى كانت منارة للعلوم والفنون والحضارة انتقل مثلها الطيب بعد ذلك إلى شمال اسبانيا (جامعتا سالامانكا وبورجوس وغيرهما) ومنها إلى جامعات فرنسا وانجلترا .

وحينما كنا نزور قرطبة أقام لنا مضيفونا الأسبان حفل تعارف مع بعض الجامعيين المستشرقين من الأسبان وأذكر منهم سيدة أو فتاة شقراء زرقاء العينين قدمت نفسها إلينا باسم باكيتا Paquita وسرعان ما اجتهد عدد من الطلبة المصريين "الأذكياء" فى محاولة لتأصيل هذا الإسم إلى أصله العربى وأصروا على أن أصله بالعربية كان "بخيته" ! وقد دهشت باكيتا وفرحت بهذا الاكتشاف التاريخى وقالت إن بعض أهلها يرجح أن أصلهم عربى من عرب الأندلس .. لكن الواقع أن Paquita هو تأنيث Paco وقد علمت فيما بعد فى زياراتى المتكررة اللاحقة لاسبانيا أن الأسبان يطلقون هذا الاسم Paco تدليلا لكل من يحمل اسم فرانسيسكو Francisco من الرجال .

وقرطبة لا تبعد كثيرا عن مدينة اشبيلية Sevilla عاصمة الأندلس حاليا . أما الأخيرة فوصفها الكثيرون بانها قلب الأندلس وتمثل روحه اجمل تمثيل . وتضم اشبيلية تحفة من اروع ما خلفه العرب من تحف فنية وهندسية وهى برج La Giralda "لاخيرالدا" وهذا البرج يمثل جمال التصور الخلاق والابداع الفنى التشكيلى ولست ادرى ايهما اكبر أهو اعتزاز الاسبان اليوم بهذه التحفة الفنية الرائعة التى ورثوها عن العرب أم اعتزازنا نحن ابناء العروبة بهذه الحضارة التى اورثت العالم مثل هذا العمل الفنى الجميل .. مدينة اشبيلية من اجمل مدن جنوب اسبانيا واخفها ظلا ويزيدها بهاء وتخليدا هذا الصرح العربى الرائع .. والبرج ارتفاعه مثل ارتفاع أى مئذنة طويلة .. وقد كان اصلا يؤدى عمله كمئذنة وقد بنى ما بين ١١٨٤ و١١٩٦ ميلادية لكنه يختلف عما عداه من مآذن من حيث انه اوسع قاعدة ولأنه مربع الشكل وليس مستديرا ناهيك عما يزينه من نقوش عربية غاية فى جمال التصور وابداع الفن التنفيذى . ويصفه المسيحيون بانه "جوهرة الفن العربى الأندلسى".. وهناك خلاف حول أصل كلمة «لا خيرالدا» : البعض يعتقد أنها إنما تشير إلى صدى كلمات المؤذن "لا إله غير الله" وقد حرفتها الاذن الاعجمية الاسبانية إلى لا خيرالدا : والبعض الآخر يراها مشتقة من "خير الله" أو "خير الدين" .. وقد يكون هذا اسم صاحب أو المسئول عن بناء المئذنة .

ثم وصلت بنا الحافلة إلى غرناطة Granada تحفة أخرى من تحف الإبداع الجمالى والفنى العربى وآخر معقل من حصون تلك الدولة العربية الأندلسية التى سقطت سنة ١٤٩٢م .

والفارق بين غرناطة واشبيلية أن الأخيرة تقع فى سهل منبسط قريبة من الساحل الجنوبى الغربى لاسبانيا فى حين تقع غرناطة على مشارف سلسلة الجبال وهضبة مرتفعة تعطى خلفية جبلية وجمالية رائعة لغرناطة وتتيح لسكانها فرصة الهروب إليها صيفا فرارا من حرارة الأندلس الشديدة كما تعلوها الثلوج فى فصل الشتاء .. واكثر من هذا أن الهضبة المنحدرة المتدرجة الارتفاع اتاحت للمعماريين العرب فرصة استغلالها اجمل استغلال فى تصور وتنفيذ مساقط مياه حدائق قصرى الحمراء La Alhambra وإلى جانبه قصر الخنراليفى Generalife الشهيرين وقد خلد جمالها الموسيقى الأسبانى دى فايل De Falla فى تحفته الفنية ليلة فى حدائق اسبانيا Noches en los Jardines de Espana . أما قصر الحمراء ، فقد كان قصرا للملوك الأغالبة . ويصعب أن يجد المرء الكلمات المناسبة لوصف مدى روعته ووقعه على نفس المشاهدين وخاصة من العرب .. ويحار المرء - إذا كان من ابناء العروبة مثلى ومثلك - ما بين شعورين متناقضين أمام هذا الصرح العظيم من الفن والروعة الهندسية .. شعور الفخر والاعتزاز أولا

بانتسابنا إلى هذه الحضارة وإلى هذه الأمة ذات الأمجاد والروائع الحضارية من ناحية ، ومن ناحية أخرى شعور الخيبة والأسى لما صار إليه حال أمتنا ولمدى خسارتنا .. ولا يملك العربى إلا أن يسأل نفسه ماذا لو كان العرب فى الأندلس قد فرضوا لغتهم ودينهم مثلما فعل الأسبان من بعدهم فى أسبانيا نفسها بل وفى أمريكا اللاتينية والفلبين ؟ اما كانت اسبانيا اليوم تتكلم كلها العربية بعد حكم العرب لها طوال ثمانمائة عام تماما مثلما يتكلم ثلاثمائة مليون نسمة اللغة الاسبانية فى أمريكا الجنوبية بعد حكم الأسبان لهم مجرد مائتى سنة ؟ لكنه تسامح الإسلام !!

نعود إلى قصر الحمراء .. سمى كذلك لأن لونه يميل فعلا إلى الحمرة غير القانية .. حمرة تشبه الخجل على خدّى العذراء الجميلة، ويزيد من جمال هذه الحمرة الوديعة قيامها وسط غابات وحدائق خضراء غنية بالخضرة ومن خلفها قمم الجبال الخضراء صيفا والمتوجة بالثلوج شتاء ، ومنها قمة ، مولاى حسين Mulassin المرتفـعة (التى كانت مقرا صيـفيا لأحد ملـوك الأغالبة مولاى حسين) .

أما حدائق قصر الحمراء فتقوم على مشارف تلك الهضبة غير المستوية بل المنحدرة انحدارا ملحوظا سمح للمعماريين العرب أن يستغلوا هذا الميل فى تخطيط سلسلة من المساقى والنافورات

والممرات المائية المنحدرة مع انحدار الحديقة التدريجى بحيث لا يفوتك أن تسمع (وان ترى) انحدار المياه وخرير الماء وسط الحدائق الغنية ذات الحسن والبهاء وجمال التنسيق .

أما القصر من الداخل فقد غلب عليه تأثر الأغالبة بما تجمع لديهم من رغد وبحبوحة وحضارة وفيرة لعلها كانت بداية النهاية . فالنقوش كثيرة بل أكثر من اللازم ومحلاة كلها بقشرة أو ماء الذهب وقد سجلت على خلفية من جدران كستها الأقمشة الحريرية الملساء.. وان لم تخنى الذاكرة فقد كان اللون الغالب على كثير من الجدران هو اللونين الأخضر بدرجاته المتفاوتة أو الأحمر القانى ، ويبدو لى أن قصر الحمراء يمثل تماما قمة ما بلغته حضارة العرب ورغد معيشتهم فى اسبانيا ، من رخاء واسترخاء ثم الطريق إلى الفناء .

ولعل الاغالبة احسوا بذلك فقد كانت أغلب نقوش قصر الحمراء لا تحمل إلا نذريرا وتذكارا واحدا يقول "لا غالب إلا الله .. لا غالب إلا الله" وذلك برغم كثرة عدد التماثيل التى تمثل الأسود ! (هناك فناء كامل مخصص للأسود) !!

وعلى بعد حوالى سبعين كيلو مترا من غرناطة فى اتجاه جنوبى شرقى صوب البحر الأبيض توجد قرية صغيرة اسمها Suspiro del Moro "جسر" تنهدات العربى" تذكارا لمرور "أبو عابدين" آخر

ملوك الأغالبة فى تلك البقعة شريدا مطرودا من مملكته .. فقد وقف يتنهد ويتأمل بحسرة ما كان يوما "عهد السرور والرياحين" للعرب فى اسبانيا [(١)] .

وفى غرناطة أيضا أخذنا مضيفونا الأسبان نهارا إلى زيارة كهوف الغجر Los Gitanos المنحوتة فى الجبال ، ويكثر عدد الغجر فى جنوب اسبانيا ويعيش كثير منهم على حافة المجتمع الأسبانى يجفلون عن الاندماج فيه أحيانا كثيرة ويتمنى المجتمع لو لم يكونوا هناك أو لو اختفوا بين غمضة عين وانتباهتها .

والغجر لهم مجتمعاتهم وعاداتهم ولغتهم الخاصة إلى جانب الاسبانية لكنهم حماة ، وحفظة الرقص الأسبانى التقليدى المعروف باسم Flamenco الذى يقال إن أصله عربى (ولا شك على أى حال أنه تأثر كثيرا برقص أهل شمال أفريقيا) ويتوارثه الغجر أبا عن

---

(١) عاش الوزير الشاعر الأندلسى ابن زيدون فى عهد الرخاء وذروة الحضارة والمجد العربى فى الأندلس «عهد السرور والرياحين» ويمثل شعره ومراسلاته مع محبوبته الأميرة ولادة بنت الملك المستكفى أحد ملوك الأندلس أقصى ما بلغه شعر العرب فى الأندلس من رقة وحضارة فمثال ذلك ما كتبه إلى ولّادة بنت المستكفى يقول :

اضحى التنائى بديلا عن تلاقينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
ليسم عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

جد والفتاة عن أمها أو خالتها وهكذا .. ويعلمون صغارهم هذا الرقص منذ أن يمكنهم الوقوف على أقدامهم . والواضح أن الغجر فى اسبانيا من أصل «شرقى» وهناك محاولات عديدة لتأصيلهم فالبعض يرى أنهم قدموا من شرق أوروبا أى منطقة البلقان وكثير منهم فعلاً يسمى نفسه Romanyi لكن البعض الآخر يقول انهم من مصر (الاسم الاغريقى لمصر هو Gypsos والغجر اسمهم Gyp-sies وربما اشتقت كلمة Egyptian من نفس الأصل .. أما البعض الآخر فيعتقد أنهم أصلاً من قبائل هندية «آرية» هاجرت عبر الشرق الأوسط واتخذت طريقين أحدهما يمر بشرق أوروبا والبلقان والآخر يمر بمصر وشمال افريقيا حتى استقر فى جنوب أوروبا الغربية (اسبانيا وجنوب فرنسا) .. وعلى أى حال فإن ظاهرة الغجر الذين يعيشون على هامش مجتمعات شرق أو غرب أوروبا تذكر المرء بالبدو الرحل الذين يعيشون على حافة بعض المجتمعات الأفريقية والأسيوية ويقاومون محاولات تلك المجتمعات لاستيعابهم فيها ..

لكن الواضح أن غجر جنوب اسبانيا يتميزون عن الأسبان عامة باشتداد سمرة بشرتهم وخشونة شعرهم أحيانا كثيرة وقصر قامتهم .. وبإجادتهم الشديدة للرقص والغناء حتى انه يخيل للمرء أنهم ولدوا راقصين ومغنين . ولأصواتهم - سواء الرجال منهم أو النساء - بحة خاصة تميز غناءهم الحزين الذى لا يكف عن النواح

على المجد الضائع أو الحب الضائع .. وقد أورث العرب هذا النوع من الغناء الحزين أيضا إلى البرتغاليين فى صورة ما يسمى اليوم الفادو Fado فى البرتغال . إلا أن الحقيقة تقتضى أن نذكر بان الفلامنكو فى اسبانيا يتضمن أيضا الكثير من الغناء الجماعى المرح مثل La jota والفكاهى أحيانا فى حلبات الـ Tablao Fla-menco .. المهم .. فى كهوف الغجر فى غرناطة جلسنا على أرائك خشبية فى صفين متقابلين وبين الصفين مسافة ثلاثة أو أربعة امتار كانت هى ساحة الرقص التى تبارى فيها الفتية والفتيات والأطفال ومن حولنا المغنون والمصفقون .. ومهنة المصفق فى حلبة الرقص الفلامنكو Tablao Flamenco منفصلة تماما لكن مكملة وملازمة للراقص والمغنى أو الراقصة أو المغنية ومهمة المصفق هى ضبط الإيقاع والسرعة بالتصفيق باليدين مصاحبة مع الموسيقى ومع حركة الراقصين . واشهر المصفقين فى اسبانيا اليوم يسمونه Ma-nitas de Plata أى ذا الكفين القصيتين ويتمتع بشهرة عالمية . والواقع ان الغناء الذى يصحب الرقص الفلامنكو يذكّر المرء بشكل قوى بالرقص والغناء العربى وبخاصة فى المغرب وشمال افريقيا ، مع التطوير والتحديث الذى هو نتيجة مرور الزمن واختلاف المكان والاختلاط وبقية المؤثرات الخارجية أو الذاتية .. ورغم كل ذلك أو نتيجة كل ذلك فما من عربى سمع أو شاهد هذين الحدثين أى

الرقص الفلامنكو والغناء المصاحب له إلا وتأثر به ومعه أبلغ تأثير بل الواقع - فى رأيى - أن كل الموسيقى الأسبانية التقليدية والشعبية الخالصة مثل الباسودبليس Pasodobles التى تصاحب حفل مصارعة الثيران أو .. الموسيقى الأسبانية التصويرية التقليدية مثل موسيقى De Falla أو جرانادوس أو ألبنيز Albeniz أو خواكين رودريجو ، تتميز كلها بانها تحمل حديثا خاصا أو قل حنينا خاصا Nostalgia تتأثر به وتتفاعل معه الأذن والنفس العربية أكثر من تأثرها وتفاعلها مع أى موسيقى أجنبية أخرى . ولم لا ؟ وقد تأثرت الأذن والنفس الاسبانية نفسها بالتعايش قرابة ثمانمائة سنة متصلة فى ظل وفى كنف الحضارة والأمة العربية فى اسبانيا وقت ان كانتا فى قمة المجد وذروة الحضارة بالنسبة لكل العالم ، ووقت ان كان الغرب نفسه يتشبه بالعرب ويتتلمذ على أيدى اساتذة وفلاسفة وأطباء العرب ؟!

حتى مصارعة الثيران التى تعتبر اللعبة أو الهواية الشعبية المفضلة تقليديا وحتى اليوم فى اسبانيا قد يكون فى الأغلب أصلها عربى بالمثل ! ويقال فى اسبانيا : إن أحد سادة العرب كان يتفقد إحدى مزارعه والتى كانت تحوى عددا كبيرا من الثيران التى يكثر وجودها فى اسبانيا ، حينما هاجمه ثور كبير هائج . ولم يكن السيد العربى يملك فى يده سلاحا أو عصا يدافع بها عن نفسه كما لم

يكن هناك ملجأ أو مهرب قريب فما كان منه إلا أن خلع عباءته التى كان يتشح بها وأخذ يحاور بها الثور الهائج ويداوره إلى أن تعب الأخير من فشل محاولته النيل من الرجل فمل وكلّ وقفل عائدا من حيث أتى .. وكان يشهد هذه المحاورة والمـداورة ما بين العربى وعباءته والثور الهائج عدد من الاتباع الاسبان والعرب فما لبثوا أن صاحوا وهللوا لبراعة محاولة السيد العربى ونجاحه فى شل حركة الثور هاتفين الله ! الله ! 'Ole' - Ole وإلى اليوم يحيى الأسبان فى حلبات المصارعة يحيون المصارع البارع مرددين نفس العبارة 'Ole كما أن من كلماتهم المحببة والتى يتكرر سماعها كثيرا فى اليوم الواحد 'Ojala أى ان شاء الله ! أما فى البرتغال فيقولون 'Osala وتنطق أوشالا أى إن شاء الله أيضا .

بعد أن انتهت زيارتنا للأندلس قفلنا عائدين صوب الشمال صوب برشلونة ومنها شمالا إلى بورت بو وسيربير ثم مرسيليا ومنها أخذنا الباخرة المصرية مرة أخرى إلى الاسكندرية .

ومن الأندلس إلى برشلونة تجتاز السيارة عددا من الشواطئ أو المناطق السهلة الساحلية ذات الرمال البيضاء الناعمة فمن الأندلس يتوالى ساحل الشمس Costa del Sol ثم الساحل الأبيض La Costa Blanca ثم ساحل الزهور La Costa del Azahar ثم الساحل الذهبى Costa Dorada أما شمال برشلونة حتى الحدود

الفرنسية فهو الساحل الجبلى الوعر La Costa Brava ولكل من هذه الشواطئ ميزته وصفاته المختلفة ، فمنها الجبلى الوعر ومنها الرملى الناصع البياض ومنها ذو المياه الخليجية الهادئة ومنها ما هو بحر هائج مفتوح ، لكنها كلها تمتاز بالجمال وبوجود الخلفية الخضراء والظل الوفير خلف الشاطئ مباشرة . ولهذا فإن شواطئ اسبانيا الدافئة من أهم اسباب نجاح السياحة فيها ، وفى اجتذاب خمسة وخمسين مليون سائح إلى اسبانيا عام ١٩٨٧ وبديهى أن قرب اسبانيا إلى غرب أوروبا قد اتاح لها فرصة اجتذاب السائحين اصحاب السيارات إليها وهم يشكلون أكبر نسبة من السائحين فى غرب أوروبا وذلك لرخص تكلفة الاصطياف بالسيارة عن نفقات الطائرات نسبيا ، وبخاصة فى ظل استمرار ارتفاع اسعار البترول وبالتالى أسعار الطائرات .

وقد تركتُ أسبانيا وذكرى موسيقاها ورقصها وغنائها ومتاحفها وآثارها ومدنها وقراها وسواحلها لا تبرح مخيلتى .. أما قصر الحمراء ، وقصر الخنراليفى وبرج لاخيرالدا فلابد من العودة لزيارتها وملء العين منها مرة بل مرات !

وقد سنحت لى فرص كثيرة بعد ذلك لزيارة اسبانيا مرات ومرات عديدة وجبت اركانها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .. فمازالت شدة انجذابى لاسبانيا باقية رغم تعرفى بعد ذلك على كثير من أجمل

بلاد العالم وأغناها ثروة وتاريخا . ولعلى أردت إلى جانب ذلك العودة إلى رؤية مواطن الجمال فى اسبانيا بصحبة زوجتى وقد تسنى لنا بعد ذلك زيارتها من مداخل كثيرة .. مرات بالطائرة توا إلى مدريد أو برشلونة ومرات بالسيارة من منطقة سيربير وبورث بو ومرة بالسيارة من طنجة (من المغرب) إلى جبل طارق وإلى ساحل الشمس المعروف قرب ماربيلا وتوريمولينوس وملقا حيث تتركز سياحة العرب فى اسبانيا حاليا .. وهكذا .. وقد جبنا اسبانيا بالسيارة فزرنا بلاد الباسك والساحل الأخضر La Costa Verde حول منطقة سان سباستيان وهى المنطقة الساحلية الشمالية المطلة على خليج بسكاى شديدة الشبه بانجلترا واسكتلندا طبيعة ومناخا ، وكانت سان سباستيان العاصمة الصيفية تنتقل إليها الحكومة صيفا إلا أن اشتداد حركة ايتا ETA العنيفة المطالبة باستقلال الباسك عن اسبانيا جعلت من جزيرة مايوركا وعاصمتها بالما المقر الصيفى بدلا من سان سباستيان .. ومايوركا من أجمل جزر البحر الأبيض وأصبحت مركز جذب شديد للسياح الأجانب بما فيها من المصايف والسواحل المختلفة التى تتيح إرضاء جميع الأذواق وجميع المستويات الاجتماعية . كذلك زرنا الأندلس وبخاصة غرناطة واشبيلية وقادش وجبل طارق ، كما زرنا الساحل الذهبى وساحل الزهور ومنطقة أليكانتى والمرسية وفالنسيا وبرشلونة فضلا عن

زيارتنا لجزيرة إبيبثا Ibiza القريبة من مايوركا (وابيبثا كانت اصلا بالعربية اليابسة) .. بل وزرنا جزر الكنارى Islas Canarias فى المحيط الأطلسى أمام شاطئ موريتانيا وهى - أى الكنارى - جزر اسبانية بالمثل .. ومناخها ربيع دائم طول العام أى انها مشتى ومصيف على حد سواء ..

وحصيلة زياراتنا العديدة إلى اسبانيا واقامتنا بها فترات طويلة ان اسبانيا أكثر من «شعب واحد» . فأهلها يتكلمون فعلا أكثر من لغة (ولا أقصد أكثر من لكنة لكن لغة) فهناك من اللغات الكاستيليانو (وتسود فى منطقة مدريد والأندلس) والجاييجو Gallego بمنطقة جالسيا والباسك فى المنطقة الشمالية ، والكاتالان حول برشلونة فى منطقة كاتالونيا ، والفاليتسيانو فى فالنسيا ، والمايوركين فى مايوركا .. وهى تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافا يجعل أهل الكاستيليانو (منطقة مدريد) فى موضع عدم الفهم للمايوركين أو الكاتالاك . ناهيك بالباسك الذى ليس من أصل لاتينى بالمرة . أما الأجنبى الذى يتعلم اللغة الاسبانية الرسمية (الكاستيليانو) فيصعب عليه فهم اللغات الأخرى سالفة الذكر خاصة إذا اقتصر على سماعها دون قراء تها ..

ومناطقها تختلف اختلافا بينا الواحدة عن الأخرى (الباسك بارد جدا شتاء وبارد ممطر صيفا ، أما الجو فى الأندلس فهو

شديد الحرارة صيفا ومعتدل مشمس شتاء ، أما منطقة مدريد فشديدة الحرارة صيفا وشديدة البرودة شتاء ، أما برشلونة وجزر مايوركا وما حولها فمعتدلة (جو بحر أبيض صيفا شتاء) ، وأما مدريد العاصمة ، عاصمة كاستيل وأسبانيا كلها فتتميز بالفخامة والعراقة والرصانة ، ميادينها كبيرة فخمة تزينها التماثيل الفنية وشوارعها فسيحة ضخمة ، وبها احياء قديمة تاريخية ومبان وآثار تاريخية ، كما بها احياء حديثة سكنية رائعة الجمال ، ولعلها اقرب مدن أوروبا أو من اقرب مدن أوروبا شبها بباريس ، أما برشلونة عاصمة كاتالونيا La Ciudad Condal فهى عاصمة اسبانيا الثانية ، عاصمة الصناعة والمال وهى مدينة تاريخية هى الأخرى لكن لها طعما مختلفا ، طعما «بحريا» وهناك منافسة تاريخية بين مدريد وبرشلونة زادتها مواقف المدينتين المتناقضة اثناء الحرب الاهلية وهى من اسباب تمسك برشلونة ومنطقة كاتالونيا حاليا بتعليم اللغة الكاتالان لأولاد المدارس إلى جانب لغة كاستيل .. كما انها كانت من أسباب تمسك كاتالونيا بنيل استقلالها الادارى عن مدريد العاصمة فى كل امورها عدا السياسة الخارجية والشئون الاقتصادية الخارجية وامور الدفاع .. ومن ثم ادى ذلك إلى مفاوضات طويلة اثمرت نيل كاتالونيا تحقيق آمالها وظفرها بإنشاء برلمانها وحكومتها الداخلية الخاصة والتى تتولى تصريف كل

امورها مستقلة عن مدريد فيما عدا ما سلف ذكره .. ولكن سرعان ما أدى ذلك إلى منح مدريد منطقة الأندلس ثم منطقة جاليسيا ثم منطقة الباسك نفس المعاملة درءا لخطر مطالبتها بما هو أكبر وأعظم مثلما يصر مناضلو حركة الباسك المتطرفون ETA على المطالبة بالاستقلال التام عن اسبانيا حتى بعد نوال منطقة الباسك نفس المعاملة مثل كاتالونيا والأندلس وجاليسيا إلخ .. ومن آثار ما حدث أن أصبحت هناك سبع عشرة منطقة مستقلة استقلالا داخليا ذاتيا فى اسبانيا حاليا وأصبحت كل منطقة من المناطق سالفة الذكر تشجع تأكيد شخصيتها وثقافتها وهويتها الذاتية ومنها تعليم لغاتها فى المدارس إلى جانب الكاستيليانو ، اللغة الأسبانية الرسمية .. وهذا من أسباب حيرة ودهشة الأجنبى الذى درس الأسبانية وامضى سنين عدة فى تعلمها قبل ذهابه لاسبانيا لممارسة أو تجربة ما درسه على الطبيعة فلن يفهم شيئا من اللغات الكاتالات أو المايوركين أو الجاليجو أو الباسك وان كان كل الأسبان تقريبا يتعين عليهم أن يدرسوا الكاستيليانو إلى جانب لغاتهم المحلية !!

لكن اسبانيا بالنسبة إلى الأجنبى هى الكاستيليانو.. هى مدريد والاندلس.. وبخاصة الاندلس.. ذلك القلب النابض بالحرارة والدفء والعاطفة الاسبانية التقليدية المشبوبة وموطن الرقص والغناء الاسبانى الأصيل وذلك الجزء من أسبانيا الذى يعود بالمرء (أو على

الأقل يعود بالعربى منا) إلى ذكرى حضارة وأمجاد حضارة عاشت وازدهرت باسبانيا طوال ثمانمائه عام وكانت فيها أسبانيا العربية منارة أوروبا الغربية ومشعل حضارتها ..

ومع ذلك فما من مرة زرنا فيها أسبانيا الا ووجدنا فيها من التغيرات التى طرأت التى غيرت الكثير من وجه اسبانيا التقليدى. فقد كانت فترة حكم الجنرال فرانكو رغم ديكتاتوريته فترة راحة واستقرار لازمة لإعادة بناء مادمرته الحرب الأهلية الضارية وذلك من أجل اللحاق بركب تقدم اوروبا الغربية.. لكن يأخذ عليه الكثيرون من خصومه انه ألغى النظام الجمهورى الاشتراكى الذى حكم اسبانيا منذ عزل الملك الفونسو الثالث عشر فى أوائل الثلاثينات وفرض النظام الملكى الفاشى من جديد.. ومع هذا فإن العدالة تقضى بالاعتراف انه بنهاية حكم فرانكو ويتولى الملك خوان كارلوس سلطاته الحقيقية خلعت اسبانيا عن نفسها ثوبها الفاشى وبدأت تتقمص شخصية دولة اوروبية غربية ديمقراطية حديثة تشبها بفرنسا وانجلترا والمانيا الغربية وايطاليا.. وقد قاد الملك خوان كارلوس قافلة هذا التقدم التدريجى نحو الديمقراطية الكاملة بحكمة ورزانة وثبات ولكن بصبر وعزيمة أكيدة حتى وصل الأمر فى أسبانيا حاليا إلى عودة اليسار الاشتراكى الديموقراطى إلى تولى الحكم وتشكيل الوزارة فى ظل الملكية الدستورية بعد أن كان اليسار

الاشتراكى (فضلا عن اليسار الشيوعى) أعدى أعداء فرانكو فى الحرب الأهلية .. أما اليسار الشيوعى فى أسبانيا فقد أصبح فى ظل روح الديموقراطية الحقيقية السائدة غير ذى موضوع إلى حد كبير.. وأصبح الحوار السياسى أو الصراع السياسى فى أسبانيا يدور ما بين اليسار الاشتراكى الديموقراطى واليمين المعتدل والوسط . أما مايؤسف له حقا فهو استمرار العنف والارهاب وبخاصة فى منطقة الباسك على يد تلك الحركة شديدة التطرف ETA المطالبة بالانفصال عن أسبانيا .

أما من حيث نواحى الحياة الثقافية والاجتماعية فقد أدى غزو السائحين الأجانب لأسبانيا (٥٥ مليون سائح ١٩٨٧) سنة تلو الأخرى إلى مزيد من الرخاء والازدهار لكن على حساب إحداث تغيير فى عادات واخلاق أهل المدن والريف الأسبانى إلى حد كبير.. ففى السنوات من ١٩٥٠ - ١٩٦٠ أى أثناء زياراتى الأولى لأسبانيا كان المجتمع الأسبانى مجتمعا محافظا متدينا بل شديد التدين والمحافظة بمقارنته ببقية مجتمعات أوروبا الغربية.. كان الاحتشام والتدين من صفات السيدات والفتيات فى زيهن وطريقة حياتهن. ولم يكن مسموحا للفتيات من العائلات الطيبة بالخروج وحدهن مع اصدقائهن من الرجال أو حتى مع الخطيب El Novio الا بحضور طرف ثالث كمرافق ورقيب Chaperon ، أما الآن فقد

زالت جميع الفوارق مابين الفتاة الاسبانية وزميلتها الفرنسية أو الايطالية أو الالمانية وفى عهد فرانكو كانت الرقابة تمنع نشر وتداول المجلات أو الأفلام «الخليعة» فقد كان فرانكو – وبصفة خاصة مدام فرانكو – من المؤمنين بالتدين والاحتشام والمحافظة. وبزوال عهد فرانكو سقطت ايضا الرقابة وماكانت تمثله الرقابة من حاجز أو ساتر. هل هذا نتيجة كثرة تدفق (السائحين) الاسكندناويين والالمان أم نتيجة رد فعل طبيعى للكبت أو الانغلاق أولكليهما ؟

أما من حيث النواحى الاجتماعية والثقافية والفنية فالأغانى والموسيقى الاسبانية الشعبية أو التقليدية الأصيلة التى كانت تميز الفن الاسبانى باتت لاتسمع – أو تكاد لا تسمع – الا فى حفلات مصارعة الثيران أو المناسبات الخاصة أو الأماكن المتخصصة مثل كازينوهات الرقص الفلامنكو Tablao Flamenco مثل Las (Torres Bermejas- أو Chinitas فى مدريد) فى حين باتت الأغانى الامريكية أو الشبيهة بالامريكية مثل الروك آند رول أو موسيقى الشباب La Musica le la juventud هى كل مايسمع من الراديو والتليفزيون وإذا كان اختيار الموسيقى أو الأغانى الخاصة بشعب ماهو حق ذلك الشعب وحده وليس حقا للأجانب إلا انى اعترف أن الجيل الحاضر فى أسبانيا قد ظلم بلاده إذ ان التشبه

بالأمريكيين أو البريطانيين فى موسيقاهم أو رقصهم الحديث لم يضف شيئا لأصحاب الحضارة والفن الاسبانى الأكثر عراقة والأكبر تأثيرا أو دواما.. ناهيك بالبلوجينز وبالتشبه بالشباب الأمريكى فى كل شىء..

لكنى أسامح الجيل الجديد فى أسبانيا بل أعجب به واتفق معه فى محاكاته للامريكيين والفرنسيين والبريطانيين فى قفزتهم الهائلة نحو التقدم الاقتصادى والعلمى والفنى. فقد قفز الاسبان فى هذا الميدان حقا قفزات رائعة وواضحة وأصبحت الطرق وأساليب الانشاءات والمدن الحديثة ونواحى العلوم والفنون الحديثة تضارع مثيلاتها فى بقية دول أوروبا الغربية. كذلك ارتفع دخل الفرد الاسبانى كثيرا وأضاف دخول اسبانيا السوق الأوروبية المشتركة إلى حياة الاسبان اليومية الكثير من أسباب النعمة والراحة والرخاء والمتعة.. لكن مستوى الأسعار فى اسبانيا فى ازدياد مستمر هو الآخر بحيث أصبحت أو تكاد تكون فى نفس مستوى أسعار فرنسا وإيطاليا ولم تعد اسبانيا مقصد السائحين الهاربين من غلاء أسعار فرنسا وبريطانيا وإنما مقصد الباحثين عن الشمس والبلاجات الرائعة.. وعما بقى فى أسبانيا من طعم ومذاق اسبانى خاص .

وشعورى أن الجيل الجديد فى اسبانيا فى سعيه وراء التخلص من المقولة القديمة من أن أوروبا تبدأ أو تنتهى عند جبال البرانس

(كذا..) أى عند حدود فرنسا الجنوبية، يتطلع بلهفة إلى تأكيد تشبهه بالفرنسيين أو الايطاليين والألمان فى كل شىء.. وربما كان الثمن الذى كان يجب أن يدفعه هذا الجيل من الأسبان هو التضحية بشىء من شخصيته الاسبانية التقليدية القديمة : من ثقافته وموسيقاه واغانيه ورقصه بل وطريقة حياته، وذلك كله فى مقابل ارتفاع مستوى معيشة غالبية الاسبان بما يكاد يلحق بمستوى معيشة فرنسا وايطاليا..

أما أنا ، فحالى مثل حال كل عاشق أو محب يرى فى معشوقته نفس الوجه الذى احبه فى صباه وفى صباها.. ومازلت اعشق اسبانيا التى عرفتها وزرتها لأول مرة فى السنين الخوالى.. وهذا حقى أيضا .. أليس كذلك ؟!

وعدنا إلى مصر أنا وزملائى الجامعيين فى أواخر اغسطس ١٩٤٧ . ولم أشأ أن أظل دون عمل انتظارا لانعقاد امتحان مسابقة وزارة الخارجية. فتقدمت لامتحان عقده مديرو شركة مصر للطيران (وكان بين ممتحنى الأساتذة جمال قطبى ورأفت وأديب..) وقيل لى إنى اجتزت الامتحان وسألنى الممتحنون عن نواياى وآمالى المستقبلية وكنت صريحا ربما أكثر من اللازم (وهذا عهدى وطبيعتى التى لم تتغلب عليها الدبلوماسية للآن !) فاخبرتهم بأنى أنوى التقدم لامتحان مسابقة وزارة الخارجية بعد شهور وإذا اجتزته

فسأقبل وظيفة ملحق فى السلك الدبلوماسى، وقد فوجئوا بقولى هذا ولم يكن أمامهم إلا أن يخيرونى مابين التعهد بالاستمرار معهم فى شركة مصر للطيران أو الاعتذار توا عن قبول عرضهم الى.. ومن ثم فقد شكرتهم واعتذرت إليهم عما سببته لهم من تعب وازعاج.. وهكذا لم يتم التحاقى بشركة مصر للطيران.. ولست ألومهم على موقفهم البتة فقد كان موقفهم طبيعيا وكريما ..

لكنى قبلت وظيفة مؤقتة ومناسبة حصلت عليها فى إحدى كبريات شركات عبود باشا واخذت استعد لاجتياز المسابقة بوزارة الخارجية وكلمات الأخ الصديق المرحوم الاستاذ عبد المنعم الطحاوى ترن فى اذنى، ومع تركيزى بصفة خاصة على اتقان المواد الجديدة بالنسبة الى والتى لم أكن قد درستها فى كلية الأداب مثل القانون الدولى والاقتصاد السياسى الدولى. فقرأت فيهما كتبا عديدة واستسغتها كثيرا.. اما التاريخ السياسى والجغرافيا واللغتان الانجليزية والفرنسية أى بقية مواد امتحان المسابقة فقد كانت دراساتى الجامعية تؤهلنى لها أجمل تأهيل.. كذلك داومت على الاطلاع خلال تلك المدة على الصحف والمجلات الاجنبية.. وتقدمت لامتحان المسابقة الذى عقد فى اكتوبر أو نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، ثم دعيت لاجتياز الاختبار الشفوى بوزارة الخارجية، ثم ظهرت نتيجة امتحان المسابقة فإذا بى أول الدفعة التى قبلت وكان

عددها ثمانية عشر ملحقا دبلوماسيا من مجموع المتقدمين البالغ أربعمائة تقريبا..

وهكذا بدأ الحلم يتحقق! ولن أنكر فضل والدى رحمة الله عليه فقد ورثت عنه حب السفر والتجوال والاستمتاع بسماع الموسيقى العالمية الكلاسيكية وكذلك نشأت فى منزل اعتاد سماع اللغة الانجليزية التى كان والدى يجيدها ايضا ورغم هذا فإنى الوحيد بين اخوتى الرجال الثلاثة الذى اختار تخصيص كل حياته للسفر والتنقل المستمر والمعيشة فى الخارج ..

أى حياة السلك الدبلوماسى ..

ولست أشك فى أن رحلتى إلى أوروبا صيف ١٩٣٥ ثم رحلتى إلى أسبانيا صيف ١٩٤٧ كان لهما اثرهما القوى فى اعدادى نفسيا وذهنيا لهذه الحياة، بكل مافيها من لذة ومشقة وفى حسم اختيارى وحفز همتى لتحقيق بقية الحلم ورؤية بقية العالم !

الفصل الثانى

مصرى على ضفاف البوسفور

تسلمت عملى، كملحق دبلوماسى فى وزارة الخارجية، فى أول مايو ١٩٤٨ وألحقت بالادارة السياسية، قسم أوروبا الغربية (وقد تحول هذا القسم بعد ذلك إلى إدارة أوروبا الغربية). وقرب أواخر عام ١٩٤٨ ظهرت حركة دبلوماسية للتنقلات وعينت ملحقا فى «المفوضية الملكية المصرية فى انقرة» عاصمة تركيا . ورغم انى كنت أول دفعتى ورشحت فعلا للعمل فى سفارة مصر فى لندن الاّ أن زميلا آخر أوتى من «الحظ» ما جعله ينال منصب لندن بدلا منى. ومع ذلك فقد كنت سعيدا بالتعيين فى أنقرة ومتطلعا إلى استكشاف بلاد السلاطين العثمانيين، وبلاد الاجداد (وإن لم يكن أجدادى أنا بالضرورة ولكن أجداد كثيرين من المصريين) .

وبدأت استعداداتى للالتحاق بعملى الجديد فى أنقرة فقمت بتفصيل عدد لا بأس به من الحلل (البدل) الثقيلة إذ إن شتاء أنقرة

قارس البرودة وتهطل الثلوج فيها بغزارة وتنزل الحرارة إلى مادون الصفر بكثير ، وأصرت والدتى على شرائى لعدد من الملابس الداخلية (الفانلات) الصوفية والجوارب الصوفية وكذلك «كوفية» صوف وطبعًا وقبل كل شىء معطف صوف ثقيل ، هذا إلى جانب ما قمت بتفصيله أيضا - كالتقاليد المتبعة فى وزارة الخارجية فى ذلك الحين - من بدلة بونجور «ردنجوت» (جاكتة صوف سوداء بذيل تلبس على بنطلون أسود به أقلام رماديه وصديرى أسود وكرافته رمادى) وتلبس فى احتفالات الصباح الرسمية وتسمى بالبونجور وبدلة فراك (وهى بدلة صوف سوداء أيضا ذات جاكتة بذيل يصل إلى منتصف الساقين ويلبس عليها صديرى أبيض وقميص أبيض ذو صدر منشى لامع وكرافتة بابيون بيضاء أى كرافتة بومباغ بيضاء ويطلق عليها الغربيون اليوم White Tie أو Tails وبالفرنسية Tenue de Soirée ويلبس فى الاحتفالات المسائية الرسمية أو فى تقديم أوراق اعتماد السفراء . كذلك قمت بتفصيل بدلة سموكنج (جاكتة سوداء قصيرة وبنطلون أسود من نفس القماش ، لكن قلابات الجاكتة من قماش لامع ويلبس عليها كرافتة بابيون (بومباغ) أسود ويطلق عليها Black tie أو سموكنج ، وتلبس فى حفلات العشاء الأقل رسمية .. وهذه عدة أو متاع رجال السلك الدبلوماسى الذى لابد منه فى حياتهم الرسمية والعادية وبخاصة فى عواصم العالم الغربى ، أما دبلوماسيو الدول الأفريقية أو الأسيوية

التى لها لباس رسمى وطنى فان هذا الزى الوطنى يغنى فى كل المناسبات عن تلك الملابس الرسمية . ومنذ ثورة يوليو ١٩٥٢ لم تعد تقاليد وزارة الخارجية المصرية تأبه كثيرا أو تتمسك بالأزياء الرسمية الغربية سالفة الذكر .

وبعد انتهائى من هذه الاستعدادات الكبرى لمجابهة ثلوج أنقرة وحياة السلك الدبلوماسى فى العواصم الغربية إذا بى أفاجأ بالوزارة تطلب منى أن أتوجه لمقابلة (المرحوم) محمد على علويه باشا . وكان قد عين لتوه كأول سفير لمصر فى باكستان التى كانت بالكاد قد اعلنت استقلالها ، ورغم انى توجست خيفة فقد بادرت بالطبع إلى مقابلته فقد كان رحمه الله شخصية يتشرف مثلى بمقابلتها . وقد رحب بى وأخبرنى انه عين سفيرا لمصر فى باكستان ولما كانت ثقافته فرنسية فقد طلب من الوزارة أن ترشح له ملحقا شابا يجيد الانجليزية (لغة باكستان السائدة الرسمية فى المعاملات مع الخارج) يكون بمثابة سكرتيره ومساعده الخاص وتكون مهمته الترجمة من وإلى الانجليزية مع محدثى علويه باشا وان الوزارة قد قامت بترشيح اسمى له .

ورغم شعورى بالفخر والزهو لهذه الثقة ورغم انجذابى الشديد لشخصية علويه باشا وتواضعه ووداعته إلا أننى وجدت نفسى أعتذر عن قبول تغيير وجهتى من تركيا إلى باكستان بعد أن قطعت

كل مراحل الاعدادات وانفقت ما انفقت من وقت وجهد ومال على الملابس الشتوية الثقيلة والرسمية التى لن استعملها فى باكستان ، وكان هذا أهم الأسباب الحقيقية لاعتذارى . بيد أنه كانت هناك أسباب أخرى نفسية منها عراقة تركيا ومكانتها الدولية القديمة ومكانتها بالنسبة لتاريخ مصر وقرب تركيا الجغرافى والحضارى إلى مصر وإلى الغرب ، وأخيرا وليس آخرا فقد كنت أعلم بترشيحى السابق لسفارة مصر في لندن وما حدث من تغيير الترشيح إلى أنقرة ، ودار فى بالى أنه يكفى زحزحتى من لندن إلى أنقره رغم أنى كنت أول دفعتى ، لكن من لندن إلى كراتشى فقد كانت المسافة أكثر مما استطعت قبوله خاصة أن الثانى فى دفعتى عين فى سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة والثالث أو الرابع فى واشنطن ولست أدرى من فى باريس وهكذا . وقد قبل علويه باشا رحمه الله اعتذارى بروح طيبه وتفهم ومن ثم فلم يبق أمامى سوى تنفيذ نقلى إلى أنقرة .

كانت انظمة وزارة الخارجية فى ذلك العهد تسمح لنا بتنفيذ النقل تاركة لنا اختيار وسيلة السفر سواء بالباخرة أو بالطائرة بشرط ألا يتعدى التنفيذ حدود المدة التى تستلزمها الوسيلة التى يقع عليها الاختيار أى دون تلكؤ فى الطريق .. وقد أخذت طبعا السفر بحرا من الاسكندرية إلى استانبول على الباخرة المصرية محمد على الكبير التابعة لشركة البوستة الخديوية .. وكان الوقت

نوفمبر ١٩٤٨ فلم يكن موسم الأنواء الشتوية قد بدأ بعد وكانت الرحلة البحرية تغرى بان تكون ممتعة كما كانت معى أمتعة كثيرة أى أكثر مما ترحب بنقله شركات الطيران .

كانت هذه أول مرة أبتعد فيها عن مصر وحيدا دون رفيق .. فقد كنت أعزب لم أتزوج بعد . وكان يتنازعنى شعوران : الألم لفراق الأهل والخلاّن ولمدة طويلة لم أكن أدرى مداها ، وكذلك رهبة الغربة والوحدة من ناحية ، ومن ناحية أخرى شعور التطلع إلى الجديد المبهر وحياة الاستقلال عن والدىّ ، من جانب آخر . ويقينى أن الابتعاد عن الوطن – وبخاصة بالباخرة – يولد من العاطفة وألم الفراق والحنين ، أكثر من أى شىء آخر ، وأكثر من تجربة السفر والابتعاد عن الوطن بالطائرة ، فإن رؤية الشاطئ المصرى ومدينة الاسكندرية يبتعدان ثم يتضاءلان رويدا رويدا إلى أن يختفيا تماما من الأفق لتمس النفس ولتولّد من الحنين الفورى أكثر من تجربة السفر بالطائرة والتى تقطع الصلة الحسية بمصر فى لحظة حاسمة واحدة .. كمبضع الجراح .

لكن .. سرعان ما تبتلع بهجة الحياة الاجتماعية على ظهر الباخرة كل هذه المشاعر فى مهدها وسرعان ما يستغرق المسافر فى الاستمتاع بنسيم البحر وجوه المنشط ورياضة المشى المستمر حول سطح الباخرة ، ثم التعرف على بقية المسافرين وضباط

الباخرة وطبيبها ، والمسئول عن الحياة الرياضية والاجتماعية على ظهرها .. ناهيك عن الاستمتاع بالوجبات الشهية التى كانت تشتهر بها مطاعم السفن عادة ، إذ كانت تتبارى شركات البواخر فى إرضاء واجتذاب المسافرين بتلبية جميع ما تشتهى نفوسهم من طعام وشراب فاخر .. والمعروف أن هواء البحر المنعش يشحذ شهية المسافرين .

كانت تجربة السفر بالبواخر اجمل التجارب التى يمكن أن يمر بها الإنسان . وكان السفر بحرا فى متناول يد متوسطى الحال ناهيك عن الاغنياء وكبار القوم .. لكنها اصبحت ، مثلها مثل الكثير من عالم اليوم ، احدى التجارب التى عفى عليها الزمن إذ تضافرت تكاليف الحياة وارتفاع نفقات زيوت الوقود وصيانة البواخر ومرتبات رجال السفن ، ونفقات استمرار هذه الحياة الرغدة على ظهر البواخر ، واصبحت فوق ما تستطيع أن تتحمله اغلب الشركات الملاحية وميزانيات المسافرين انفسهم . ومن هنا انخفض عدد السفن (سفن الركاب) التى يمكن أن يستقلها المسافر عبر موانىء البحر الأبيض مثلا إلى أقل من الثلث ، واقتصر العدد الباقى منها حاليا على بعض ناقلات السيارات (العبّارات Ferries) . لكن مازالت هناك بعض الشركات الملاحية «السياحية» المتخصصة فى تنظيم رحلات سياحية ترفيهية : Cruises أو Organized Tours حول بعض

موانىء البحر الأبيض أو البحر الأسود أو البحر الكاريبى وهكذا .. لكن بأثمان باهظة لا يتحملها إلا قلة ضئيلة من اصحاب الملايين والموسرين .

وقد رست الباخرة فى ميناء بيروت ووقفنا بها ليلة كاملة من أجل تفريغ وتحميل بعض البضائع .. وكان زميلى الاستاذ عزيز حمزة (السفير السابق حاليا) ملحقا بسفارتنا فى بيروت وقد استقبلنى اجمل استقبال وكان غير متزوج مثلى - واصر على استضافتى فى منزله بدلا من مبيتى على ظهر الباخرة . وقد وافق المسئولون بالباخرة فأمضيت مع صديقى ليلة بهيجة وأرانى معالم المدينة وما حولها وقد اعجبت بها ايما اعجاب ولم اكن قد رأيتها من قبل . وفى الصباح أعد لى صديقى إفطارا شهيا (فول مدمس بالطريقة البيروتية) . وأمضينا وقتا سعيدا سويا استعدنا فيه ذكرياتنا المشتركة اثناء العمل فى ديوان الوزارة إلى أن استأنفت الباخرة رحلتها الى استانبول ولم أكن أعلم حينئذ انى سوف أعود عاجلا إلى بيروت فى السنة التالية فى زيارة لوالدى اللذين اصطافا فى «سوق الغرب» بجبل لبنان فقد اضطررت إلى زيارة أبى فى سرير مرضه فى سوق الغرب للاطمئنان على صحته فقد أصيب بذبحه صدرية أثناء اصطيافه بلبنان. فاطمأننت عليه ثم عدت الى استانبول واذا بى أفاجأ بعد عودتى لا ستانبول باسبوع واحد

بوفاة والدى فى لبنان نتيجة لجلطة قلبية ولم أكن الى جانبه وإلى جانب والدتى حينما وافته المنية. وهذه من مخاطر العمل بالسلك الدبلوماسى ولن تجد دبلوماسيا واحدا الا شكا لك من تكرار هذه الظاهرة المؤسفة وهى أمر لابد منه لمن اختار حياة التفرغ للمعيشة فى الخارج .

نعود إلى الباخرة محمد على الكبير وقد اجتازت مضيق الدردنيل المؤدى من بحر ايجه (ذلك الجزء من البحر الأبيض) الى بحر مرمرة المقفل - والدردنيل هو ممر ضيق بين شاطئين جبليين وقد استعدت ذكريات قراءاتى عن محاولات الحلفاء الفاشلة فى الحرب العالمية الأولى انزال قواتهم فى جاليبولى على شواطىء الدردنيل حيث لقوا مقاومة عنيفة وناجحة من الاتراك الذين اهلكوا حوالى خمسة عشر ألفا من جنود الحلفاء (اغلبهم من الاستراليين وجنود المستعمرات والدومنيون البريطانية) واجبروهم على الانسحاب. لكنى لم أعجب لذلك فالشاطىء جبلى حصين وقد عرف عن الاتراك شدة المراس والاستمائة فى القتال خاصة انهم كانوا يذودون عن بلادهم ضد محاولات الحلفاء اقتطاع جزء من تركيا وإعطائه لليونان المستقلة حديثا عن الدولة العثمانية ..

ثم وقفت على ظهر مقدمة الباخرة ذات صباح أرقب عبورنا نهاية بحر مرمرة استعدادا للوصول الى مشارف البوسفور مرورا

بالجزر adalar الخضراء الثلاث الجميلة الواقعة قرب نهاية بحر مرمرة واكبر هذه الجزر وابعدها عن استانبول بيوك أدا (الجزيرة الكبيرة) وتليها هابيلى أدا (الجزيرة الشبيهة بالمنخل أو المنخال).. ثم تليها اصغرها واقربها الى استانبول، وكانت قد جرت عادة كبار الاتراك العثمانيين على قضاء بعض الصيف فى الجزر هربا من حرارة استانبول وابتغاء للهدوء والراحة وبعض الجمال.. ومن ثم فان اليونانيين كانوا يطلقون على هـــذه الجزر اســـم جزر الامراء Principu برينكيبو.. وبالجزر منازل غاية فى الجمال وسط غابات الأشجار القديمة الباسقة ، ولم يكن يسمح للسيارات بدخول الجزر اكتفاء بالعربات التى تجرها الخيول .. وبالجزيرتين الكبيرتين مدن أو قرى مأهولة ومطاعم طيبة (ما زال عدد منها يقدم طيبات البحار على الطريقة اليونانية مثل الأسماك المشوية والمحلاة بزيت الزيتون والليمون) . وقد كانت الرحلة من استانبول إلى بيوك أدا تستغرق ساعتين إلا قليلا بالمعديات الكثيرة التى تشتهر بها استانبول وهى من أجمل معالم استانبول السياحية ومن أجمل ذكريات زياراتى اللاحقة إلى استانبول والجزر صيفا .

ثم تبدو استانبول أخيراً فى الأفق .. وتتميز استانبول عن أى مدينة أخرى فى العالم بأنها مدينة كبيرة عريقة تجمع ما بين القديم والحديث لكنها بنيت على شاطئ البوسفور ، الأسيوى والأوروبى ..

والبوسفور شريط مائى عرضه بضعة كيلو مترات (ما بين ٢ و ٤) وطوله أكثر من عشرين أو ثلاثين كيلو مترا يصل ما بين بحر مرمرة والبحر الأسود وتقع نصف استانبول على شاطئ البوسفور الأسيوى والنصف الآخر على شاطئ البوسفور الأوروبى وتقع منازل المدينة وجوامعها بدءا من الشريط الساحلى وترتفع متدرجة رويدا رويدا مع التلال الخضراء التى تحف بشاطئ البوسفور ذات اليمين وذات اليسار . وتتلألأ القصور البيضاء والجوامع والمآذن وسط زرقة مياه البوسفور المتدفقة الداكنة وخضرة التلال المحيطة .

وأول ما يطالعك عند تقدم الباخرة استعداداً للرسو فى ميناء استانبول جهة اليسار أى على الجانب الأوروبى أول ما يطالعك هو القرن الذهبى The Golden Horn وهو فرع من البوسفور (تماما مثل الزائدة الدودية) يتجه شمالا وغربا نحو اليسار ، وتقع على ضفتيه استانبول القديمة بما حوت من جوامع ومآذن وقصور بعضها تحتله سفارات بعض الدول العظمى ذات التاريخ القديم مع الامبراطورية العثمانية ، ويشرف أيضا على القرن الذهبى هضبة شامخة تطل على مشارف استانبول والبوسفور ونهاية بحر مرمرة وعلى رأس تلك الهضبة قصر رحيب ذو قباب بيضاء أو صفراء مستديرة تعود بالذاكرة إلى قباب آسيا وآسيا الصغرى وهذا صحيح فقد كان قصر توب كابو Top Kapu أى قصـــــر باب

المدفع [1] من أوائل القصور التى اقامها العثمانيون بعد فتح استانبول سنة ١٤٥٣ ميلادية وظل مقراً لاقامة السلاطين فى أوائل حكمهم وهو الآن متحف شهير يضم كثيراً من آثار الحضارة العثمانية فى أوائل عهدها قبل أن تتناولها يد الثراء والنعمة والمدنية عندما اتسعت الامبراطورية لتشمل بلاداً قديمة ذات نعمة وحضارة مثل مصر والشام وبلاد البلقان ، وإلى جانب قصر توب كابو يوجد أهم آثار القسطنطينية Constantinople وهو الاسم البيزنطى نسبة إلى الامبراطور كونستانتين أهم اباطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية الا وهو أيا صوفيا أو سانت صوفى وهى أهم كاتدرائية فى الامبراطورية البيزنطية ، ويقال : إنه فى سانت صوفى وما حولها وقف أهالى القسطنطينية المسيحيون وقد احاط بهم العثمانيون من كل جانب منذ ثلاثة شهور وقطعوا عنهم امدادات المياه والطعام وقف أهالى القسطنطينية يصلون ويبتهلون ويتساءلون متى ينزل عليهم الملاك الذى سيحميهم ويدفع عنهم شر العثمانيين "الكفرة" ؟! واختلف أهل بيزنطة فيما بينهم مدة طويلة ألهتهم عن محاربة العثمانيين ومراقبة تحركاتهم حول هذا السؤال .. هل سيكون هذا الملاك ذكراً أم أنثى ؟ ..

---

(١) توب يعنى مدفع ومنها كلمة طوبجى أى مدفعجى . أما Kap فيعنى باب أو بوابة .

ومن هنا جاء تعبير "مناقشة بيزنطية" أى دون فائدة وغير ذات موضوع ! إلى أن نجح العثمانيون فى الالتفاف حول المدينة واقتحامها وسقطت بين أيديهم ثمرة ناضجة فغيروا اسمها من القسطنطينية إلى اسلام بول . Islam bol أى مدينة الاسلام الوفير أو "الاسلام فى وفرة وخير" وحرفت فيما بعد إلى استانبول لكن مازال كثير من الناس الذين ينتسبون إلى هذه المدينة يسمون أنفسهم "الاسلامبولى" وليس الاستانبولى . أما العثمانيون وقد دانت لهم عاصمة الامبراطورية البيزنطية ثم الامبراطورية بأسرها فقد أصبحوا – وهم فى عنفوان وحماس اسلامهم – يطلقون اسم "كافر" على كل من ليس بمسلم من أهالى بيزنطة .. لكنهم ينطقونها Kavur إلى اليوم . أما المسيحيون أو اليهود من أهل بيزنطة أو استانبول الذين اختاروا بسبب أو آخر ان يغيروا ديانتهم الأصلية إلى الإسلام فقد اسماهم الاتراك Dönme الدونمة أى الملتفون أو المغيرون (أى المرتدون عن دينهم) لأن فعل Dönmek معناه يدير أو يلف وجاء منها كلمة Döner Kebab أى الذى يطهو بادارته باستمرار فوق النار المشتعلة !

كانت هذ الذكريات وأمثالها كثيرة تدور بمخيلتى بسرعة والباخرة تقترب من رصيف ميناء استانبول وكلما تكرر عبورى بالمعديات أمام هذه البقعة فيما بعد .. وقد بدت عن قرب معالم الضفة الغربية

أى الأوروبية من المدينة وبدت الجوامع بمآذنها وجدرانها البيضاء الشامخة بدت غريبة أول الأمر وغير مألوفة وسط هذه المدينة وهذه الطبوغرافية التى تبدو أوروبية الطابع فى مناظرها الطبيعية فيما عدا كثرة الجوامع كثرة ملحوظة وفيما عدا وجود عدد كبير من "الحمالين" (الشيالين) الاناضوليين الفقراء .. وقد اسميت استانبول مدينة الألف مئذنة فى وقت من الاوقات وان كنت اظن أن الرقم مبالغ فيه كثيرا . وأهم جوامع استانبول الجامع الأزرق - السليمانية - وجامع السلطان الفاتح .. وكلها جوامع تتميز بالذوق الفنى الرفيع وأبهة التحف والرياش الداخلية ولكن أيضا ببياض لونها من الخارج . وزيارة الجوامع التاريخية من أهم معالم استانبول السياحية تماما مثل زيارة أياصوفيا وتوب كابو وقصر ضولمة بهجة وقصر يلدز .

فقبل أن تقف الباخرة تماما أمام رصيف الميناء قد تواتيك الفرصة لتقع عيناك على قصر رائع أبيض اللون كالمرمر يزيده بياضا وبريقا دكانة زرقة مياه البوسفور التى يطل عليها قصر «ضولمة بهجة» وكان مقر آخر السلاطين العثمانيين .. وضولمة كما نعلم معناها محشو لكن بهجة معناها بالتركية "حديقة" أى القصر ذو الحديقة المحشوة (حشوا) Dolma Bahce . ولهذا قصة طريفة فقد قرر السلطان الانتقال إلى هذا القصر الجديد لمناسبة

اجتماعية هامة فى موعد قريب ولم تكن الحديقة قد زرعت بعد فأمر بنقل الاشجار كاملة النمو إليها وزرعها زرعا أى حشوها فى الحديقة !

جاء رسو الباخرة أما مبنى كبير قاتم اللون ، رأيت الكلمات Gümrük مكتوبة اعلاه فخمنت انها تعنى الجمرك وكان هذا صحيحا .. كان فى استقبالى عبد الرحمن جون آيدن Gün Aydin واسمه يعنى صباح الخير بالتركية الحديثة . وهو قواس (١) Kawas (حارس - ساعى) القنصلية المصرية العامة فى استانبول وكان شخصا رقيقا مهذبا وجهه شديد البياض وعيناه شديدتا الزرقة الصافية وشعره اشقر ناعم ففهمت انه كان ينتمى إلى طائفة الشراكسة .. أما الاتراك الاناضوليون فتغلب عليهم السمرة وكثير منهم يحمل تقاطيع اسيوية أو منغولية .. ولهذا يخطئ كثيرا - كما تبينت فيما بعد - من يظن أن كل الاتراك مثل جون آيدن فالعكس صحيح .. وكان جون آيدن لحسن الحظ يتكلم بعض العربية حيث كان يعمل فى قنصليتنا منذ سنوات طويلة .. وكان هذا لازما إذ لم اكن اعرف التركية بعد . وقد اصطحبنى جون آيدن إلى القنصلية

(١) كان حراس القنصليات الأجنبية يسيرون إلى جانب العربات المقلة للقنصل حاملين القوس والنشاب كمظهر من مظاهر قوة وعزة دولة القنصل الأجنبى . ومن هنا جاءت كلمة «قواس Kawas»

المصرية حيث احتفى بى زمـلائى الأعزاء نائب القنصل عثمان ارناءوط وسـكرتير القنصلية المرحوم عز العرب أمين (اصبحا سفيرين فيما بعد) كما تناولت الغداء مع القنصل العام ..

وفى المساء أخذنى جون آيدن عبر البوسفور فى احدى العبّارات (المعديات) الكثيرة التى تعمل باستمرار مثل خطوط الترام، بين الاحياء المزدحمة والمتناثرة على ضفتى البوسفور شرقا وغربا .. فإذا بنا فى محطة القطار الرسمية بمدينة استانبول والتى تصلها بالعاصمة انقرة وبقية المدن فى آسيا الصغرى وكان اسمها محطة (حيدر باشا) وقد ركبت القطار ذا عربات النوم إلى انقرة العاصمة وتبعد عن استانبول قرابة ٤٥٠ كيلو مترا وسط هضبة آسيا الصغرى شديدة الوعورة والغنية بالجبال الشاهقة والوديان والانهار والغابات الخضراء .. وكان القطار وعربات نومه كأحسن ما تمنيت ووصلت انقره فى الصباح التالى ..

وقد قدرت لى فيما بعد العودة لزيارة استانبول بل ولقضاء فترتى صيف فيها فقد كان كثير من السفارات تنتقل إلى استانبول صيفا كما جرت العادة حينئذ كما ان كثيرا من السفارات التابعة للدول التى كانت لها علاقات تاريخية قوية مع تركيا تملك مقارا صيفية دائمة فى استانبول (مثل روسيا وبريطانيا وفرنسا وهكذا) . وكانت مصر تملك فعلا مثل هذا المقر الصيفى فى استانبول وهو

قصر Bebek وهو اسم الحى ويقع على ضفة البوسفور الغربية الأوروبية وكان القصر اصلا ملكا "لوالدة باشا أى والدة الخديو واصبح ملكا للدولة المصرية وقررت الافادة منه فوضعته تحت تصرف السيد السفير فى انقرة . (وهو حاليا مقر القنصلية العامة فى استانبول ويقيم القنصل العام فى جزء منه أيضا) .

أما قصر بيبك هذا فيقع فى حى بيبك القديم فى وسط الساحل الأوروبى لاستانبول وللقصر ما يشرف على أربعين أو خمسين حجرة وعدة أجنحة وكان الدور الأرضى منه يستعمل من أجل صالونات الاستقبال وحجرة المائدة الرسمية ومكاتب السفير وكبار مساعديه .

أما الدور الثانى ففيه السكن الصيفى للسفير وعائلته .. وقد تفضل السفير رحمه الله وكان السيد/ أمين فؤاد المناسترلى (بك) فسمح للدبلوماسيين من اعضاء السفارة بسكنى بقية غرف الاجنحة الأخرى فى الدور الثانى ومن هنا سنحت لى فرصة الاستمتاع بالمصيف فى استانبول ..

ومن أوائل الاشياء التى اشتقت إلى فعلها وقت فراغى عندما عدت لاستانبول صيفا كان الاستمتاع بالاستحمام فى مياه البوسفور حيث كان قصر بيبك يطل مباشرة على البوسفور وله مرسى خاص يمكن منه النزول إلى المياه ، لكنى بعد أن سبحت عدة أمتار قنعت من الغنيمة بالاياب فقد كانت مياه البوسفور شديدة

البرودة والسرعة بفعل التيارات المائية الباردة الواردة من البحر الاسود على بعد عدة كيلو مترات شمالا - كما كان البوسفور عميقا ليس به مكان للوقوف ووجدت فيما بعد أن أهل استانبول ينعمون بحمامات البحر الأكثر أمنا ودفئا فى بحر مرمرة وبه عدة بلاجات طبية منها فلوريا قرب مطار استانبول المطل على بحر مرمرة فى حى Yesil Köy أى الحى الاخضر أو المرسى الأخضر لكن هذا لم يقلل من جمال البوسفور ، وسحر مناظره ومن لذة ركوب المعديات الكبيرة التى تصل احياء استانبول الأسيوية والأوروبية بعضها بالبعض الآخر .. ويستعملها الاستانبوليون والسائحون للنزهة عبر البوسفور أو كوسيلة لقضاء مهامهم وأعمالهم . أما الآن وبدءاً من أواخر السبعينات فقد اقام الاتراك جسرا (كوبرى) معلقا حديثا ضخما يصل لأول مرة ما بين استانبول الاسيوية واستانبول الاوروبية لعبور السيارات والمشاة .. وقد نجحت هذه التجربة فتبعوه بآخر .. بل ان استانبول بسبيل أن تبنى حاليا جسرها المعلق الثالث عبر البوسفور .. ويمكن للسفن العملاقة عابرة المحيطات المرور تحت الكوبريين تماما مثل كوبرى جولدن جيت قرب سان فرانسيسكو أو كوبرى فيرازانو فى نيويورك أو مثل كوبرى لشبونة عاصمة البرتغال ..

واستانبول مدينة عريقة فى القدم وعرفت منذ أيام الاغريق

والرومان لكن اخذت طابعها الاسلامى منذ الفتح العثمانى سنة ١٤٥٣ لكثرة ما جمعته من جوامع ومآذن بل وبازارات (اسواق شرقية) قديمة اهمها السوق المغطاة Kapali Cerce (كيالى تشرشه) والسوق المصرية Misir Cercesi (ميصير تشرشسى) والملاصقة للأولى .

وللمصريين فى بناء استانبول دور أهم بكثير من مجرد تسمية جزء من سوق استانبول القديمة على اسمهم . فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٦ استقدم من القاهرة إلى استانبول الفا (١٠٠٠) من أمهر الصناع والفنانين والبنائين المصريين لمساعدته على بناء وتجميل استانبول وذلك لما رآه شخصيا من روعة العمارة ومن ابداع الفنانين المصريين فى بناء وتجميل الجوامع والمآذن والقصور التى رآها فى مصر . ومن ثم فقد خلّف هؤلاء المصريون - كما سجل التاريخ - اكثر من اثر واكثر من قسم فى سوق استانبول المغطاة . وهناك تشابه كبير لا تنكره العين بين عديد من جوامع ومآذن مصر وامثالها فى استانبول. والواقع الذى يشهد به التاريخ كما يشهد به الحاضر سواء بسواء ان الاتراك عندما فتحوا الشام ومصر وايران ويوغوسلافيا واليونان وبلغاريا كانوا حقا غزاة اقوياء لكنهم كانوا رعاة وبدوا رحلاً جاء وا حـــديثا من مرعاهم ووطنهم الأصلى فى

سهوب اواسط آسيا لكنهم كانوا أقل ثقافة وحضارة وعراقة من كثير من البلاد التى فتحوها بحد السيف وبالفروسية ومن ثم اخذ الاتراك أو استعاروا الكثير من هذه الاقطار كالاف من مهرة الصناع والفنانين وكأصناف عديدة من المآكل والملبس وطرق العيش والتحدث وكآلاف الكلمات الفارسية والعربية التي تعبر عن معان حضارية وثقافية لم يكن يعرفها الاتراك بعد ومن ثم لم يكن لها مرادفات فى اللغة الطورانية أو التركية القديمة ..

ورغم أن اتاتورك قاد حملة عاتية منذ ١٩٢٣ لتخليص تركيا من قيود وصلات تاريخها الطويل ولفتح الطريق أمام تركيا أخرى حديثة (أوروبية إن أمكن بدلا من شرقية) ورغم أنه قاد المحاولات لقطع صلات تركيا العاطفية والروحية بالشعوب العربية والتخلص من الكلمات العربية فى اللغة التركية ، فمازالت تركيا يغلب عليها طابع الدولة أو الأمة الشرقية رغم ارتداء أهل المدن بأمر اتاتورك للزى الأوروبى ورغم تحويل الكتابة من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ..

ومازالت تربط الاتراك بالأمة الإسلامية والعربية روابط الدم والدين وجذور الحضارة ومازالت آلاف الكلمات العربية تسمع على

لسان الاتراك وان لم يجيدوا نطقها وان استعملوها فى معان مخالفة بعض الشىء لمعناها الأصلى بالعربية ..

نعود إلى استانبول ، والسوق المغطاة . والأخيرة اقرب شىء إلى خان الخليلى بالقاهرة أو سوق الحميدية فى دمشق سوى أن السوق المغطاة أكثر اتساعا ونظافة وتنظيما وبها عدد لا يعد ولا يحصى من الحوانيت والأزقة بل والاحياء المتخصصة فى الملابس أو الجلود أو الفضيات والتحف أو المصاغ أو المأكولات وهكذا .

ولا يمانع أصحاب الحوانيت فى هذ السوق وغيرها فى المساومة بل قد يخفضون لك السعر أحيانا إذا ما قبلت السعر الذى طلبوه دون نقاش .. والاتراك عموما عرفوا بالأمانة وحسن المعاملة . وفى السوق المغطاة وعلى مدخل السوق المصرية كان يوجد أحد مطعمى «عبد الله افندى» الشهيرين فى استانبول ، أما الآخر ففى جادة (شارع) الاستقلال Istiklal Caddesi فى حى تقسيم Taksim مركز استانبول الحديثة .

ومائدة الطعام التركية حافلة بما لذ وطاب . فسادة العثمانيين كانوا ينعمون بلذة الحياة وعشقوا الأكل الطيب والمعيشة الرغدة ، أما المائدة التركية فقد اتسعت بقدر اتساع الفتوحات ثم اخذت من كل بستان زهرة ، وكانت هذه البساتين التى اخضعوها كثيرة فى آسيا والعالم العربى وافريقيا وشرق أوروبا .. ثم فاضت المائدة

التركية بعد ذلك بخيراتها وعمت سوريا ولبنان ومصر التى أخذت عنها كثيرا من اطباق الطعام التركية الشهية . ومع ذلك فقد تختلف طريقة طهو الاتراك انفسهم لهذه الأطباق بعض الشيء عن الطريقة التى ألفها المصريون أو الشوام وقد تفوقها دقة وطرافة .. ومن أشهر هذه الأطباق التركية الضولة الكاذبة يالانچى Yalanci Dol-ma (تطهى بالزيت وبدون لحم داخلها لكنها تحشى بالصنوبر والزبيب) ومحشو الفلفل الأخضر Biber Dolmasi وورق العنب Ya-prak Sarma ومحشو القرع Kabak Dolmasi ومحشـــو الكرنب Lahna وهكذا ، إلى جانب طبق الكباب أو الكفتة العائمة على بحر من فتة الزبادى والزبدة الساخنتين Yogörtlu Kebab وأنواع الأرز بالزبيب والصنوبر Dawod Pasa Pilav وطبق صدور الفراخ (نسائر) المغطاة بصلصته اساسها مسحوق الجوز الشركسية Cerkes Tavuk ونسائر الفراخ داخل المطبية .. Tavuk Göksu وأنواع الكفتة بالبقسماط (كفتة "ورك الهانم" Kadin Budu Köfte وهكذا .. هذا إلى جانب الحلويات التركية الشهية المتقنة الصنع كالكنافة المحشوة بالفستق Tel Kadoyif والبقلاوة .. كذلك من اشهر الأطباق الباذنجان المسمى امام بايلضى وهو معروف فى مصر Imam Bayildi أى الامام (القاضى) اغمى عليه (من فرط الاستمتاع بهذا الطبق) .

ومن لا يلتفت إلى وجوب الحذر فى تناوله لكل هذه المشهيات فسرعان ما يجد أن وزنه قد افلت من يده وهو ما حدث لى أول سنة عشتها فى تركيا إذ لم اكن قد تزوجت بعد وكان معظم تناولى للوجبات فى المطاعم ومن ثم لم استطع العودة إلى وزنى الأصلى قـبل ذهابى إلى تركيا إلا بعـد سنين طويلـة من ضبط النفس والحذر .

أما الانبذة التركية فجيدة ويسمون النبيذ الأحمر Kirmizi Sera-bi الشراب القرمزى والأبيض Beyaz Serabi الشراب الأبيض أما البيرة الغامقة (مثل بيرة اسوان فى مصر) فاسمها Siyah Bira سياخ بيره .

هذا وإلى جانب النزهات البحرية الكثيرة المتوافرة فى استانبول وما حولها عبر البوسفور أو فى بحر مرمرة إلى الجزر الثلاث سالفة الذكر أو إلى مدينة يالوفا Yalova وأمثالها على بحر مرمرة وإلى البلاجات الكثيرة فإن الغابات المحيطة باستانبول الأوروبية تمتد بك حتى حدود بلغاريا واليونان القريبة . وقرب استانبول توجد مساقط مياه معدنية فى الجبال المحيطة اشتهرت بكفاءتها فى مساعدة عملية هضم الأطعمة التركية الشهية ومنها ، ما أسماه الاتراك Tas delen (طاش دیلین) أى التى تذيب الحجر فإن كلمة Tas معناها

حجر ومن هنا فإن اسم «دمرداش» كان يعنى الحجر الحديدى (Demir أى حديد) .

كذلك فإن الوصول من استانبول القديمة حول القرن الذهبى إلى سواحل البوسفور الشمالية حيث امتدت المدينة الجديدة ، وحيث توجد أحياء حديثة جميلة مطلة على سواحل البوسفور مثل استنيا وصارى ير Sare Yer وترابيا تتميز كلها بوجود الفنادق الحديثة والمطاعم الصيفية فى الهواء الطلق التى تقدم اطايب وخيرات البحر المتوافرة بكثرة كالاسماك والجمبرى والاستاكوزا ، يعتبر فى حد ذاته نزهة رائعة . وللوصول من وسط استانبول إلى اطرافها الشمالية الحديثة يمكن اختيار احد طريقين بريين الطريق الجبلى أى العلوى من فوق التلال الخضراء وتعلمت سريعا أن اطلب من سائقى التاكسى فى هذا الحالة اخذ الطريق العلوى Yukariden أو على العكس من ذلك الطريق السفلى ashadan من على ساحل البوسفور بدءاً بحى الأرناءوط Arnaout Köy وحى القاضى Kadi Köy ثم الحى الأوسط Orta Köy ، وعبورا ببيك وهكذا .. أما إذا كان لديك متسع من الوقت وتفضل ركوب البحر فيمكن اخذ احدى المعديات قرب كوبرى غلطة Galata Koprusu فى وسط المدينة القديمة وحيث موقف المعديات وحيث يكثر عدد الحمالين Hamal إلى أحد الاحياء شمالا قرب نهاية البوسـفور مثل صارى يد أو ترابيا

أو استتنيا وهو ما يتيح للناظر نزهة بحرية وجمالية فريدة ما بين الشاطئين الاسيوى والاوروبى ملتقى القارتين عبورا بقصر ضولة بهجة وقلعة محمد الثانى Yeni Hisar – حصار معناها قلعة وينى جديد – ثم بعدد كبير من الاحياء والمنازل والقصور الغفيرة المطلة على البوسفور والتى تعود بالذاكرة إلى مجد الامبراطورية العثمانية التليد . وبين كل حى من هذه الاحياء المطلة على البحر Köy (Quai) سلسلة لا تنقطع من الغابات الكثيفة الخضراء . ولا تكاد تنقطع حركة هذه العبارات (المعديات) على مياه البوسفور وبعضها يرسو مرة فى الجانب الأوروبى ثم مرة أخرى فى مقابل ذلك على الجانب الآسيوى وهكذا . وبعضها الآخر يكتفى بالرسو على جانب دون آخر أحيانا .

أما حركة الملاحة الدولية للسفن الكبيرة التى تجتاز البوسفور من البحر الأبيض إلى البحر الأسود أو العكس فتشمل بعض سفن الركاب المتجهة إلى موانىء رومانيا أو بلغاريا أو شبه جزيرة القرم فيما كان يسمى الاتحاد السوفييتى ، أو بعض سفن البترول أو حتى بعض السفن الحربية التركية أو الروسية أو الأمريكية (نظمت اتفاقيات السلام بعد الحرب العالمية الأولى المرور البحرى الدولى الآمن عبر مضايق البوسفور Innocent Passage زمن السلام وضمنت حرية الملاحة فى البوسفور تحت اشراف تركيا الدولة

صاحبة السيادة على المضايق وهو ما يجعل منظر البوسفور فريدا ومسليا إلى جانب العنصر الجمالى الذى لاشك فيه ..

ومياه البوسفور عميقة جدا وباردة جدا خاصة أن البوسفور تكون نتيجة لزلزال أرضى شديد كسر القشرة الأرضية مكونا هذا الأخدود العميق الغور والذى فرق ما بين ما نسميه حاليا آسيا وأوربا فى هذا الموضع . وتركيا كما تعلم مازالت إلى اليوم منطقة زلازل وبخاصة فى آسيا الصغرى أى الشق الشرقى من الجمهورية ومن هنا فإن التاريخ يروى أن بعض السلاطين ومن حولهم كانوا يتخلصون من اعدائهم أو ممن يخرج عن حظوتهم من الحريم أو الاغوات بالقذف وسط البوسفور ليلقوا حتفهم غرقا حيث تجرفهم تيارات مياه البوسفور بعيدا .

وصيف استانبول جميل معتدل وأقل حرارة من صيف انقرة فالأخيرة جوها قارى إذ تقع وسط هضبة الاناضول أما استانبول فبحرية ويقلل من برد شتائها وقيظ صيفها وقوعها كلها على بحر مرمرة والبوسفور .. وليالى الصيف فى استانبول تهب عليها نسمات بحرية منعشة يستمتع بها أهل استانبول بارتياد الكازينوهات فى الحدائق يستمعون إلى الموسيقى التركية القديمة (مثال ذلك فى حديقة التل Tepe Bahce حيث كانت تغنى «صفية» إحدى مشاهير المغنيات التركيات وأمثالها) .. أو يشهدون عروض

الأوبرا أو الغناء الغربى الحديث فى مسرح الهواء المفتوح Acik Hava Teatrusu فى حى تقسيم ..

حدث فى صيف سنة ١٩٥٠ ان ركبنا انا وزوجتى وبعض الزملاء الدبلوماسيين المصريين وزوجاتهم إحدى المعديات من استانبول قاصدين بيوك ادا أو الجزيرة الكبيرة فى بحر مرمرة وكان يوما من أيام رمضان القائظة وتستغرق الرحلة حوالى الساعتين ودارت الاحاديث البهيجة بيننا فى مرح وحبور باللغة المصرية بطبيعة الحال فى حين كان بعض السيدات من بيننا يتناولن بعض الشطائر أو المرطبات ... وإذا برجلين تركيين يرتديان بيريه (قبعة) Beret فوق رأسيهما يقتربان منا ويسألان واحدا منا كان يجيد التركية «هل انتم عرب ؟» فأجابه بالايجاب فعاد يسأله هل أنتم مسلمون ؟ فأجابه بالايجاب أيضا فعاد يسأله» ولماذا إذن لا تصومون فى رمضان ! نحن اتراك مسلمون وصائمون (فعل يصوم Uruc Tutmck (أورونش الصيام) وقد اعتذر إليهم زميلنا قائلا : إنه هو واغلبيتنا صائمون اما من افطر منا فقد فعل ذلك لاسباب صحية والدين الحنيف يُسر لا عسر ..

هذا ومن الطريف أن رجال الدين فى تركيا وقد حرم عليهم منذ عهد اتاتورك ارتداء زى المشايخ التقليدى اصبحوا يرتدون البذلة الأوربية ومن فوقها يرتدون القبعة التقليدية البيريه بدلا من العمامة .. Beret

والواقع انه لا يكتمل الحديث عن تركيا دون التعرض لموقفها من العرب ومن الاسلام بشىء من الايجاز . فبعد أن غزا السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٦ ميلادية انتقلت الخلافة من القاهرة حيث كانت إلى استانبول حيث ولّى السلطان العثمانى نفسه اميرا للمؤمنين وظل الأمر هكذا حتى سنة ١٩٢٣ وكان الاتراك يعتبرون العرب جزءا لا ينفصل عن «دار الإسلام» ورئيسها أمير المؤمنين أى الخليفة فى استانبول وكان العرب بحكم كونهم مسلمين يدينون بالولاء والطاعة لأولى الأمر منكم . ولم يكن لشعور الوطنية الضيقة محل من الاعراب في ذلك الوقت وحتى اوائل القرن العشرين .. لكن بدأ العرب يتململون تحت وطأة حكم الاتراك مع أول بشائر شعور الوطنية فى أوائل القرن العشرين .. وقد شجع دخول تركيا الحرب العالمية الأولى فى صف المانيا ضد بريطانيا وفرنسا شجع العرب الذين كانوا تحت حكم البريطانيين الذين تسللوا إلى مصر وفلسطين على رفع راية الوطنية والمطالبة بالاستقلال وشجعهم فى ذلك الأمر لورانس - والمخابرات البريطانية والفرنسية .. إلى أن قام العرب فى سوريا وفلسطين بثورتهم الشهيرة سنة ١٩١٦ ضد الحكم التركى وإلى أن حلت الهزيمة بتركيا مع ألمانيا .. ولم ينس الأتراك حتى اليوم انضمام العرب إلى بريطانيا وثورتهم ضد تركيا أثناء الحرب مطالبين بالاستقلال . ولكن كان جزاء العرب أن حنث

البريطانيون والفرنسيون بوعودهم لمنحهم الاستقلال . ولما قامت ثورة تركيا الفتاة ضد السلطان ونجح اتاتورك فى خلع آخر السلاطين وإعلان الجمهورية فى تركيا وإنهاء الخلافة كان هذا إيذانا ببدء ثورة شاملة فى تركيا ثورة اجتماعية ودينية وسياسية - ارادت ان تقطع تماما صلتها بالماضى برمته بما حواه من سلاطين وخلافة وعلاقات مع العرب ومع اللغة العربية كما ارادت التخلص من القيود التى فرضها الدين على الدولة والمجتمع بإعلان قيام علمانية حديثه ليست لها علاقة ما بالدين .. فأنهى اتاتورك الخلافة ونقل العاصمة من استانبول إلى انقرة وبدأ حملة إصلاحية لتحديث تركيا فمنع كتابة اللغة التركية بالحروف العربية واستبدلها بالحروف اللاتينية وبدأ حملة عاتية لتخليص اللغة التركية من أكبر عدد ممكن من الكلمات العربية حتى وإن استبدلها بكلمات فرنسية أو غربية ان لم يوجد لها مرادف باللغة الطورانية (أصل التركية القديمة) وإلى جانب إعلان قيام الدولة العلمانية حاول انهاء كل تأثير ممكن للمشايخ ورجال الدين فمنع تزييهم بالزى التقليدى لرجال الدين الإسلامى وجعلهم كما جعل كل الاتراك يتزيون بالقبعة والزى الغربى (مما جعل المتدينين ورجال الدين يضطرون إلى لبس البيريه Beret بدلا من العمامة) ، وباختصار حاول اتاتورك جعل تركيا دولة اوروبية بدلا من شرقية لكى تستطيع مسايرة. تقدم الدول الغربية العظمى

ومواجهة تفوقها على الامبراطورية العثمانية . ولاشك فى أن ستين عاما من تطبيق هذه السياسة الاتاتوركية قد تركت آثارها على الجيل الجديد من الاتراك .. ورغم وقوع كثيرين من الاتراك اذن تحت تأثير هذه الموجة العارمة موجة اتهام العرب بالخيانة أو الاشتراك فى هزيمة تركيا اثناء الحرب واضعاف تأثير الدين والتشبه بالغرب .. إلا أنى وجدت فى تركيا معينا لا ينضب من التدين والتمسك بشعائر الإسلام وبخاصة فى الريف التركى وبقية المدن الصغيرة بخلاف استانبول وانقرة وأزمير . كما أن هناك معينا وفيرا من الود والصداقة للعرب بحكم صلة الدين والارحام والعادات والتقاليد المشتركة التى مازالت باقية إلى حد كبير وبخاصة بعيدا عن كبريات المدن التركية .. ورغم المحاولات الرسمية على مدى ستين عاما متصلة للتخلص من الكلمات العربية فى اللغة التركية فمازالت هناك - رغم هذا - الاف الكلمات العربية التى تستعمل يوميا فى احاديث الاتراك وتملأ صفحات الجرائد والمجلات سواء أفطنوا أم لم يفطنوا إلى أصلها العربى . يكفى أن الشعار الذى اختاره اتاتورك بنفسه ومازال إلى يومنا هذا يزين صدر جامعة انقرة يقول :

"حياة آن حقيقى مرشد علم سر Hayata En Hakiki Mürsid Elimidir العلم هو المرشد الحقيقى فى هذه الحياة (وكل كلمة من كلمات اتاتورك هذه من اللغة العربية) .

ومازال التمسك بالتقاليد الشرقية وبشعائر الدين والروح المحافظة من التيارات القومية ذات التأثير الفعال فى السياسة التركية الداخلية ويتبناها حزب من أقوى الاحزاب التركية ومن اقوى التيارات السياسية المسيطرة على الدولة وذلك بعكس حزب أو تيار آخر - يتمتع بحماية القوات المسلحة - يتجه شطر الغرب والتشبه بالشعوب الأوروبية الغربية ، وقد استطاع هذا التيار الأخير الاستئثار بالحكم سنين طويلة بفضل مساندة القوات المسلحة التى مازال شغلها الشاغل - تاريخيا وتقليديا - الحذر والخشية من روسيا سواء القيصرية أو الشيوعية ، وقد استطاع هذا التيار جعل تركيا عضوا فى حلف الأطلسى الغربى وحليفا قويا للولايات المتحدة اشتركت بقوات تركية فى الحرب الكورية ١٩٥٠ وها هى ذى تركيا أيضا تطالب بالانضمام إلى المجموعة الأوروبية الغربية ، وبدخول السوق الأوروبية المشتركة كعضو كامل أى أوروبى ..

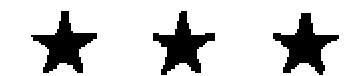
وكل من هذين التيارين السابقين يتنازع قيادة تركيا ضد الاتجاه الثالث والأكثر ضعفا وهو التيار اليسارى (الماركسى) فالاتراك عموما وتقليديا يعتبرون انفسهم اعداء لروسيا ولكل ما هو روسى الأصل .

والخلاصة إذن انه رغم حملة اتاتورك ومن خلفوه فى الرياسة من زعماء الجيش لقطع صلات تركيا بالماضى إلاَّ أن الريف التركى

مازال يمثل قلب تركيا ومازال شديد التمسك بالدين وربما بشيء من التعصب الذى يعكس الجهل بروح الإسلام الحقيقية المتسامحة السمحة .. ومن هنا فإن المساجد حتى فى استانبول التى تمثل أقصى ما بلغته محاولات التشبه بالغرب فى تركيا – تكون مكتظة بل شديدة الزحام أيام الجمع وأثناء المواسم الدينية وكذلك اثناء صلاة التراويح فى رمضان .. بل إن الاتراك بسبب حداثة تحولهم إلى الدين الإسلامى وبسبب جهلهم بلغة القرآن قد يغالون بعض الشيء من مظاهر التمسك بالإسلام ويبدو ذلك في تعصب الريفى التركى ضد غير المسلمين حتى أنه ليلقبهم بالكافر Gavur حتى الآن ، كما تبدو روح المغالاة أيضا فى مدى طول صلاة التراويح التى قد تمتد إلى منتصف الليل داخل المساجد !!

واذكر هنا واقعة طريفة .. فقد امتد سهر بعض المصريين المقيمين فى استانبول خارج منازلهم فى ليالى رمضان .. وكلما سألتهم زوجاتهم عن سبب تأخيرهم خارج المنزل فى منتصف الليل اجابوا : كنا نصلى صلاة التراويح في المسجد .. وأخيرا صممت بعض الزوجات على استصحاب الازواج الى المسجد لاداء صلاة التراويح سويا .. وفعلا ذهبن معهم وامتدت صلاة التراويح حتى منتصف الليل أمام اعين الزوجات .. وبعد ذلك لم تعد الزوجات

يطالبن باستصحاب ازواجهن ولا إلى سؤالهم اين كانوا فى ليالى رمضان .



لننتقل الآن إلى انقرة "ANKARA" التى وصلتها فى نوفمبر ١٩٤٨ فى اليوم التالى لوصولى إلى تركيا . كانت أنقرة قبل تولى اتاتورك السلطة ١٩٢٣ قرية صغيرة قديمة تقع على ربوة عالية سوداء وسط هضبة الاناضول .. واختارها اتاتورك (أبو الاتراك باللغة التركية القديمة وكان اسمه الاصلى مصطفى كمال وكنيته اتاتورك) بعد خروج تركيا مهزومة من الحرب العالمية الأولى اختارها كعاصمة لتركيا الحديثة تأكيدا لمعنى بداية عصر جديد يختلف تماما عن عصر السلاطين العثمانيين البائد ، وتأكيدا لمعنى فتح وبدء الاهتمام بالريف الاناضولى ، وتحسباً للمستقبل ضد احتمالات أى غزو اجنبى فانقرة حصينة وسط الهضبة الاناضولية وتبعد عن كل حدود تركيا فى حين كانت استانبول على مشارف بلغاريا واليونان على ضفاف البوسفور .. وعند وصولى إلى انقرة كانت مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على مائتى ألف تمتد من سفوح انقرة القديمة فى اتجاه الغرب والجنوب الغربى إلى السهول الممتدة الواسعة .. ولم يكن بها شىء من مباهج استانبول الطبيعية ولا العمرانية أو الاجتماعية وكانت السفارات الاجنبية فى انقرة تمثل

اغلب النشاط الاجتماعي ولكن كان الدبلوماسيون الاجانب يتفكهون بتسمية انقره En - Kara والكلمة معناها بالتركية الاشد سوادا لان كارا تعنى اسود والاضافة En تمثل الـ Superlative أى الأكثر . كما كانوا يسمونها "بمعسكر اعتقال الدبلوماسيين" وكانوا يتطلعون للخلاص أو الفكاك منها كلما سنحت الفرصة بقضاء الصيف أو عطلة نهاية الاسبوع في استانبول . أما من لم تسنح له فرصة الفكاك السريع فكان يعزى نفسه بوداع المسافرين أو المنقولين من زملائه في محطة القطار أو في مطار أنقرة متمنيا اليوم الذى يأتى فيه الزملاء لوداعه هو أيضا ..

بعد وصولى بقليل إلى انقرة اتاحت لى انقره فرصة الابتهاج بمشاهدة منظر هطول الثلج ذات صباح لأول مرة ذلك الشتاء .. ومنظر هطول الثلج لمن يشاهده لأول مرة يثير الدهشة والبهجة فى النفس عندما تتحول الدنيا إلى كمية هائلة من القطن الأبيض تتساقط فى كل اتجاه تراه العين : ومازلت اذكر كلمات موظفى الفندق الذى كنت أقيم فيه وهم يشاهدون رد فعلى لهطول الثلج قائلين Birinci Defa Kar Yagiyor والكلمتان الأوليان معروفتان للناطقين بالعربية برنچى أى الأول ودفعه أى مرة .. أما كلمة قار Kar فتعنى الثلج وأصلها بالعربية القر أى البرد الشديد وكلمة يغيور Yagiyor أى يسقط أو يهطل وكانت أول جملة تعلمتها بالتركية :

لكن كان شتاء انقرة شديد البرودة وتصل درجات الحرارة الى ٣٠ درجة تحت الصفر المئوى احيانا. والمشي على الثلج يستلزم نوعا معينا من الأحذية الثقيلة والتى لا ينفذ منها الماء الى القدمين، وكذلك يستلزم حرصا وحذرا خاصة إذا كان الثلج قد جمد واصبح كالزجاج أو الكريستال الأبيض بدلا من القطن الأبيض، واضطررت الى شراء Galoches جالوشى من المطاط، (او الكاوتشوك) الأسود تلبس فوق الحذاء لمنع التزحلق وتسرب المياه الى داخل الأحذية ويرتديها الناس في البلاد التى يكثر فيها هطول الأمطار والثلوج. وكانت الملابس الشتوية التى تزودت بها من القاهرة شديدة النفع لى حقا فى هذه الشهور. وظل الثلج مجمدا على الأرصفة واركان الشوارع شهور الشتاء ولم يبدأ فى الذوبان الا مع مطلع الربيع حينما بدأ نزول الأمطار بدلا من الثلوج وبدأت أيضا تهب ريح اللودوس Lodos الجنوبية الدافئة .

كان طبيعيا أن أولف مع ملحقين شابين مثلى احدهما عراقى والأخر باكستانى، مجموعة صغيرة دبلوماسية شابة فكنا نخرج سويا فى الأمسية أو فى عطلات نهاية الأسبوع. كان اغلب نشاطنا الاجتماعى ينصب على حضور الاستقبالات الرسمية الدبلوماسية فى السفارات التى كانت – فى مدينة صغيرة مقفولة كانقرة فى ذلك العهد – تتبارى فى إقامتها . فقد كانت وسيلة رجال الدبلوماسية

الوحيدة للتسلية ولجمع الأنباء وتبادل الآراء وإقامة الاتصالات مع المسئولين الاتراك ورجالات المجتمع. كانت انقرة صغيرة والملاهى قليلة ولا تتعدى ثلاثة أو أربعة مطاعم وحلبة سباق الخيل يوم الأحد وعدداً من دور السينما فكانت السفارات تدعو كبار المسئولين الاتراك الذين كانوا يلبون هذه الدعوات مسرورين راضين هم الآخرون، كما كانت السفارات تدعو الدبلوماسيين الأجانب كبارا وصغارا وذلك عكس ما يحدث في العواصم الكبرى اذ لا يدعى فيها صغار الدبلوماسيين إلى غالبية المناسبات. وكانت حياة ثلاثتنا، العراقي والباكستاني وأنا - لاتعدو الغداء احيانا فى مطعم «بابا كاربيج» Baba Karpec وكان يملكه روسى ابيض هاجر الى تركيا هربا من الثورة البلشفية وكان مطعمه قبلة الدبلوماسيين وكبار الاتراك لحفاوته واهتمامه الشخصى بزبائنه وبمستوى الخدمة والطعام الجيد أما العشاء فكان أحيانا قليلة فى مطعم انيق على انغام الموسيقى الراقصة اسمه بافيون سورايا -Soraya Pavilla nu صاحبه روسى ابيض آخر اسمه سيرجى واسمى نفسه سورايا اما فى أيام الأحاد فكنا نخرج للنزهة وممارسة رياضة السير لمسافات طويلة فكنا نصعد طريق تشانقايا وهو طريق واسع أنيق تحفه السفارات من الجانبين ويصعد هضبة تشانقايا إلى أعلاها حيث يوجد قصر رئاسة الجمهورية التركية،. وقريبا من القمة

ينحرف الطريق يمينا الى حى جديد اسمه كافاكليديرى ولعله يعنى شجر الصفصاف وبه مطعم شـهير بتورتة الجـوز اسمه مطعم guven وكانت هاتان الهضبتان من الارتفاع عن المدينة بحيث يجمد الثلج على ارضها كثيرا فكان الاتراك والأجانب يمارسون رياضة التزحلق على الجليد إما فى كافا كليديرى هذه وإما قريبا من انقرة على سفوح جبل التفاح Elma Dag وكانت انقرة الحديثة تمتد من اسفل القرية القديمة أعلى الهضبة فى اتجاه غربى جنوبى إلى حيث تمتد سهول فسيحة نمت فيها احياء جديدة مثل المنازل ذات الحدائق بهجة (حديقة) لى ايفلر (منازل) Bahcele Eveler بهجيلى ايفلار وكانت تقع فى اطراف المدينة ومن بعدها عزبة اتاتورك مباشرة Ceflik وحديقة الحيوانات الصغيرة.. وكانت من النزهات القليلة حول أنقرة .. اما الآن فاصبحت فى وسط المدينة! اما انقرة الحديثة ذاتها فكان يقطعها طولا شريان واحد طويل متسـع هـو بوليفـار اتاتورك Ataturk Bulvari يبدأ من ميدان اولوس Ulus أى الأمة أو الشعب قرب السوق القديمة المسماة صمام بازارى (سوق القش) ويتجه بولڤار اتاتورك غربا وجنوبا مجتازا كل المدينة الجديدة إلى طرفها الآخر وينتهى فى حى الـوزارات Bakan lekler حيـث يـبدأ صـعوده الى أعلـى طـريق

تشانقايا . ويقطع بولفار اتاتورك شريانان هامان احدهما يؤدى الى حلبة سباق الخيل ومحطة قطار انقرة مرورا بفندق انقرة بالاس وكان أكبر الفنادق وافخمها ، والآخر من وسط المدينة فى حى الهلال الأحمر Kizil Ag ويتجه الى حى المنازل ذات الحدائق وعزبة اتاتورك وحديقة الحيوانات .. اما بولفار اتاتورك فهو عصب الحياة فى انقرة وعليه تقع أهم المبانى والأحياء، بدءا من ميدان ألوس (الشعب) ومطعم بابا كاريج والبنك المركزى، الى الحديقة العامة حديقة الشباب Genslik Park ذات البحيرة الصناعية والتماثيل مرورا بدار أوبرا أنقرة ووزارة الخارجية التركية وكانت قديما تسمى باسم Khariceye Nizaretiنظارة الخارجية ولكن بعد موجة التخلص من الكلمات العربية وجدوا مرادفات طورانية لها فأصبحت Desisleri Bakanlikثم مرورا بحى الهلال الأحمر السكنى وعليه يقع ايضا نادى (ضباط) الجيش Urdu Eviوجامعة انقرة وعليها كلمات اتاتورك الشهيرة (حياتا إن حقيقى مرشد علم در: العلم هو المرشد الحقيقى فى الحياة) ..

ولم تكن أعلى العمارات السكنية فى انقرة تعلو أكثر من أربعة ادوار، فى حين كانت أغلب المنازل السكنية على هيئة فيلات و «بانجالو» أو عمارات صغيرة من دورين فقط.. لكن كانت كلها تتميز بحسن التدفئة بالنسبة لشدة البرودة شتاء ..

وإذ أنكر هذه الأسماء مازال رنين أصوات المنادين وسائقى التاكسى فى أذنى وبخاصة تاكسيات الجملة Dolmus (ضولموش: التى لا تبدأ التجول إلا بعد أن تمتلىء بالركاب مثل الضولمة) وهم ينادون معلنين اتجاه تاكسياتهم اما فى اتجاه ميدان اولوس ! Ulus Ulus! أو فى الاتجاه العكس إلى الوزارات .Bakanlik, Bakanlik

وكثيرا ماكنت استقل هذه التاكسيات الضولموش مع صديقى الكبير المرحوم على شرف الدين مترجم السفارة (المصرى) والذى عاش فى تركيا كل حياته العملية إلى أن وافته المنية فى أنقرة وإليه أدين بكثير من الفضل فى تلقينى أول دروس فى التركية وفى مصاحبتى الى مطعم طوران التركى على الغداء أحيانا للتعرف على ألوان الطعام التركية .. كنا نركب سويا سيارات الضولموش لتوفرها بكثرة كما كانت سبيلى إلى زيادة التعرف باخلاق الاتراك - أما عندما كنا نستقل تاكسيا وحدنا فكان المرحوم على شرف الدين يردد دائما لسائقى التاكسى -Hadi Yavrum Turan lukanta sime, Lutfel!

هيا يابنى الى لوكاندة طوران، لطفا (من فضلك) فكان على شرف الدين يكبرنى بحوالى ثلاثين عاما أو يزيد.. وإلى جانب ماتعلمته منه من كلمات وجمل تركية كانت معلوماته عن المجتمع التركى والسياسة التركية بحراً ومعينا لا ينفد..

وكان عملي في السفارة كثير التفرع وقد شمل سكرتارية السيد السفير وأعمال الرمز وتقارير صحفية إلى جانب المسئولية عن حسابات السفارة وشئونها الادارية والكتابة على الآلة العربية لبعض التقارير السرية.. ولم أكن بمستطيع القيام بها كلها دون معونة على شرف الدين في شئون الحسابات والشئون المالية خاصة .

كان الملحق العراقي والملحق الباكستاني وأنا نحضر احيانا سباق الخيل أيام الأحاد، وكانت هناك مقصورة خاصة بالدبلوماسيين مع كبار رجال الدولة الاتراك وكان الدبلوماسيون يقبلون على الذهاب من أجل تبادل بعض الانباء أو التعليقات والاجتماع بكبار الاتراك أو لمجرد التسلية البريئة في بلد قليلة المباهج الأخرى أما من راهن على حصان وخسر الرهان فكانت ادارة السباق تعمد إلى الترفيه عنه وحفز همته باذاعة اغنية بعينها تتقاذفها الميكروفونات المكبرة وكانت الأغنية تقول لمن خسر الرهان «هناك احتمال آخر!» Bir Ihtimal Daha var

كنت شابا يافعا في الثالثة والعشرين من عمري فسرعان ما مللت هذه الحياة.. ولعلي أشكر انقرة إذ جعلتني احزم امري وأقرر سرعة الزواج فقفلت راجعا الى مصر في أجازة قصيرة بعد سنة من وصولي إلى أنقرة حيث تمت خطوبتي الى زوجتي الحالية ثم عدت الى مصر بعد شهور قليلة لاتمام نصف ديني وعدنا سويا الى

استانبول فانقرة بالطائرة هذه المرة وذلك في مارس ١٩٥٠ – وكانت الطائرة التركية الصغيرة من مطار استانبول الى مطار انقرة تنتفض من شدة الرياح انتفاض الريشة الخفيفة فى مهب الريح العاتية لكن زوجتى وان كانت صغيرة الا أنها كانت ومازالت شجاعة قوية واشهد لها بالفضل فقد ظلت منذ ذلك الحين نعم الصديق والرفيق ونعم العون طيلة مدة خدمتى الدبلوماسية أى لنوفمبر ١٩٨٦ حتى كتابة هذه السطور. وهناك قول مأثور يردده الدبلوماسيون ومؤرخو الدبلوماسية بمعنى أن أفضل دبلوماسى هو المتزوج لكن دون أولاد.. وقد أراد الله لنا أن نظل فى زمرة افضل الدبلوماسيين!!

وفى جمرك مطار استانبول وقفت زوجتى تنتظر اجراءات الجمرك.. وفى حين كان موظف الجمرك ينادى قائلا «بايان محمود – بايان محمود» لم نلتفت إلى أنه كان يوجه الكلام إلى زوجتى (بايان: سيدة أى السيدة حرم السيد/ محمود/ (سمير احمد) لم نلتفت إلى أنه يحادثنا الا بعد أن اعاد الكرة عدة مرات !!

واللغة التركية الحديثة تطلق لقب Bay [1] باى أى السيد على الذكور و Bayan أى السيدة على الاناث ومازال الاتراك يوجهون

---

(١) كان ملك تونس يلقب بالباى ولعل هذا كان من تاثير الاتراك فقد وصلوا إلى تونس والجزائر!

الكلام الى الرجال رغم ذلك بإضافة كلمة بيه مثل Zeki Bey من باب التأدب رغم إلغاء الألقاب أما لقبPasa باشا ويكتبونه هكذا فى التركية الحديثة فلا يستعمل حاليا والغى تماما لكن الجميع يلقبون ببيه Bey تأدبا حتى البواب كنا نناديه باسم Zeki Beyلكن إذا ارادوا فى احاديثهم اظهار المزيد من الاحترام لأحد فلا بد من تسميته باسم Bey Effendi بالنسبة للذكور وباسم هانم افندى للاناث . Hanim Effendi††

وهكذا فقد كانت الطاهية الجديدة التى استقدمتها بعد وصول زوجتى لانقرة كانت تسمى باسم هاجر هانم (مع تعطيش الجيم) Hacir Hanem لكن كـانت هى تنـادى زوجتى قائله Hanem Effendiمن باب المزيد من الاحترام ..

كثيرا ما كنت اخرج أنا وزوجتى للنزهة على الأقدام فى شارع بولفار اتاتورك فى حى الهلال الأحمر سالف الذكر وكان محط المجتمع التركى الذى كان يخرج للنزهة فى الأمسية الصيفية أو بعد ظهر أيام الشتاء المشمسة قليلة البرد. وكان افتتاح دار سينما جديدة كبيرة مدار حديث المجتمع لمدة طويلة وكانوا يلقبونها باسم Buyuk sinema لسينما الكبيرة.. دهشنا كثيرا زوجتى وأنا عندما وجدنا بعض السيدات التركيات العابرات - دون أى معرفة سابقة - يحدقن كثيرا فى عينى زوجتى ويتهامسن فيما بينهن بصوت مسموع لنا تماما قائلينMisirla «مصرية !! وهكذا يبدو أن

الاتراك لهم أو لهن القدرة على التعرف على المصريات من عيونهن !
وقد تكرر ذلك كثيرا اثناء اقامتنا اللاحقة فى انقرة واستانبول
فهنيئا لبنات النيل !

كان وصول زوجتى الى تركيا مما سهّل علىّ كثيرا توثيق الصلات الاجتماعية مع العائلات الدبلوماسية فكنا نخرج أيام الآحاد معهم إلى القناطر المقامة على بحيرة صناعية شرق انقرة تمدها بمياه الشرب. أو الى عزبة اتاتورك وأحيانا قليلة إلى سباق الخيل. وقد توثقت حينئذ علاقتنا مع سفارات سوريا والسعودية والعراق وباكستان بل وفرنسا وبولنده وغيرها. وقد عرفت زوجتى بين سيدات السفارة الفرنسية فى انقرة باسم «صغيرة السفارة المصرية» La Petite de l'ambassade d' Egypt لصغر سنها وحجمها وقصر مدة زواجها !

وذات مرة ذهبنا مع البعض لمشاهدة أوبرا لموزارت : زواج فيجاور فى أوبرا انقرة ولكن وجدناها كلها مترجمة إلى اللغة التركية مع استبقاء الألحان طبعا كما هى . وكان غريبا على الأذن أن تسمع الغناء التركى .

فيجاور هنا Figaro Burada فيجاور هناك Figaro urada هناك ! بدلا من النص الأصلى بالايطالية وظلت هذه الواقعة محل تفكه بعض الدبلوماسيين مدة طويلة لكننى شخصيا لست ألوم

الاتراك لمحاولة إعادة كل شيء إلى أصله التركي أو الطوراني القديم إذا كان هذا يرضي شـخصيتهم وكبريـاء هم.

لكني أعود فأردد انه مازال هناك الآلاف من الكلمات العربية في التركية الحديثة رغم مرور ستين عاما على بدء حملة اتاتورك سالفة الذكر. وإن كان الاتراك يستعملون كثيرا من الكلمات العربية في معان مخالفة لمعناها الأصلي مثال ذلك Dikkat دقة بمعنى «انتبه ! انتبه ! وكملة تمييز Temiz بمعنى نظيف وكلمة فوق العادة بمعنى عظيم جدا وكلمة رجاء ادريم أي اتمنى أو ارجو.. وكلمة بهجة بمعنى حديقة، وكلمة حصار بمعنى قلعة وهكذا .

لم تمتد إقامتنا في تركيا بعد زواجي ، ففي نهاية صيف ١٩٥٠ فوجئت بتعييني ملحقا في سفارة مصر في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية وهكذا أمضت زوجتي جزءا من شتاء ١٩٥٠ معي في انقرة ثم صيف ١٩٥٠ في استانبول حيث استأجرنا شقة مفروشة لمدة الصيف في جي تقسيم أمام فندق Park† oteli في شارع أياس باشا Eyas pasa† – ومن ثم تأهبنا للرحيل إلى القاهرة حيث انتدبتني الوزارة لمهمة رسمية مدة شهرين قبل التحاقي بعملي الجديد في واشنطن . وما من شك أن فرحتنا كانت كبيرة بالنقل إلى واشنطن سنة ١٩٥٠ فمن الواضح أنها كانت تمثل بالنسبة إليّ مركزا أكثر أهمية من أنقرة سياسيا وفنيا ..

والولايات المتحدة كانت ومازالت قوة جذب شديدة للسائح والدبلوماسي على حد سواء .

وقد أتيحت لي في صيف ١٩٦٤ فرصة العودة لزيارة أنقرة زيارة عابرة في اثناء تأديتي لمهمة رسمية للوزارة وكم كانت فرحتي شديدة بالعودة إلى رؤية مواطن اقدامي القديمة الشابة ورغم احساسي وبقية الدبلوماسيين بالضيق لصغر حجم انقرة سنة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ وقلة أسباب اللهو أو الترفيه بها فقد كنت سعيدا برؤيتها عام ١٩٦٤، وإذا بها الآن عاصمة كبيرة ممتدة تعدادها فاق المليون نسمة وقامت بها العمارات والمصانع وامتد العمران غربا وجنوبا حتى أصبحت حدود المدينة القديمة في وسط العاصمة. كذلك وجدت تركيا وقد قطعت شوطا بل اشواطا كثيرة نحو التصنيع واصبحت تنتج كثيرا من الصناعات الثقيلة والاستهلاكية الراقية. ومازالت تركيا من الدول التي تتميز بجذب السائحين الأجانب واشتدت قوة جذبها بفضل حسن التنظيم ودقة أساليب الإدارة ورخص أسعارها عن أسعار البلاد الأوروبية مع توافر الشواطىء الجميلة وعدد كبير من الآثار التاريخية والإغريقية والرومانية والإسلامية والمسيحية، وان ننسى لاننسى تفوق صناعات الملابس والجلود والفضة والكريستال ورخص أسعارها كذلك جودة الأطعمة ونظافة الفنادق والمطاعم ووفرة خيرات واطايب البحار خاصة في

استانبول.. وأخيرا وليس أخرا فإن تركيا حليف كبير للولايات المتحدة والدول الغربية وعضو فى حلف الأطلسى (الناتو) كما أنها تتصل جغرافيا اتصالا مباشرا بشرق أوروبا مما يتيح للسائحين الاوروبيين فرصة زيارتها بالسيارات.. وهو مايفعله ايضا أكثر من ٤ ملايين تركى يعملون فى المانيا وبقية دول اوروبا الغربية ويزورون بلادهم سنويا فى اجازاتهم السنوية قادمين بسياراتهم عبر شرق اوروبا ..

★ ★ ★

وقبل أن اختتم ذكرياتى عن تركيا أرى من الطريف أن أذكر للقارىء انه طالما راودتنى اثناء اقامتى فى تركيا - فكرة عقد المقارنة ما بين تركيا واسبانيا بسبب علاقتهما القديمة والمتصلة بالعالم العربى.. انى أرى نتيجة هذه المقارنة من الطرافة بل من الأهمية بما يكفى لاقناعى بعرضها على القارئ!

فجغرافية كل من البلدين متشابهة : كتلة قارية شديدة الاتساع، شديدة الوعورة الجبلية ويكادان يقعان على خط عرض واحد مما يجعل مناخهما متشابها الى حد كبير وكذلك محاصيلهما ومنتجاتهما الزراعية.. وهما لهذا يتميزان بشتاء شديد البرودة وبصيف طويل حار داخل هذه الكتلة القارية ووسطها حيث تقع عاصمة كل منهما.. وجغرافيا أيضا أرى أن وضعهما من الطرافة والشبه بمكان. فتركيا

تقع شمال شرقى البحر الأبيض وأسبانيا تقع فى شماله الغربى وتركيا تتحكم فى المضايق والمدخلين الى البوسفور والبحر الأبيض للقادم من البحر الأسود، وأسبانيا تتحكم فى مدخل البحر الأبيض للقادم من المحيط الأطلسى (مضيق جبل طارق) .

وأما تاريخيا فقد وقع الشعبان التركمانى (أصل الاتراك فى وسط آسيا) والأسبان تحت الحكم العربى فى ظل الامبراطورية العربية الى ان تحللت وتفككت، فدارت الدائرة ووقعت أقطار من الأمة العربية بعد ذلك تحت حكم الاتراك فى ظل الامبراطورية العثمانية واجزاء من الأمة العربية والاسلامية تحت حكم الأسبان (فى المغرب والساقية الحمراء وموريتانيا).. وقد استعار الاتراك والأسبان آلاف الكلمات العربية فى لغتهم كما تأثر كل منهما أيضا بالحضارة العربية التى كانت أكثر سموا وتقدما .. وحتى بعد أن زالت سيطرة الامبراطورية العربية واضمحل نفوذها السياسى ظل تأثيرها الحضارى منتشرا عن طريق نفوذ الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الاسبانية فقد ظل كل منهما لمدة طويلة يمثل آخر معاقل وحصون الحضارة والثقافة العربية والإسلامية على حدود أوروبا الجنوبية الشرقية (حدود تركيا مع أوروبا) وحدود أوروبا الجنوبية الغربية (حدود اسبانيا مع فرنسا) ومن هاتين المنطقتين تشربت مدن أوروبا وجامعاتها بحصيلة حضارة وثقافة وعلوم

الامبراطورية العربية الإسلامية . ومازالت تركيا واسبانيا تمثلان آخر معاقل أو حصون امتداد الحضارة العربية والإسلامية على حدود أوروبا للآن ..

ولا يقف التشابه وأوجه المفارقات عند هذا الحد . فبعد أن استعاد الأسبان الكاثوليك مملكتهم واسقطوا آخر معاقل الدولة العربية في أسبانيا أى فى غرناطة سنة ١٤٩٣ اقاموا محاكم التفتيش Inquisition Courts واضطهدوا المسلمين واليهود في اسبانيا وخيروهم ما بين التحول إلى الكاثوليكية أو الهلاك حرقا على يد محاكم التفتيش أو الهرب إلى شمال افريقيا .. وقد تحول فعلا كثير من المسلمين واليهود فى اسبانيا إلى الكاثوليكية

وهم إلى يومنا هذا اسلاف كثيرين من الاسبان الكاثوليك الحاليين .. وفى مقابل ذلك ، فإن الاتراك الذين اخذوا الاسلام عن العرب ضمن ما اخذوا اظهروا هم الآخرون ألوانا من التعصب الدينى والقومى تمثلت فى مذابح الأرمن أحيانا وفى معاملتهم للأرمن والمسيحيين بصفة عامة .. كما خيروا المسيحيين واليهود فى امبراطوريتهم ما بين التحول عن دينهم الأصلى إلى الإسلام (ومن فعل ذلك ظل الاتراك يسمونهم المتحولين أو المتغيرين أو المرتدين عن دينهم "الدونمه" (Dönme) أو تحمل الكثير من ألوان التفرقة ومازال الاتراك ليومنا هذا يلقبون من ليس بمسلم Qavur أى كافر !

ومع ذلك نجد أن الاسبان الكاثوليك اليوم هم الذين يعترفون ويشيدون بفضل الحضارة والثقافة العربية والإسلامية على اسبانيا .. فى حين يجحد الاتراك المسلمون فضل الحضارة والثقافة العربية فى تحولهم (اى الاتراك) من رعاة اسيويين وغزاة رحل إلى ما صاروا إليه من ثراء ونعمة وحضارة فى استانبول .. وفى حين يؤلف الاسبان المعاجم والقواميس الحاوية للكلمات الاسبانية التى من أصل عربى ، لا تجد شبيها لذلك أو محاولة من هذا القبيل بين الاتراك اليوم .. وفى حين رفضت اسبانيا (واليونان) الاعتراف باسرائيل منذ انشائها سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٨٦ (وفعلت اسبانيا ذلك سنة ١٩٨٦ مضطرة بسبب اصرار دول السوق الأوروبية على ذلك قبل السماح بقبول عضوية اسبانيا) كانت تركيا من اوائل الدول التى اعترفت باسرائيل منذ اقامتها . وفى حين قبلت تركيا الاشتراك فى لجنة المصالحة والتوفيق ما بين العرب واسرائيل سنة ١٩٤٩ تحت ظل الأمم المتحدة ، كان مندوب اسبانيا فى الأم المتحدة سنة ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة أكبر المدافعين عن موقف الدول العربية فقد ألقى فى الأمم المتحدة خطبة بليغة مؤثرة وشرح فيها امجاد الأمة العربية وفضلها على الحضارة الغربية ومدى تمسك العرب بعزتهم وكرامتهم وأنه لهذا يجب على العالم أن يفهم مواقف الدول العربية من اسرائيل وأن يقدر دواعيها وأن يعمل على ازالة أسبابها !!

لابد أن الفارق الزمنى الطويل ما بين نهاية "الاحتكاك أو المواجهة" بين العرب واسبانيا سنة ١٤٩٣ ميلادية وبين "الثورة العربية" فى سوريا وفلسطين سنة ١٩١٦ للمطالبة بالاستقلال عن تركيا كان له تأثيره على تهدئة شعور الاسبان نحو العرب واعطاء الاسبان المنظور Perspective الصحيح والهادئ تجاه الأمة العربية ، فى حين أن شعور الاتراك - ومازال حيا لدى الكثيرين - تجاه الثورة العربية وتقلص نفوذ تركيا على الدول العربية منذ الحرب العالمية الأولى مازال بعيدا عن الوصول إلى ذلك المنظور الهادئ والصحيح تجاه العرب ..

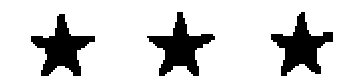
فقد ظهرت سياسة تركيا منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٨ قليلة التأثر بأسباب ودواعى مواقف الدول العربية من اسرائيل والولايات المتحدة ورفض الدول العربية سياسة الاحلاف الغربية الدفاعية ، عكس ما فعلته تركيا من المبادرة بالاعتراف باسرائيل فور هزيمة العرب سنة ٤٨ ثم اشتراكها بقوات تركية إلى جانب القوات الأمريكية فى الحرب الكورية سنة ٥٠ ثم دخولها حليفة مع واشنطن وايران فى شتى مشروعات الولايات المتحدة العسكرية فى الشرق الأوسط "لاحتواء النفوذ الروسى" .. والتاريخ يجب أن يذكر المرء أن أهم دواعى قيام الوحدة - متعجلة وغير تامة النضج - ما بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ كان تحرش تركيا بسوريا وتحريك جيوشها على

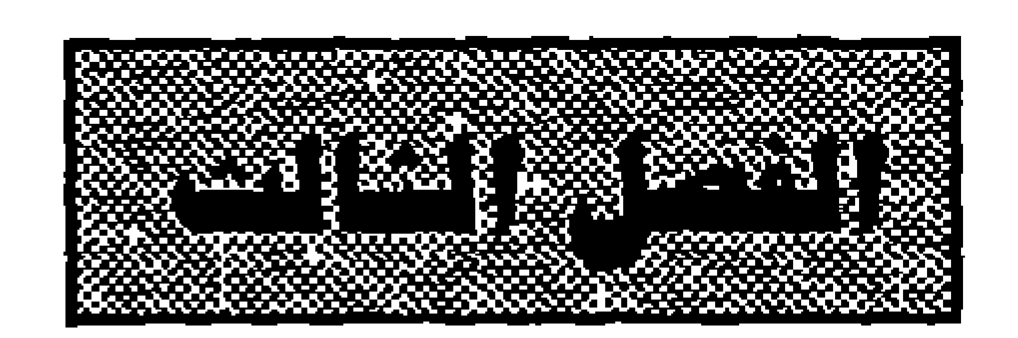
حدودها (وقد سبق لتركيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أن اقتطعت لواء الاسكندرونة عن سوريا دون رضاء الاخيرة واسمته ولاية هاتاى حاليا) مما دفع بالساسة والعسكريين السوريين إلى الالحاح على المرحوم الرئيس عبد الناصر باعلان قيام الوحدة فورا .. ومنذ ذلك الحين زادت حدة العلاقات بين مصر عبد الناصر وتركيا .. ولم تتحسن هذه العلاقات إلا منذ سنوات قليلة بدءا من الثمانينات بعد بدء المرحوم الرئيس السادات لسياسة التقارب مع الولايات المتحدة ثم توطدت العلاقات بين مصر وتركيا بعد تبادل زيارات الرئيس حسنى مبارك ورئيس جمهورية تركيا ومن قبلها زيارة رئيس وزراء تركيا لمصر ردا على زيارة رئيس وزراء مصر لانقرة ..

حقا ان كلا من تركيا واسبانيا شديد الرغبة والحرص على الاندماج الكلى والتام فى مجتمع أوروبا الغربية ومؤسساتها الدفاعية والاقتصادية والاجتماعية وبالاختصار التشبه تماما بدول اوروبا الغربية والذوبان فيها .. لكن لابد من تركيز الضوء على اكبر حقيقة فى سياسة تركيا الخارجية عبر التاريخ وهى العداء لروسيا والخوف من سيطرتها أو امتداد نفوذها .. وكل خطر آخر فيما عدا ذلك بالنسبة لتركيا له مرتبة ثانوية ومن ثم فان سياسة تركيا العربية عكست اهتمامها الأول سالف الذكر ومحاولاتها المستمرة لارضاء امريكا وخاصة منذ ازدياد قوة ونفوذ الاتحاد السوفييتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ..

حقيقة أخرى هامة .. ألا وهى انه مع زوال تأثير الانفصال الدموى العنيف الذى حدث سنة ١٤٩٢ ما بين اسبانيا الكاثوليكية والأمة العربية ، مع زوال تأثير هذه الصدمة Trauma على مر القرون لم يعد هناك ما يثقل كاهل العلاقات الاسبانية العربية فى التاريخ الحديث ، اللهم إلا ربما احتفاظ اسبانيا إلى اليوم بجيبين Enclaves هما مدينتا سوته Ceuta ومليله Melilla فى شمال المغرب كمدينتين اسبانيتين تسكنهما اغلبية اسبانية (مائة ألف نسمة) مع اقلية مغربية ، هى بقايا "الريف الاسبانى" وامبراطورية اسبانيا القديمة فى موريتانيا والساقية الحمراء والصحراء الاسبانية وهى الامبراطورية التى سارعت اسبانيا بالتخلى عنها بمجرد ان احست برياح التغيير ورياح الاستقلال تهب فوق أفريقيا فكانت من اوائل الدول الغربية التى تمشت مع التاريخ ولم تحاول وقف تقدمه أو اعاقته . ورغم استمرار مشكلتى سوته ومليلة فان كلا من اسبانيا والمغرب حريص على استمرار علاقات الصداقة والتعاون والسلام فيما بينهما حتى ان المغاربة فى سعيهم لتعلم اللغات الاجنبية يضعون اللغة الاسبانية فى المقام الثانى بعد الفرنسية مباشرة وكثير من المغاربة يتكلم الاسبانية كاحد ابنائها ويقضون اجازاتهم فى اسبانيا التى لا يفصلها عن

المغرب والعالم العربى سوى مضيق جبل طارق (٣٠ كيلو مترا) والذى لا تنقطع فيه حركة العبارات Ferries التى تصل ما بين طنجة فى شمال المغرب ومدينة الجزيرة Algeciras فى اسبانيا فى أقل من ساعة ونصف ..





بين العالم القديم .. والعالم الجديد رحلة واحدة وعشرون يوما فوق البحر

ما ان انهيت مهمتى فى ديوان الوزارة حتى بدأنا استعداداتنا للسفر إلى واشنطن . كان السفر من القاهرة إلى أمريكا بالطائرة سنة ١٩٥١ مهمة شاقة تستغرق حوالى ٢٤ ساعة طيرانا ففضلنا الذهاب بطريق البحر خاصة بالنسبة لكثرة عدد حقائبنا وأمتعتنا فى السفرة الأولى . ولحسن الحظ كانت هناك سنة ١٩٥١ شركة بواخر أمريكية اسمها "الآسات الأربعة Four Aces تسيّر هذه البواخر الأربع على خط يربط مباشرة بين موانىء البحر الأبيض ومنها الاسكندرية وما بين بوستون ونيويورك . وكانت هذه الآسات الأربعة تحمل اسماء متشابهة : اكسكوردا – اكستر – أكسكامبيون – اكسكالبير وكانت تعمل اثناء الحرب العالمية الثانية كناقلات للجنود والعتاد الحربى ثم جددت وتحولت بعد الحرب إلى نقل

الركاب والبضائع . لم تكن من البواخر الضخمة المسماة بالملكات The Queens مثل كوين مارى وكوين اليزابث ونورماندى الشهيرة ، لكنها كانت متوسطة الحجم تتمتع بسمعة طيبة كبواخر ثابتة مريحة تقاوم اهتزازات البحر العنيفة . وكانت مقصورتنا على الاكسكوردا نظيفة مريحة دون مغالاة فى الأناقة فالأمريكيون حسبما كنت أعلم قوم عمليون تعنيهم النظافة والكفاءة أكثر من الأناقة والتبرج .. هكذا كنت أظن على الأقل .. لكن ما رأيته بعد ذلك من اناقة وتبرج السيارات الأمريكية بالنسبة للسيارات الأوروبية واليابانية كذب ظنى ..

وفى الأيام والسنوات القليلة التالية للحرب الثانية كانت الولايات المتحدة شديدة التدقيق فى منح تأشيرات الدخول إليها ، حتى التأشيرات الدبلوماسية ، فكانت تستلزم من طلاب التأشيرات تقديم شهادات طبية بالخلو من الرمد والأمراض الصدرية !! كانت الولايات المتحدة بعد الحرب مباشرة فى بداية علاقتها الحديثة مع العالم القديم ، فكانت لا تعلم عنه الكثير .. كما كانت تخشى انتقال الأوبئة إليها من ذلك العالم القديم المجهول .. أما الآن ، فقد لاحظت فى سفرياتى الكثيرة اللاحقة إلى الولايات المتحدة انها لم تعد تتطلب من طالبى الدخول إليها تقديم تلك الشهادات الطبية .. بل لقد دارت الدائرة دورة كاملة وأصبح العالم القديم ، المحافظ أو

المتأخر هو الذى يخشى انتقال أمراض المدنية الحديثة الفتاكة ومنها مرض نقص المناعة Aids إليه من العالم الجديد ! وعلى رأسه أمريكا !!

وهكذا بدأنا رحلتنا اذن من الاسكندرية إلى نيويورك على الباخرة اكسكوردا Exchorda فى مارس ١٩٥١ .. وهكذا بدأنا ، زوجتى وأنا ، رحلة العمر سويا ، رحلة التنقل ما بين اركان العالم المختلفة ، تلك الرحلة التى سوف تأخذنا إلى نهاية عام ١٩٨٦ فى الخدمة الدبلوماسية العاملة ثم ما بقى من العمر بقوة الدفع وبحكم ما اعتدناه طوال العمر من لذة السفر والتنقل .. ولدفع شعور الملل الذى ينتاب الدبلوماسى إذا ما بقينا فى مكان واحد لفترة طويلة ..

ولما كانت تلك البواخر الأمريكية تعمل فى نقل الركاب والبضائع سويا فقد كانت تتوقف بنا بعد الاسكندرية فى كل من بيريه (اثينا) ثم مسينا (صقلية) ثم نابولى وليجهورن ثم جنوا فى ايطاليا ثم مرسيليا فى فرنسا ، ثم برشلونة فى اسبانيا ثم جبل طارق ثم بوستون فنيويورك !! وقدروا لنا ان الرحلة سوف تستغرق ما بين الثمانية عشر إلى العشرين يوما .. لم نمانع فى ذلك بالطبع بل رحبنا بفرصة التعرف على بعض ما لم نكن نعرفه من مدن العالم القديم قبل التعرف على العالم الجديد .. وكان كل أملنا أن يترفق بنا البحر فى فصل الشتاء هذا ، وان يكون عبور المحيط الأطلسى

في شهر مارس أى فى عز موسم الأنواء والاعاصير غير قاس ، وكانت هذه أول مرة نركب فيها المحيط الأطلسي وفى عز الشتاء فكنا متخوفين .

فى مطلع اليوم الثالث من بدء رحلتنا من الاسكندرية بدت لنا معالم ميناء بيريه ومدينة اثينا من بعد وبخاصة أن جزءا من اثينا مقام على تلال مرتفعة يشرف عليها معبد الاكروبوليس الشهير ، وكانت هذه أول تجاربنا فى الرحلات الجماعية التى تنظمها السفن بالاتفاق مع شركات السياحة لنزهة الركاب فى الموانىء التى ترسو فيها السفن .. ومن ثم اشتركنا فى الرحلة التى نظمتها شركة اميركان اكسبريس الامريكية لركاب الاكسكوردا لنقلنا من بيريه إلى اثينا مقابل مبلغ معين من الدولارات برفقة مرشد لكل حافلة مهمته شرح معالم وآثار اثينا .. كان هذا أول عهدنا بتذوق طعم اليونان . كانت الرحلة من بيريه إلى اثينا قرابة عشرين كيلو مترا .. وكان انطباعنا لأول وهلة عن ذلك الجزء من اليونان انها أقل خضرة من ايطاليا وفرنسا بل حتى من ضواحى استانبول .. وكانت بيريه عبارة عن ميناء صغير غير مكتمل النمو .. أما اثينا فقد كانت تحمل الكثير مما يذكر المصريين بالأسكندرية قبل أن يغادرها سكانها اليونانيون والايطاليون . وقد تضمنت جولتنا فى اثينا التوقف فى معبد الاكروبوليس الشهير والذى يعتبر واحدا من اعظم الاثار العالمية ويطل على اثينا من ربوة رملية صخرية ارتفاعها قد

يقرب من المائة متر تقريبا .. كما توقفنا فى متحف اثينا الشهير الذى يضم اكبر مجموعة من الاثار الاغريقية بطبيعة الحال وكمية لا بأس بها من الاثار الرومانية أيضا بحكم الفتح الرومانى لليونان .. وبعض الآثار المصرية القديمة أيضا ..

وقد قدر لنا أنا وزوجتى العودة إلى زيارة بيريه واثينا وما حولهما فى منتصف السبعينات . وقد لاحظنا التقدم الحضارى السريع الذى حققته اليونان منذ زيارتنا الأولى .. اصبحت بيريه مدينة كبيرة وميناء حديثا متقدما . أما اثينا وضواحيها فقد نالها الكثير من مظاهر الرخاء المادى والرعاية السياحية .. لكن مازالت تحمل بالنسبة للمصريين طعما خاصا يذكرنا بالاسكندرية ايام عزها وبالعلاقات الوطيدة التاريخية والانسانية والحضارية ما بين المصريين واليونانيين .. مازلت تجد فى اثينا السميد أو السميسط الفاخر المستدير ذا السمسم ، فضلا عن افضل انواع الحلاوة الطحينية. والجبن الرومى الكشكفال والبسطرمة وأنواع الفاكهة الجافة المحببة إلى المصريين فضلا عن القهوة الشرقية والحلويات الشرقية واطباق المطبخ التركى أو الشرقى . ومازال الكثير من اليونانيين يستديرون إليك فجأة فى الشارع إذا ما استمعوا إليك تتكلم العربية ويحادثونك بلهجة مصرية يونانية معروفة لنا جميعا ..

لكن من أجمل ما يمكن للمرء زيارته فى اليونان هو الجزر الصغيرة اليونانية الكثيرة المتناثرة ما بين اليونان وقبرص وتركيا ..

فهى قطع من اللؤلؤ الأبيض السابحة فى بحار زرقاء شديدة الزرقة.. كل منازلها بيضاء بل شديدة البياض (يعاد طلاؤها كل عام بالجير الأبيض) ذات نوافذ (خشبية) زرقاء أو صفراء فاتحة اللون تعلو ربا خضراء مرتفعة تطل على البحر الأبيض .. جمالها ينحصر فى الطبيعة الهادئة المريحة والتى لم تغيرها أو تطمسها يد الحضارة أو المدنية السريعة الهوجاء بعد وان كانت رياح التغيير قادمة .. ومازلت تجد المقاهى الغاصة باليونانيين والسياح يرشفون القهوة (اليونانى وليس التركى فأهل اليونان يغضبون كثيرا إذا اسميتها قهوة تركى) أو الأوزو أو الرتسينا فى استرخاء أو يلعبون الطاولة وتجاهل تام لمضى الوقت .. فالوقت قد نسى أو تناسى جزر اليونان أو بالاحرى أن أهل الجزر اليونانية تناسوا الوقت ولا يحفلون به وإنما يجيدون فن الاستمتاع والاسترخاء والرقص والغناء. ومن منا لا يذكر زوربا اليونانى ؟! ويمتاز الشعب اليونانى بصفة عامة بأنه شعب محب للحياة .. وارتياد المقاهى المفتوحة من وسائله للاسترخاء والاستمتاع ويمكن للقاصد اثينا أن يسعده الحظ بمرور سفينته قريبا من احدى تلك الجزر .. كما ان هناك معديات أو سفناً يونانية كثيرة تنظم رحلات سياحية من بيريه إلى بعض الجزر اليونانية القريبة والعودة إلى اثينا فى نهاية النهار .. لكن واحدة من اجمل تلك الجزر تبعد عن اليونان كثيرا بل هى قريبة جدا إلى تركيا واقصد بها جزيرة رودس Rodes .. وبها آثار قديمة من عهد الصليبيين وبلاجات دافئة رائعة ..

وقدر لنا ذات مرة اجتياز قناة كورينث بباخرة سياحية وكانت من أجمل الرحلات السياحية حقا .. فإن قناة كورينث أكثر ضيقا من قناة السويس وتحف بها جبال صخرية عالية تتيح منظرا فريدا أخاذا ..

بعد التوقف ٢٤ ساعة فى بيريه استأنفنا رحلتنا إلى مسينا فى صقلية .. ومن هناك نظمت الباخرة الاكسكوردا رحلة إلى بالبرمو عاصمة صقلية وأخرى إلى تاورمينا . وتاورمينا هذه يصعب وصفها فهى تركيبة فريدة وصعبة Complex تتضمن البحر والبلاجات وميناء صغيراً ثم الجبل ويعلوها كلها مدينة صغيرة مقامة فوق هامة الجبل وفى أعلى المدينة «توجد تركيبة سياحية أخرى قل ان يوجد مثلها ومنها من أجمل فنادق إيطاليا مقام فى دير قديم Monas-tery عبارة عن قصر تاريخى قديم تحول إلى دير ثم إلى فندق فاخر والمنظر سواء أعلى الجبل أو فى أسفله رائع ولا ينسى فهو باكمله يقع فى حضن بركان Etna أو على عتبته تماما .

وبركان إيتنا الأشم يعلو تاورمينا بهامته الضخمة الداكنة ويكاد المرء لضخامته يحس انه يلمسه إذا مد يده تجاهه رغم بعده الفعلى لكن لحسن الحظ فإن بركان إيتنا حتى اثناء ثوراته ابعد من ان يؤثر على تاورمينا ومسينا لكنه جزء لا يتجزأ من هذه الصورة

الزيتية الشاعرية الخلابة التى عمادها بركان ايتنا ومن تحته جبل تاورمينا ومن تحتهما شاطئ مسينا السياحى الجميل .

أما مدينة باليرمو عاصمة صقلية فمدينة كبيرة وتجمع ما بين القديم والحديث.. لكن أهم مايميزها بل أهم ما يميز صقلية بصفة عامة انها غنية بآثارها التى تشهد بتاريخ حافل وسلسلة طويلة من الاختلاط والامتزاج مع الغزاة والمستوطنين من اغريقيين شيدوا المعابد والهياكل اليونانية القديمة (منطقة أجر يجنتو agrigento أهم آثار ومستوطنات يونانية قديمة خارج اليونان) وفينيقيين وكارتاجنيين وعرب.. نعم فان العرب حكموا صقلية واستمرت دولتهم بها نيفا وثلاثمائة عام واقاموا المساجد والمآذن والحمامات وعمروا المزارع وحسنوا طرق الزراعة والرى وادخلوا انواعا جديدة من النباتات والمأكولات واعطوا اسماء عربية لمدن وقرى مازالت باقية حتى اليوم.. حتى أن اهم كاتدراتية قديمة فى باليرمو مقامه فوق اساس واصول جامع باليرمو القديم.. ومازالت الرسومات والأعمدة العربية تشهد بعظمة وروعة البناء العربى واصالة الفن العربى ثم نجد أن الكاتدراتية قد اضافت الى الأصول والأساسات العربية طوابق متتالية تنتمى الى عصور أخرى للفاتحين من نورمانديين الى الأسبان وهكذا. وتشهد سحن بعض الصقليين ذوى الوجوه السمراء والقامات القصيرة (وبهذه المناسبة فان جوهر الصقلى القائد

العربى الشهير من مواليد صقلية) بأنهم احفاد الاغريق والعرب والقرطاجنيين كما تشهد بأن منهم ايضا احفاد النورمانديين والألمان بما يتميزون به من بياض الوجه وزرقة العيون واحمرار الشعر ..

لكن مثلما يقال عن اسبانيا أن اوروبا تبدأ أو تنتهى عند جبال البرانس، يقال فى ايطاليا بالمثل - وبخاصة مابين أهل شمال ايطاليا - ان حدود اوروبا تنتهى جنوبى روما وأن افريقيا تبدأ ايضا هناك . اى أن أهل شمال ايطاليا يعتبرون أن صقلية باكملها تقع فى افريقيا وهى أقرب الى عادات وحضارة افريقيا منها الى عادات وحضارة شمال ايطاليا ..

بعد هذا توقفت الباخرة فى نابولى والتى يعتبرها الكثيرون عاصمة جنوب ايطاليا ومن أهم معالمها خليج نابولى الشهير بجماله وسحره وباتساعه اذ تحوطه من جهات ثلاث مدينة نابولى التى تشرف على الخليج من فوق تلال وربا خضراء بارعة الجمال وقديما قال الرومان «زر نابولى ثم مت See Naples and die أى يجب على المرء زيارة نابولى قبل أن يتوفاه الله !

أما أهم معالمها السياحية فهى أوبرا سان كارلو وايهاء -Castel lo del' Ouvo على الساحل وهو اشبه بطابية قايتباى تقريبا، وهى أى نابولى مدينة شهدت الكثير من مظاهر العز القديم فقد

كانت كما قلنا عاصمة مملكة نابولى وشهدت ابهة وارستقراطية عظيمة كذلك فان نابولى مشهورة بمصانع الخزف الشهيرة باسم كابو دي مونتى Capo di monti المقامة فى أعلى الجبل وهناك متحف بنفس الاسم يطل على المدينة من أعلى الجبل ويضم اجمل قطع الخزف التى انتجت فى عهد نابليون. ومع ذلك فان نابولى بها احياء فقيرة مزدحمة تذكر المرء بمدن العالم الثالث «المدن الشرقية على حد سواء».

وقد نظمت الاميركان اكسبريس رحلة اشتركنا فيها ايضا الى ساحل أمالفى الشهير بجماله وسحره الاخاذ، جنوب نابولى ويقع مابين خليج ساليرنو وخليج نابولى مرورا بقريتى سورينتو ثم بأمالفى وبوزيتانو السياحيتين التاريخيتين. ويضم هذا الساحل سلسلة من المصايف والبلاجات الجميلة تطل عليها كلها سلسلة من التلال والربا الخضراء التى تعلو مدن وقرى تاريخية من القرون الوسطى. وهو مايجعل هذا الساحل يخالف الى حد كبير ساحل رابالو وسانتامارجريتا القريب من جنوا وهو مايسمى بالريفيرا الايطالية وكثير من الايطاليين والسياح الأجانب يزورون ساحل أمالفى Costa Amalfitama لقضاء شهر العسل أو جزء من الشتاء إذ يتميز مناخ جنوب ايطاليا فى هذه المنطقة بالدفء شتاء والحرارة صيفا أى أنه اكثر دفئا من الريفيرا الايطالية قرب جنوا وأقل امطارا وأكثر قدما وتاريخا ..

كذلك إلى جانب نابولى تقع مدينة بومبى الرومانية التاريخية الشهيرة التى راحت ضحية فوران بركان فيزوفيو Vesuvio القريب من بومبى وذلك عدة سنوات قبل الميلاد.. وقد غطتها اللافا البركانية المشتعلة فاحالتها وجميع سكانها إلى تماثيل من الحجارة الصلدة. وبهذا اصبحت مدينة بومبى - وسكانها متحفا ومزارا للسياح يجدون فيها صورة كاملة لمدينة رومانية قديمة بمنازلها وحماماتها وحدائقها وبسكانها وقد تحولوا الى تماثيل حجرية صلدة اذ دهمتهم اللافا البركانية وقت أن كانوا نياما فى منازلهم.. ويقول الايطاليون المتدينون ان ثورة بركان فيزوفيو ووقوع سكان بومبى فريسة اللافا كانا عقابا لاهل بومبى بسبب كثرة فسقهم ومجونهم.. وهناك حجرات فى بعض منازل بومبى لا يسمح للسيدات من السائحين وانما للرجال منهم فقط بزيارتها فقد علت جدرانها صور ونحوت شديدة الصراحة والاباحية تصور كيفية معيشة أهل بومبى وأنواع اللهو التى انغمسوا فيها !! La Dolce Vita من قديم الأزل!!

بعد ذلك توقفنا فى ميناء لجهورن Legorno ويقع جنوب ميناء جنوا وهو ميناء تجارى لا يماثل جنوا أو نابولى جمالا وإنما يقع قريبا من مدينة بيزا السياحية التاريخية والتى تشتهر ببرج بيزا المائل نتيجة الزلازل - وقد بنى فى القرن ١٧ تقريبا ويمكن الصعود

الى اعلاه وهو فى الواقع تحفة فنية من القرون الوسطى وإن كان لا يماثل برج لاخيرالدا العربى فى اشبيلية جمالا واتقانا ومن العجب ان برج بيزا لم يقع بعد رغم شدة ميله الواضح نتيجة لأحد الزلازل ورغم انه يزداد ميلا عدة سنتيمترات سنة بعد أخرى ..

وبعد فترة توقف قصيرة أخرى فى جنوا انتقلت الباخرة الى ميناء مرسيليا الفرنسى أكبر موانىء البحر الأبيض والمدينة الثالثة بعد باريس وليون.. وأهل مرسيليا أقرب إلى أهل ساحل البحر الأبيض الجنوبى منهم إلى أهل شمال فرنسا شكلا وخلقا حتى انهم يتكلمون الفرنسية بلكنة جنوبية (صعيدية إن صح هذا التعبير) وهم شديدو التعصب والعصبية ومزاجهم حامى. والمعلوم أن السلام الوطنى الفرنسى يلقب بالمارسييز نسبة الى مرسيليا حيث إن لفيفا من أهلها زحف الى باريس اثناء الثورة الفرنسية ليبعث مزيدا من الحماس فى حماة الثورة وكان يتغنى بنشيد شديد الحماس اصبح رمزا للثورة الفرنسية وللدولة الفرنسية حتى الآن وهو المارسييز. ومدينة مرسيليا بها الكثير مما يستوقف الزائر وينال اعجابه من ميادين وشوارع فسيحة وانيقة من أهمها طريق الكانابيير (الكورنيش) ومبان رحيبة فخمة ويسكنها مائة ألف من المغاربة والجزائريين والتونسيين.. لكن بها أحياء تذكر ايضا بمدن العالم الثالث.. وبهذه المناسبة فان مرسيليا تذكرنى دائما بقصة الكونت

دى مونت كريستو فقد بدأت حوادث القصة فى مرسيليا اصلا وكان الكونت دى مونت كريستو حبيسا فى سجن قلعة ايف Chateau d'Iffفى جزيرة تبعد عدة أميال عن مرسيليا ..

وبعد هذا توقفنا فى برشلونة عاصمة مقاطعة قطالونية الاسبانية وتعتبر المدينة الثانية فى اسبانيا بعد مدريد – وقد كان هناك منذ القدم نوع من المنافسة بين المدينتين لكن برشلونة مازالت قلب المنطقة الصناعية فى اسبانيا ومازالت القائدة فى عالم التجارة الخارجية والصناعية والسياحة رغم أن مدريد هى العاصمة.. ومن أهم معالم برشلونة كاتدرائيتها الفذة ولم أر مثيلا لها فى كل سفرياتى فهى تجمع مابين الفن القوطى وغرابة الاخراج بحيث تبدو أنها مقتطعة أو منحوتة فى صخر الجبل. كما من أهم معالمها تمثال كولون (كولومبوس) حيث ابحر من ميناء برشلونة لاستكشاف أمريكا إحدى المرات. فضلا عن القرية الاسبانية Pueblo Espag-nol المقامة فوق أحد التلال العالية التى تشرف على المدينة وبها معرض دائم للصناعات اليدوية الاسبانية. كذلك فإن حلبة المصارعة للثيران فى برشلونة لها تاريخ حافل قديم.. ومن معالم برشلونة الحديثة المترو تحت الأرض لكن من أجمل معالمها طريق الرمل Las Ramblas (المؤدى من ميدان قطالونية فى وسط المدينة الى ساحل البحر: الى الرمل Ramblas وهو حى الفنانين اى بمثابة La Rive

gauche فى باريس ومن ثم فهو محط اهل برشلونة ايام اجازاتهم أو بعد الظهر للتمشية والرياضة ومقابلة الاصحاب وبه مجموعة كبيرة من مطاعم الاسماك ونتاج البحر التى تشتهر بها برشلونة بصفة خاصة - هذا وطريق الرمل Ramblas يجتاز بك المدينة القديمة الى ميناء برشلونة . لكن اذا أردت الاستمتاع بمناظر برشلونه الحديثة ومبانيها وحوانيتها الحديثة فخذ Paseo de yracia والطريق الدياجونال El Diagonal المؤدى الى المدينة الحديثة وضواحيها الأحدث.. وكان هذا الطريق يسمى بطريق فرانسيسكو فرانكو مثلما كانت تسمى أهم الطرق فى مدن اسبانيا قديما. لكن مدينة برشلونة قررت تغيير الاسم إلى Diagonal بعد وفاة فرانكو.. فقد كانت برشلونة من أشد المدن تحمسا للجمهورية والاشتراكية اثناء الحرب الأهلية فى حين قاد فرانكو الملكيين الى النصر..

واخيرا كان جبل طارق آخر مدينة توقفت بها الباخرة قبل ولوج المحيط الاطلسى.. وجبل طارق جبل ضخم اشم يقع جنوب اسبانيا ينحدر من ناحيته الغربية فجأة الى حافة البحر الأبيض فى منظر درامى اخاذ ويطل على المضيق الذى يفصل البحر الأبيض عن المحيط الأطلسى وكذا يفصل اوروبا عن افريقيا وعرضه عشرة اميال (ستة عشر كيلو مترا).. وقد استولت بريطانيا على جبل طارق سنة ١٧٠٤ ومازال تحت سيادتها رغم مطالبة اسبانيا

باستعادته لكن يرفض سكان جبل طارق وهم خليط من المالطيين والاسبان والهنود وسكان المستعمرات البريطانية السابقة يرفضون الانتقال الى سيطرة اسبانيا ويفضلون البقاء فى الوضع الراهن الذى يكفل لهم استمرار الاستمتاع بميزات المنطقة الجمركية الحرة وبقية الحريات التى ضمنتها لهم سياسة بريطانيا وتستغل بريطانيا هذه الرغبة كذريعة لعدم التنازل عن جبل طارق طالما ظل اهله يفضلون البقاء تحت السيادة البريطانية.. وليس هناك الكثير الذى يجذب السائح الى جبل طارق سوى ميزات منطقة التجارة الحرة فقد اصبحت مدينة جبل طارق معبرا لجميع انواع البضاعة رخيصة الثمن التى لاتحصل عليها ضرائب جمركية، وسوى المنظر الاخاذ عبر مضيق جبل طارق من أعلى المدينة المقامة فوق الجبل والتى تضمن كفايتها من مياه الشرب بتخزين مياه الأمطار فى خزانات اقيمت اسفل الجبل إذ تنحدر حافته الشرقية تدريجيا نحو أسبانيا ..

لكن لجبل طارق اهمية استراتيجية فذة تظهر واضحة للزائر فهو يتحكم تماما فى مدخل البحر الأبيض المتوسط الغربى ومن يملك ذلك الجبل يملك التحكم فى المضيق وهو مافعلته بريطانيا منذ سنة ١٧٠٤ عندما بدأت التخطيط لتوسيع رقعة امبراطوريتها .. فبعد جبل طارق استولت على مالطة سنة ١٨٠٠ - ١٨١٥ ثم على قبرص سنة ١٨٧٨ ثم على مصر سنة ١٨٨٢ .. وذلك لضمان بقاء المدخل

الشرقي للبحر الأبيض (قناة السويس) في يد بريطانيا الى جانب المدخل الغربي (جبل طارق) اما القواعد الوسطى مثل مالطة وقبرص مابين المدخلين فتكفل حماية خطوط مواصلات الامبراطورية البريطانية عبر البحر الأبيض ثم عدن (كانت في يد بريطانيا) ثم الهند فاستراليا ..

هذا ولا يفوتني أن اردد ماسمعناه من المرشد السياحي في جبل طارق فقد ذكر أن بريطانيا تحمي وجود عشرات من القردة الضخمة Baboons التي تعيش على سفوح وداخل كهوف جبل طارق وتمنع صيدها أو إبادتها لأن هناك اسطورة مؤداها ان السيادة البريطانية على جبل طارق سوف تظل طالما بقيت القردة تعيش في جبل طارق !

ويبدو أن منظر جبل طارق الآخاذ يشجع وجود الاساطير حوله منذ القديم فان الاغريق والرومان كانوا يؤمنون باسطورة مؤداها ان هرقل هو الذي مزّق وفرق مابين الجبلين اللذين يحفان بمضيق (جبل طارق حاليا) وكانوا يسمونهما بعمودي هرقل، فمزقهما مكونا هذا المضيق الذي يفصل حاليا مابين اوروبا وافريقيا فقد كانا ملتصقين الى أن مزقهما هرقل وفتح بذلك الطريق المؤدي من المحيط الاطلسي الى داخل البحر الأبيض ..

وأخيرا فان الزائر العربى لجبل طارق لابد أن تنتابه بعض الأفكار التى يثيرها فى مخيلته اسم ومشهد جبل طارق هو الآخر . ولابد من ان يستنزل الرحمة على هذا القائد العظيم الذى اعطى اسمه لهذه القلعة الحصينة وضرب مثلا لمن سيخلفه من القادة فى الشجاعة وفن القيادة عندما احرق سفنه التى عبر بها من المغرب إلى ذلك الجبل وهذه ليست اسطورة بل حقيقة .. وقال لجنوده البحر وراءكم والعدو أمامكم . أى إما النصر أو دونه الاستشهاد .. فكان النصر .. وكانت دولة العرب العظيمة فى اسبانيا على مدى ثمانية قرون من الزمان .

وما ان عبرت الباخرة مضيق جبل طارق ما بين عمودى هرقل متجهة غربا إلا واحسسنا أننا تركنا وراءنا العالم القديم وولجنا عالما جديدا لم تطأه اقدامنا بعد .. وتحسبنا لما سوف نناله على يد هذا المحيط الأطلسى الذى يشتد هياجه فى اشهر الشتاء .. ورأينا الأمواج فعلا وقد خيل إلينا أنها اكبر واعلى كثيرا من أمواج البحر الأبيض . بلغ ارتفاعها احيانا أكثر من عشرة امتار بل وخمسة عشر مترا ولم يترفق بنا الأطلسى فعلا فأوى الكثير من المسافرين إلى مقصوراتهم لا يستطيعون حراكا على ظهر المركب ولا يهمهم ان يفوتوا وجبة أو اثنتين من وجبات الطعام .. وبرغم حداثة السفينة ومتانتها وثباتها إلا أن أمواج الأطلسى العاتية كانت تتلاطمها

وتهزها هزا وتقذف بمقدمتها إلى أعلى ثم تهبط بها فجأة متسببة فى فرقعة كبيرة فوق سطح الماء .. حتى لقد خيل إلينا أحيانا أن الباخرة سوف تنشطر شطرين بسبب هذه الفرقعة الشديدة !

كان النادل (الجرسون) المكلف بخدمة مائدتنا فى حجرة الطعام امريكيا تعدى الستين ان لم يكن الخامسة والستين وكان اسمه مستر بايرا .. وكان بشوشا رقيقا وكان يحنو كأب على زوجتى وحاول جهـده اغــراءها بشتى ألوان الطعام لكنها كانت فاقدة الشهية بسبب هياج المحيط . كذلك كان هذا أول عهدنا بالطعام الامريكى .. ولم نستسغ أول الأمر طريقة الأمريكيين فى مزج الطعام الحلو بالمالح مثل «سلاطة والدورف» أو شطائر الديك الرومى بصلصة كرانبرى الشبيهة بالمربب وهكذا .. ولكن مستر بايرا ظل يقنعنا بتجربة ألوان الطعام الامريكى حتى اعتدنا بعضها أو ألفناه وان لم نكن أحببناه .. واقتصر اختيار زوجتى غالبا على شطائر الديك الرومى (دون مربب) كما اقتصر اختيارى على اطباق البوفتيك الأمريكى Steaks .

وكان عبور الأطلسى فى شهر مارس تجربة صعبة حقا وكانت السفينة تسير ببطء وتفقد الكثير من الوقت فى محاولة لتلافى ملاقاة الأمواج والأنواء وجها لوجه بالاتجاه فى اتجاه عرضى أحيانا .. وأمضينا تسعة أيام كاملة فى عبور الأطلسى ، أى اننا

أمضينا ٢٤ يوما كاملة على ظهر السفينة منذ أن غادرت الاسكندرية منها اسبوعان مرا كالحلم الجميل بين موانىء البحر الأبيض ثم الباقي تحت رحمة أمواج الأطلسى حتى وصلنا إلى أول ميناء ومدينة أمريكية وطأتها اقدامنا وكانت بوستون عاصمة ولاية ماسا تشوستس وتقع ٢٤٠ ميلا شمال نيويورك .. وكان على السفينة أن تصل إلى نيويورك فى اليوم التالى وصادف ان كان يوم السبت .. والمعلوم أن البنوك والمصالح الحكومية في أمريكا تقفل أبوابها أيام السبت والأحد ، ولما كانت السفينة قد توقفت بنا فى كل موانىء البحر الأبيض التى سبق ذكرها وكنا قد اشتركنا فى رحلات الأميركان اكسبريس السياحية فى هذه المدن جميعها نظير مبلغ معين فى كل ميناء فقد وجدت نفسى فى حاجة ماسة إلى التزود بمزيد من الدولارات الاضافية لمواجهة مصاريف الوصول إلى نيويورك والسفر إلى واشنطن ، وكنا قد حولنا مبلغا من الدولارات من القاهرة إلى احد البنوك فى نيويورك .. لكن ليس إلى بوستون التى لم تكن فى الحسبان ، فما الحيلة إذن وسوف نصل إلى نيويورك متأخرين أربعة أيام كاملة عن موعدنا الأصلى لنجد البنوك مغلقة ؟!

ما ان رست السفينة فى ميناء بوستون إلا وأخذنا زوجتى وأنا سيارة أجرة (تاكسى) وطلبنا إلى السائق أن يوصلنا إلى أكبر

البنوك فى بوستن .. فأخذنا إلى بنك اسمه First National على ما أتذكر .. وولجنا بابه .. ودهشنا كثيرا لفخامة ووجاهة البنك فكان خلافا لما اعتدنا رؤيته من البنوك فيما سبق .. ودهشنا أكثر لاناقة وشدة حسن السكرتيرات الشقراوات اللاتى رأيناهن يجلسن إلى مكاتبهن واقتربت من واحدة منهن لأسألها إن كانت تستطيع مساعدتنا فاحالتنى إلى سكرتيرة أو موظفة أخرى لا تقل حسنا وبهاء وقد جلست إلى مكتبها الفخم . شرحت لها المأزق الذى وجدنا فيه وسألتها إن كان بنكها يستطيع عمل شىء لمساعدتنا .. فاقترحت أن تتصل تليفونيا بالبنك الذى حولنا إليه حسابنا فى نيويورك بعد التأكد من شخصيتنا طبعا .. وطلبت منا أن نمهلها ربع ساعة جلسنا فيها نتأمل جمال المكان وبهاء وحسن العاملات فيه وقد اتفقنا فى الرأى زوجتى وأنا اننا نشهد أكبر مجموعة من الفتيات الفاتنات فى مكان واحد .. وبعد حوالى ربع ساعة فقط كانت قد اتمت الاتصال ببنك نيويورك وأخذت موافقته ، بضمان بنكها وجواز سفرى والوثائق التى احملها على تسليمنا المبلغ الذى طلبناه خصما على حسابى فى البنك الآخر فى نيويورك ، علما بانه سواء أكان بنك بوستن أو بنك نيويورك فايهما لم يكن قد رآنى من قبل .

كان هذا أول عهدى بكفاءة النظام الأمريكى وتخطيه للروتين ..

وكان درسا لى لن أنساه ما حييت .. وكأنّ القدر قد أعد لنا أفضل مدخل وأحسن تعريف بأمريكا وطريقـة معيشتها فى أقل وقت ممكن ..

وفى نفس الوقت أعد لى القدر تجربة امريكية أخرى لعلهًا كانت لازمة هى الأخرى لزيادة تعارفنا بامريكا .. فقد اردت مكالمة زميلى المرحوم الاستاذ محمد رياض فى نيويورك لابلغه بموعد وصولنا الجديد .. فذهبنا إلى أحد الفنادق حيث توجد بعض التليفونات العامة فطلبتُ موظفة السنترال وابلغتها رقم مكتبنا لدى الأمم المتحدة فى نيويورك والذى اردت الاتصال به فمضت تسألنى ؟ What is the exchange عدة مرات دون أن أفهم مقصدها .. فكان هذا أول عهدى بطريقة الامريكيين فى ترقيم تليفوناتهم ففى ذلك العهد لم يكن الرقم كله عبارة عن أرقام مثلما هو الوضع حاليا بل كان الرقم يتكون من ثلاثة حروف أبجدية إلى جانب أربعة أرقام وكانوا يسمون الحروف الابجدية Exchange ويبدو أنى كنت قد اعطيتها الارقام دون الحروف وكانت الحروف التى تسبق الأرقام LAK فاستمر سوء التفاهم إلى أن ناديتُ نادلا (جرسونا) ليتفاهم مع السنترال واريته ورقة مكتوبا عليها رقم التليفون فإذا به يقول لها بالانجليزية المكسرة والتى لا تعرف النحو والصرف There is a

لكنه استطاع أن يعرف guy here who don't speak English!! مقصدها وان يبلغها الأرقام مع الحروف هذه المرة !

لكنى اصبت فى كرامتى واحترت فى أمرى ، أهكذا تستقبلنى الولايات المتحدة ؟! أهكذا يسخر من انجليزيتى انا هذا الافاق الذى يقتل اللغة الانجليزية الجميلة كل مرة يفتح فيها فمه وأنا «أستاذ» اللغة الانجليزية ؟!

حقا إن الاجنبى لابد ان يدفع ثمن غربته لكنى تعلمت بعد هذا الدرس كيفية تكوين ارقام التليفونات فى أمريكا وطريقة تلقيها كما تعلمت كيف يتكلم جرسونات بوستون اللغة الامريكية أو تذكرت قول برنارد شو الشهير إن البريطانيين والأمريكيين شعبان تفرق بينهما لغة واحدة ! ورغم أنى عشت فى امريكا بعد ذلك – على عدة مرات – حوالى اثنتى عشرة سنة فى حياتى الدبلوماسية إلا أنى قاومت اغراء تكلم اللغة باللهجة الامريكية .. وظللت محتفظا بلهجتى «البريطانية» الاصل .. ربما عنداً فى ذلك الجرسون .. جرسون بوستون !

وأخيراً وصلت باخرتنا إلى نيويورك متأخرة اربعة أيام كاملة وكان دخولنا ميناء نيويورك ذات صباح مما سمح لنا بمشاهدة تمثال الحرية الشهير وكوبرى فرازانو المعلق شديد الاتساع والمعديات التى تعبر من مانهاتان إلى جزيرة ستاتن القريبة ،

واخيرا وليس آخرا منظر ناطحات السحاب في جزيرة مانهاتان وكأنها غابة من الاشجار الباسقة المصنوعة من الخرسانة المسلحة.. هو منظر فريد فى بابه دون ادنى شك فإن نيويورك مدينة عظيمة وان كان البعض لا يجدها جميلة جمال باريس أو روما أو مدريد لكنها تفرض نفسها على الزائر بحكم قوتها وجبروتها وعظمة وروعة منشآتها التى تشعر الإنسان بضآلته وتفرض احترامها عليه وان لم يكن شيئا من الرهبة بالمثل - وذلك بغض النظر عما إذا احبها الزائر أو لم يحبها ..

ورست الباخرة فى ميناء هوبوكين Hoboken على مدخل نهر الهدسون فى نيوجيرسي المواجهة تماما لمانهاتان عبر نهر الهدسون. كان هذا أول عهدنا بامريكا والعالم الجديد .. وكنت قد اتصلت اذن بصديقى وزميلى المرحوم الاستاذ محمد رياض (وزير الدولة للشئون الخارجية فيما بعد) وكان يعمل سكرتيرا ثالثا فى البعثة المصرية لدى الأمم المتحدة أبلغه بموعد وصول الباخرة الجديد .. وكان محمد رياض رحمه الله فى انتظارنا بالميناء . وحملنا امتعتنا فى سيارة تاكسى كبيرة إلى مانهاتان (قلب نيويورك) ..

ولما كان موعد قطارنا الذى سوف نستقله إلى واشنطن بعد ذلك بساعتين أو ثلاث فقد اقترح علينا أن يأخذنا فى جولة لمشاهدة

أعلى مباني نيويورك حينئذ Empire State Building وكان بها مقر وفدنا للأمم المتحدة لرؤية المدينة من ارتفاع ستين طابقا .. وفعلنا ذلك فعلا وكان المنظر اخاذا رائعا جدا .. وامضينا وقتا سعيدا سويا .. ولما انهينا جولتنا ركبنا سيارة أجرة أخرى إلى محطة بنسلفانيا لنستقل القطار إلى واشنطن .. وكان الوقت وقت خروج الموظفين واكتظت الشوارع بعدد من السيارات لم نر مثيله من قبل حتى لقد خيل إلىّ أن المشى كان اجدر بنا من ركوب السيارة . فلما وصلنا إلى محطة القطار اضطررنا إلى الجرى لنلحق به قبل موعد قيامه بدقيقتين . ووصلنا ثلاثتنا إلى رصيف القطار لاهثين متعبين لنجد القطار وقد بدأ يتحرك فعلا .. وسألنا أحد موظفى المحطة الواقفين على الرصيف متلهفين عما إذا كان ذلك القطار الذى يتحرك هو الذاهب إلى واشنطن .. وبدلا من أن يجيب على سؤالنا التفت هو إلى زميل له وهو يشير إلى زوجتى قائلا متضاحكا : أليست جميلة حقا ؟! Ain't she pretty ?

وكان هذا درسا جديدا آخر فى اسلوب مزاح الامريكيين والواقع أنهم أبعد ما يكونون عن جدية وتحفظ البريطانيين !!

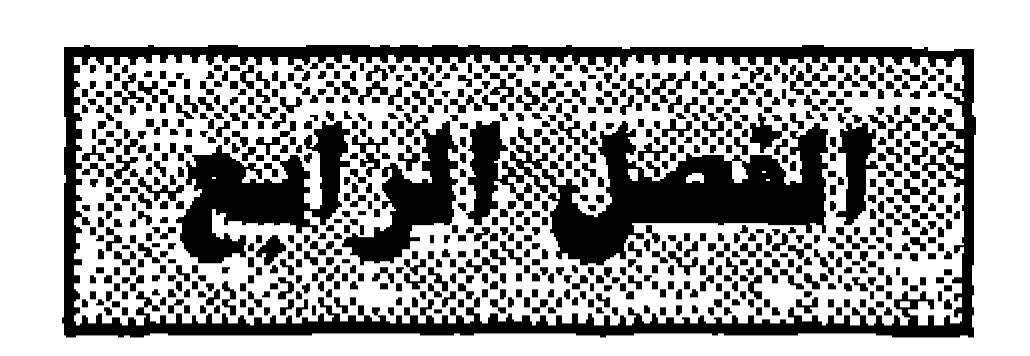
كان موعد قيام القطار التالى بعد ساعتين امضيناهما زوجتى وأنا فى المحطة هذه المرة رافضين عرض محمد رياض الكريم باصطحابنا إلى مكان آخر .. ورجوناه ان يكتفى بذلك القدر من

التعب وان ينصرف إلى عمله وان يتكرم بالاتصال بالزميل الاستاذ صلاح الدين حسن (السفير ووكيل الخارجية فيما بعد) سكرتير السفارة بواشنطن لاخباره بتأخير موعد وصولنا لانه كان سينتظرنا في محطة قطار واشنطن ..

وكان ركوب القطار إلى واشنطن تجربة جديدة هي الأخرى ويبدو أن كل شيء في امريكا يعتبر جديدا من نوعه بمقارنته بالعالم القديم .. لان قطارات امريكا تختلف عن قطارات العالم القديم .. فهناك موظفو القطارات وعدد كبير منهم من الزنوج في امريكا ينادون باعلى صوتهم ! All aboard "الجميع يركبون" قبل أن ينفخوا في صفارتهم ايذانا لسائق القطار بالتحرك .. اما قطارات امريكا فقد لاحظنا فورا انها اكثر اتساعا (عرضا) من قطارات مصر أو أوروبا . والدرجة الأولى (بولمان) بها الكراسي فوتيلات واسعة وثيرة .. تدور حول نفسها على محور ثابت . والقطار يعطى الانطباع بالثقل والثبات وهو قليل الاهتزاز سريع الحركة دون ضوضاء شديدة .. كان ذلك سنة ١٩٥١ كما اسلفت ولم تكن الأمور قد حسمت نهائيا في صالح إلغاء كافة ألوان التفرقة العنصرية في امريكا .. وكان كل ركاب الدرجة الأولى من البيض ، كما كان أغلب خدم القطار والحمالين من الزنوج .. وكانت هذه الظاهرة أيضا ما استوقفنا أول وصولنا إلى واشنطن فجميع الحمالين من الزنوج .

وجرت عادة الأمريكيين البيض على مناداة الرجل الحمّال الزنجي بكلمة Boy أى يا ولد !

بعد أربع ساعات كاملة وصلنا واشنطن .. وكان الزميل صلاح حسن في انتظارنا فى محطة القطار واخذنا فى سيارته واوصلنا إلى فندق عائلى قريب من سفارتنا فى ماساتشوستس افينو فى شمال غرب مدينة واشنطن اعتاد زملاؤنا النزول فيه وكان اسمه The Fairfax Hotel وهكذا بدأنا حياتنا الجديدة فى العالم الجديد .



الفصل الرابع

«الولايات المتحدة الأمريكية : بلد العجائب والمتناقضات»

(١) أمريكا : بلد العجائب :

تحتل الولايات المتحدة الامريكية وسط قارة أمريكا الشمالية . يحدها شمالا كندا ويحدها جنوبا المكسيك . كما يحدها شرقا المحيط الأطلسى وغربا المحيط الهادى . ويصعب تصور حجم الولايات المتحدة دون مقارنتها بغيرها من القارات والدول .. فهى تمتد من خط عرض ٣٠ شمال خط الاستواء إلى خط عرض ٥٠ وهى مسافة تقرب من خط عرض القاهرة إلى خط عرض لندن وبرلين .. حوالى ٣٠٠٠ كيلو متر ولو وضعت الولايات المتحدة على خريطة افريقيا مثلا لغطت المسافة من شرقى سيناء إلى أقصى غرب المغرب أو السنغال على المحيط الأطلسى !! حوالى ٤٥٠٠ كيلو .. هذا الاتساع الكبير ، هذه الضخامة ، هى من أهم ما يميز امريكا والامريكيين وكل شىء أمريكى ..

وسوف تجد الضخامة الصفة المميزة لحجم الولايات المتحدة ، وللمسافات التى تفصل ما بين مدنها (من نيويورك إلى واشنطن العاصمة المسافة ٣٥٠ كيلو مترا ومن نيويورك إلى بوستون ٣٠٠ كيلو متر .. من نيويورك إلى فلوريدا ١٦٠٠ ومن نيويورك إلى سان فرنسيسكو على الساحل الغربي ٥٠٠٠ كيلو متر وهكذا) .

كذلك هى أهم ما يميز انتاجها وثرواتها : فهى الأولى فى العالم فى انتاج الفحم والبترول والصلب والقوى الكهربائية والنحاس والقطن والخشب وغيرها .. كما أنها الأولى فى العالم من حيث حجم الناتج القومى السنوى العام (٤٥٠٠ بليون دولار على الأقل : فرنسا ٩٠٠ بليون وإيطاليا ٣٥٠ بليوناً) وهى بلا نزاع أيضا الأولى فى العالم من حيث حجم استهلاك الشعب للأطعمة والبضائع الاستهلاكية والسلع المعمرة وغير المعمرة . وهى الأولى فى العالم من حيث عدد المليونيرات والبليونيرات واصحاب الثروات الضخمة والقصور . والأولى فى العالم من حيث عدد الطرق السريعة واتساعها وطولها بالاميال ، ومن حيث عدد السيارات والتليفزيونات والثلاجات والتليفونات (٨١ مليون تليفون سنة ٦٧) . وكبر الحجم أيضا هو الصفة المميزة لحجم السيارات الامريكية بمقارنتها بالسيارات الأوروبية أو اليابانية .. وامريكا هى الأولى فى العالم من حيث عدد المدن الكبرى التى يزيد عدد سكانها على الثلاثة أو الخمسة ملايين نسمة بالمقارنة إلى عدد السكان .. ومن أهم تلك

المدن الضخمة نيويورك ١٠ - ١٢ مليونا - شيكاجو ١٠ ملايين - لوس أنجلوس ١٠ ملايين - فيلادلفيا - بولتيمور - واشنطن - دترويت - سان فرنسيسكو - بوستن نيواورليامز - دالاس - هيوستون - بتسبرج .

ولماذا نذهب بعيدا ؟ اليست الأولى فى العالم أيضا من حيث حجم الإنسان الأمريكى وحجم طبق البوفتيك Steak الذى يأكله والسندويتشات الضخمة التى يلتهمها . وحجم الآيس كريم وكميات اللبن والكوكاكولا التى يستهلكها يومياً ؟! ومن حيث حجم عدد كوبات المارثينى أو كوبات الويسكى التى يشربها يومياً ؟ ومن حيث كمية اللادن أو اللبان الأمريكى المستهلك يوميا ؟ وكمية جوارب النساء التى تنتج وتستهلك فى عام ؟ (يقدر عدد ازواج الجوارب النايلون التى تنتج سنويا بأكثر من ٤ بلايين و ٢ بليون زوج أحذية نسائى سنويا) .

وما من زائر أجنبى زار الولايات المتحدة إلا وراعه حجم الصحف اليومية (لا أقصد عددها وحسب لكن حجم كل صحيفة .. وبخاصة حجم وثقل صحف يوم الأحد) .. وطبعا فإن استهلاك الولايات المتحدة لورق الصحف والورق بصفة عامة هو أكبر معدل في العالم ولا يوجد بلد فى الدنيا يدانيها فى هذا المضمار ..

كذلك عدد دور السينما والمسارح وعدد الأفلام الامريكية المنتجة

سنويا والتى تغزو العالم بأكمله وعدد محطات التليفزيون ومحطات الراديو وعدد ساعات إرسالها أو بثها : لو سألت أمريكيا من مدينة نيويورك كم عدد محطات التليفزيون فى مدينته لحار فى اجابته فإنها أكثر من أن تعد أو تحصى وذلك لكثرة المحطات الأهلية كثرة محيرة حقا .. والمنافسة بين محطات التليفزيون والراديو منافسة رهيبة لا يوجد مثلها فى أى بلد أخر .

إذن فأهم صفة مميزة للولايات المتحدة وشعبها هى فى الكم والحجم والامكانيات المهولة الجبارة ..

والشعب الأمريكى يبلغ حاليا حوالى ٢٥٠ مليونا من البشر وهو ليس بأكبر الشعوب عددا إذ إن الصين والهند والاتحاد السوفييتى تفوقه من حيث عدد سكانها لكنه يأتى فى المرتبة الرابعة بعدها ..

وأهم ما يميزه فى هذا المضمار ، أنه يتكون من مجموعات متباينة من شعوب أوروبية يغلب عليها العنصر الانجلو سكسونى أى البريطانى والايرلندى الناطق بالانجليزية ومن شعوب Nordic نرديه وجرمانية وبلقانية وسلافيه ولاتينية وشعوب أسيوية وافريقية (الزنوج الامريكيون) .. وبصفة عامة فإن الرجل الأبيض فى أمريكا يمثل حوالى ١٨٠ – ١٩٠ مليون نسمة ، فى حين أن زنوج أمريكا قد يصل عددهم إلى ٥٠ مليونا .. وقد نزحت الأصول البريطانية إلى الولايات المتحدة بدءا من القرن السابع عشر وتكاثرت واعطت

للولايات لغتها وطابعها العام المميز الانجلوسكسونى ، ثم تبعتها هجرات الآخرين ، لكنها أن انصهرت بعض الشىء إلى الآن فلم تتم بعد عملية الانصهار التام [1] فى بوتقة الولايات المتحدة والتى لم تكد تبلغ من العمر ثلاثمائة عام . ومن هنا فإن الزائر للولايات المتحدة قد يجد صعوبة فى فهم اللكنة الأمريكية بادئ ذى بدء لاختلافها عن الانجليزية وفى هذا قال الكاتب الانجليزى الشهير برناردشو حسبما أتذكر جملته الشهيرة : «ان البريطانيين والأمريكيين شعبان (من أصل واحد) تفرق بينهما اللغة الانجليزية» لكن الزائر سوف يدهش أكثر عندما يقابل امريكيين ملكوا الجنسية الامريكية منذ المولد لكنهم يكادون لا يتكلمون الانجليزية أو بصعوبة كبيرة وبلهجة أجنبية تجعل فهمهم عسيرا . وأهل «بروكلين» فى نيويورك ومعظمهم من يهود شرق أوروبا يشتهر عنهم أنهم يتكلمون الامريكية بلكنة شرق أوروبية واضحة مختلطة باللغة اليدية Yiddesh مما يجعل المرء يظن أنهم اجانب يتكلمون الانجليزية .

والشعب الأمريكى فى مجموعه ينعم بمستوى معيشة مرتفع لكنه ليس الأكثر ارتفاعا إذ يفوقه السويد وسويسرا بل والكويت [2] وبروناى من حيث متوسط دخل الفرد .. لكن دخل الامريكى فى

---

(١) هناك جيوب Enclaves يغلب على سكانها تركز جنسى السويديين أو البولنديين أو الألمان أو الأيرلنديين .. ورغم محاولة الجميع تعلم الانجليزية إلا أنه يبقى ان هذه الجيوب مازالت تغلب عليها اللغات الأصلية والصفات والعادات القديمة ..

(٢) اقصد الكويت قبل ٢ أغسطس ١٩٩٠ طبعاً .

المتوسط خمسة عشر ألاف دولار في العام أو أكثر قليلا .. و٩٧٪ من الشعب الامريكي متعلم أي أن الأمية لا تتعدى ثلاثة في المائة بمعنى أن حوالي ٦ - ٧ ملايين أمريكي لم يدخلوا داخل مدرسة قط ولم يتعلموا القراءة والكتابة بعد .

ومن أهم ما يميز الحياة الامريكية طابع «اللارسمية» Informali-ty أو التلقائية والحرية أو الانطلاق أو احترام الحريات وقلة التمسك بالبروتوكول أو الرسميات أو بالروتين الجامد . ولعل أهم أسباب ذلك حداثة المجتمع الأمريكي بمقارنته بمجتمعات أوروبا والعالم القديم . وتاريخ وطريقة نشأة هذا الشعب الأمريكي اليافع وطريقة توسعه عبر الولايات المتحدة نحو الغرب في وجه الصعاب الجمة التي اكتنفت التوسع غربا وضروريات التغلب على «الهنود الحمر» والعصابات وقطاع الطريق والمجرمين ، ونوعية الحياة الريفية أو الجبلية الخشنة أو الخلوية الصعبة وهو ما يعبر عنه بـ Fiontiers Society† والتي مازالت تطفو إلى السطح أحيانا كل ذلك من أهم أسباب وصفات طريقة الحياة الأمريكية (١) :

كما أن من الصفات الأمريكية أيضا ميوعة الفوارق بين الطبقات العليا والمتوسطة والدنيا وسهولة الانتقال من طبقة إلى طبقة أعلى

(١) لكن يشتهر الامريكيون بصفة عامة بالكرم الشديد وبأنهم يفتحون قلوبهم وبيوتهم للغريب بسرعة بمجرد التعارف .. وإن دل هذا على الكرم والمودة والسماحة فهو أيضا دليل على تمتع الامريكي العادي بدرجة عالية من بحبوحة العيش فهو لا يحسب حساب «اللقمة» ، ولا يعد دراهمه» مثل بعض الشعوب الأخرى الأقل ثراء وبحبوحة ..

لمن ملك المال (ومن ثَمّ الشهرة والنفوذ) بغض النظر عن الأصل العائلى.. فالعبرة أو الفيصل أو المحك فى المجتمع الأمريكى ليس قدم العائلات أو اصالتها وإنما اليُسر المادى أولا وقوة النفوذ والشهرة ثانيا وثالثا.. وعلى أى حال فالمجتمع الأمريكى كله مجتمع مهاجرين. حتى أقدم العائلات وأكثرها أصالة (الذين وفدوا على الباخرة الماى فلاور May flower فى القرن السابع عشر وهى كبريات عائلات نيو انجلاند) انما وفدوا هم أيضا كمهاجرين معدمين مفلسين هاربين من الفقر ومن الاضطهاد.. وإن أمكن لهم التباهى والتفاخر على غيرهم من الأمريكيين الآن فانما بفضل الثروات التى أمكن لهم جمعها.. فالمال مازال هو أذن المحك الأول والفيصل النهائى.. وقد عبر كثير من الكتاب عن ذلك بما أسموه «مادية الشعب الأمريكى †ÆMaterialism

أما تلك الصفة الأمريكية والغالية أى عدم التمسك بالروتين والبروتوكول والرسميات فلها فوائدها ولاشك كما أن لها مضارها ايضا اذا ما جاوزت الحد وهو ما يحدث احيانا. فمن محاسنها سهولة التعامل فى مجال المصارف (البنوك) والأعمال التجارية. وقد سردت فى فصل متقدم كيف أمكن لى أن اقبض مبالغ محترمة من بنك فى بوستون أول يوم وصولى إلى أمريكا فى حين أن حسابى لم يكن مودعا فى ذلك البنك وإنما فى بنك أخر وفى مدينة أخرى !!

ولم تستغرق العملية أكثر من نصف ساعة !! وكذلك فانه يسهل على أى أمريكى غير عاطل أن يحصل على قرض من أحد البنوك فى وقت قصير وبسهولة نسبية. كما أن من تلك المحاسن أيضا تسهيل اقامة الصداقات وتبادل المنافع وعدم التقيد بالملابس الرسمية أو التقليدية باستمرار.. وهكذا ..

أما بعض المساوىء التى يصعب على الزائر من العالم القديم أن يتقبلها - على الأقل فى بادىء الأمر - فقد تتمثل فى عادة أمريكية شائعة هى وضع الرجلين والقدمين (والحذائين طبعا) على المكتب - فى مكان العمل - فى وجه الزائر أو المتحدث الآخر دون أن يخطر ببال الأمريكى صاحب الحذائين وصاحب المكتب أن هذا الوضع قد يؤذى شعور الزائر أو المتحدث الآخر الذى قد يفسر ذلك على أنه علامة استهزاء أو احتقار ؟ .

كذلك يميل الأمريكيون الى سرعة رفع التكليف مع الغريب بسرعة فائقة بحيث ينادونه من اسمه مجردا بمجرد التعارف وبحيث تكون علامات الإعزاز ورفع التكليف عندهم هى تكرار «خبط الصديق على ظهره» كمظهر من مظاهر المودة Back- Slapping ولن تجد انجليزيا أو فرنسيا يفعل ذلك.. فانها عادة أمريكية خالصة.. لكن لاشك فى أن الأمريكى أكثر «ألفة» من البريطانى أو الفرنسى .

لكن أهل العالم القديم بصفة عامة يدهشون لكيفية تطبيق هذه الصفة الأمريكية أى عدم التقيد بالمراسم أو التقاليد، والانطلاق والاستمتاع المطلق بالحرية الفردية، كيفية تطبيقها فى المنزل الأمريكى وبصفة خاصة على تربية الاطفال الامريكيين.. فهى قد تبلغ الفوضى التامة عندما تجد الطفل الأمريكى ينال حريته المطلقة فى الخروج والدخول أو الأكل من عدمه ونوع الطعام والاستذكار من عدمه وسماع الموسيقى الصاخبة بأعلى الأصوات التى تزعج أهل المنزل كله أو فى كيفية حديث الطفل الأمريكى مع والده أو والدته . كذلك تطبيق تلك الصفة الامريكية على الفتية والفتيات فى طور المراهقة فان منتهى الحرية ومنتهى الانطلاق وعدم التقيد بالتقاليد الموروثة قد أديا الى غياب الاشراف العائلى وضعف الروابط العائلية وإلى انتشار استعمال الشباب والنشء للمخدرات وانتشار مرض الايدز والاطفال غير الشرعيين لامهات لم يكن يبلغن الخامسة عشرة من العمر وهكذا ..

لكن من محاسن المجتمع الأمريكى، مجتمع الرفاهية affluent societyالسهولة التى يقبل بها الأمريكى (أو يتقبل بها ايضا) تغيير عمله من وزارة الى أخرى، ومن شركة إلى أخرى أو من مهنة إلى مهنة أخرى.. لقد انتشرت هذه العادة أو هذا الأسلوب فى المجتمع الامريكى بحيث لايجد الأمريكى العادى فيها غضاضة أو

غرابة بل إن أكثر الامريكيين لابد من أن يكونوا قد مروا بهذه التجربة على الأقل مرة واحدة فى حياتهم العملية – والأغرب من ذلك السهولة التى يجد بها الأمريكى الوسيلة للعثور على عمل أخر أو مهنة أخرى بسبب ضخامة سوق العمل وقدرته على الاستيعاب.. لكن تلك هى روح المغامرة والإقدام التى ميزت الأمريكيين الأول الذين بنو اعظمة الولايات المتحدة وتقدمها ومازالت تميز أغلب الامريكيين فى عالم اليوم أيضا.. وإليها يرجع الفضل فى شدة ديناميكية المجتمع الأمريكى وسرعة تقدمه .

ومع ذلك فاعتقد أن لها جانبا أخر لم نعتده نحن أهل العالم القديم.. ذلك هو قوة وصعوبة «المنافسة» الشديدة القائمة بين الشركات والمصارف وجميع أوجه النشاط التجارى أو الصناعى الخاص.. حتى أن بقاء الموظف فى موقعه واحتمال ترقيته من عدمه رهين بمبلغ انتاجه وبمدى تميزه فى عمله.. وقد يرتفع موظف صغير الى أعلى الدرجات بسرعة فائقة اذا أثبت جرأة وكفاءة وقدرة على قيادة ذلك الموقع.. لكن الجانب الآخر لهذه العملة هو أن المديرين أنفسهم Executives معرضون للرفت السريع أو الاستغناء عن خدماتهم إذا تكرر منهم التقصير أو أظهروا عدم المقدرة على القيادة السليمة.. والمعيار هو مدى الربح أو الخسارة التى تحققها الشركة أو الصناعة فى سنتين متتاليتين.. ومن هنا فإن الموظفين

ينتابهم دائما شعور عدم الاطمئنان وعدم الثقة والخوف من المستقبل، ومن احتمال عدم عثورهم على وظائف اخرى بعد أن يتجاوزوا السن المناسبة لبدء عمل جديد وكل ذلك مدعاة لايجاد نوع من أشد المنافسة وأكثرها ضراوة بين الزملاء في العمل الواحد، كما بين الشركات والمصالح ويسمونها Cut-throat competition لأنها تصل إلى حد «ذبح» المتنافسين بعضهم البعض الآخر في سبيل ضمان الترقي والاستمرار في الموقع ...

وتتميز الولايات المتحدة بوفرة انتاجها من كل شيء، المأكل والملبس، والسلع الاستهلاكية المعمرة منها وغير المعمرة على حد سواء وفرة سببها اتساع السوق وثراؤه وقدرته الانتاجية الفائقة، وفرة تتيح أن تصل هذه السلع الى المستهلك الأمريكي العادي (وليس الثري وحده) وبأسعار أقل من أسعار مثيلاتها في أوروبا الغربية بل وفي دول العالم الثالث !!

لكن السلع التي تلمسها يد «وسيط الخدمات» لابد من أن يرتفع سعرها بمقدار ما يناله هذا الوسيط من مكافأة أو مرتب أو ربح.. مثل ذلك الفارق الكبير بين سعر المأكولات الخام المشتراة من الأسواق الـ Supermarkets وبين سـعر الوجبات في المطاعم.. واقصد من وراء ذلك القول بأن سعر المأكولات الخام في أمريكا أرخص منها نسبيا عن بلاد أوروبا وفي كثير من بلاد العالم الثالث،

ومن صفات بل ومن مزايا المجتمع الأمريكي وطريقة المعيشة الأمريكية ظاهرة شدة «الاعتماد على النفس».. وتتخذ هذه الظاهرة صورا مختلفة مثل عدم اعتماد العائلة الأمريكية العادية وعدم اعتماد المرأة الامريكية (ست البيت) على أى خدم فى منزلها اذ تقوم هى يشاركها زوجها (وأولادها احيانا) بالواجبات المنزلية .

كما تشجع الأسرة الأمريكية أولادها منذ الصغر على الاعتماد على النفس بعدم منح الاطفال «مصروف جيب» تلقائى وإنما نظير أداء الطفل أو الفتى أو الفتاة لبعض الأعمال المنزلية أو تشجيعهم على العمل خارج المنزل فى توزيع الصحف اليومية أو اللبن وماأشبه فعلى الطفل أو الحدث أن يعتاد أن يكسب مصروف جيبه منذ الصغر.. ومن ثم تجد الأسرة الأمريكية تشارك بعضها بعض فى الطهو وغسل الأواني والسيارة وتهذيب الحديقة والعناية بها.. واعتقد أنها ميزة كبرى.. تعوض إلى حد كبير الوجه المقابل للعملة وهو ماسبق الاشارة اليه من ظاهرة تفكك الأسرة وزيادة الحرية التى يتمتع بها الطفل أو الحدث الأمريكى وإن كانت هى نفسها سببا فى انفصال الفتى أو الفتاة عن الأسرة مبكرا بسبب عادة الاعتماد على النفس !! وبديهى – مما سبقت الاشارة اليه – أن المليونيرات فى أمريكا وحدهم هم الذين يستطيعون تحمل مرتبات الخدم أو الطهاة أو الحدائقية.. فاليد العاملة غالية الثمن .

ولا بد من التنويه بقوة الرأى العام الأمريكي ومدى تأثيره على

السياسة وطريقة الحكم، وكذلك بدور المرأة الأمريكية ومدى قوتها داخل هذا الرأى العام الأمريكى والمجتمع الأمريكى ..

لو سألت أمريكيا متعلما «من المهيمن على سياسة الولايات المتحدة؟ لأجابك على الفور «الشعب».. فالأمريكى شديد الايمان بديموقراطية الولايات المتحدة ويتفوق بطريقة الحياة ونظام الحكم في أمريكا [1] .. فاذا ما سألته «ومادور الحكومة اذن ؟ ومادور رئيس الجمهورية والكونجرس ؟ لقال لك معززا اجابته الأولى «وان الحكومة والرئيس والكونجرس إنما يمثلون إرادة الشعب ويحكمون باذنه ومشيئته وأن استمرار بقائهم من عدمه رهن بارضاء الشعب » فإذا ما بدأت تستوضح من صديقك الأمريكى الدور الذى تلعبه جماعـات التأثير وأصحاب المصالح الخاصة فى تسيير دفة الحكم لاجابك الأمريكى بأنه ربما لا يمكن اغفال دور ونشاط جماعات التأثير وأصحاب المصالح الخاصة حقا، لكن سلطة هذه المنظمات والأقليات إنما تقوم غالبا على أساس قوتها وقدرتها على التأثير على الشعب وتوجيهه وكسب عطفه وتأييده لطلباتها ولمصالحها، ومن ثمّ قدرتها على الضغط على الحكومة والكونجرس والرئاسة الأمريكية لتأييد هذه المصالح مستعملة قوة تأثيرها على الشعب.. فالشعب الأمريكى

---

(١) من الكتب المفيدة حـول طريقة الحياة الأمريكية واخلاق الامريكيين كتاب تأليف :
Henry S. Commerager
وكتابا جون جنثر †† John gunther داخل الولايات المتحدة » مجلدان .

فى رأى الأمريكيين، بطريق مباشر أو غير مباشر هو المرجع الأول والأخير، وهو الهدف الذى تستهدفه جميع المؤسسات السياسية الشرعية وغير الشرعية ومنها جماعات التأثير.. ومنها طبعا رئاسة الجمهورية والكونجرس .. ومن مظاهر قوة الرأى العام الأمريكى أن رجال السياسة، أعضاء الكونجرس ورئيس الجمهورية وغيرهم، يحاولون دائما ضمان تأييد الشعب الأمريكى لهم عن طريق مخاطبته على الراديو والتليفزيون ووسائل الاعلام الأخرى. كذلك تحاول جميع المؤسسات التجارية والاقتصادية والصناعية والسياسية الحصول على تأييد الشعب لطلباتها ومصالحها بمخاطبته عن طريق وسائل الاعلام بالمثل.. وكان هذا سببا قويا ولاشك بل لعله السبب الأول فى قوة ونفوذ وسائل الاعلام فى أمريكا (كما فى البلاد الديموقراطية الأخرى) قوة لاتقارن بقوتها فى أوروبا الغربية والعالم الثالث .

أما إذا أردنا التعميم، وحاولنا تسمية أهم طائفة واحدة بعينها لها السيطرة والحظوة والنفوذ داخل المجتمع الأمريكى فهذه الطائفة هى النساء الأمريكيات !! وكثيرا مايسمع الغريب فى أمريكا أن المرأة الأمريكية هى التى تحكم الولايات المتحدة.. وهذا القول فيه شىء كبير من الصحة، فهى متعلمة ولها حق الانتخاب، بل إن عدد الناخبات فى أمريكا أكثر كثيرا من عدد الناخبين، فالمرأة الأمريكية

تعمّر أكثر من زوجها (متوسط عمر المرأة ٨٠ – ٨٢ فى حين أن متوسط عمر الرجل ٧٤).. وللمرأة الأمريكية قوة شرائية ضخمة فهى تنفق سنويا على شراء المجوهرات والساعات ماقد يبلغ ضعف ميزانية الحكومة المصرية.. كما أن تفرغ المرأة الأمريكية لأعمالها المنزلية دون مساعدة من الخدم هو السبب فى وجود أكثر من خمسين مليون مكنسة كهربائية فى المنزل الأمريكى وأكثر من خمسين مليون راديو وثمانين مليون جهاز تليفون ..

والمرأة الأمريكية مسئولة عن انفاق النقود المتداولة فى السوق الأمريكية.. فهى إما تكسب جزءا كبيرا منها بعرق جبينها – إذا كانت امرأة عاملة – وهو كثير الشيوع – أو تنال الجزء الباقى من زوجها الذى جرت عادته على تسليم الزوجة أغلب المرتب أول كل شهر.. والاحصاءات الأمريكية، تؤكد أن المرأة الأمريكية هى التى تملك أغلب نسبة من الأسهم والسندات الأمريكية، إما عن طريق شرائها مباشرة أو عن طريق وراثتها من الزوج فالمرأة تعيش أكثر من زوجها عادة.. وترثه ....

ولما كانت المرأة الأمريكية تتميز بشدة الوعى السياسى . ولما كانت هناك جماعات نسائية منظمة فى كل مدينة أو قرية فان مشروعات القوانين التى تضمن تأييد المنظمات النسائية تكون لها أكثر من فرصة فى النجاح .

وتتحكم المرأة الأمريكية فى نسبة المواليد، وهى وراء كل حركة لتحسين مستوى المنازل ورفع مستوى التعليم والصحة.. ونسبة كبيرة من المدرسين فى المدارس الصغيرة والأولية من النساء. بل إن النساء أصبحن يشكلن ١١٪ احد عشر فى المائه من عدد القوات المسلحة الأمريكية[1] .

وأغلب الاعلانات فى أمريكا موجهة إلى المرأة الأمريكية. ولاشك فى أن الاهتمام العظيم الذى توليه الصناعة الأمريكية إلى جمال مظهر منتجاتها يرجع إلى محاولة إرضاء أنواق النساء.. ويقول بائعو السيارات الأمريكية مثلا : إن التحسينات الأخيرة التى قفزت بجمال السيارة الأمريكية من حيث تعدد الألوان فى السيارة الواحدة واستعمال أحدث الألوان الجديدة وروعة «التنجيد» جاءت لارضاء المرأة الأمريكية.. كما أن المستحدثات الجديدة لتسهيل القيادة مثل أجهزة نقل السرعة الاتوماتيكية وتسهيل دوران عجلة القيادة وتكييف الهواء.. الخ جاءت لارضاء السيدات ولضمان اقبالهن على شراء السيارات الامريكية.. فان نسبة قائدى السيارات من النساء فى الولايات المتحدة هى أكبر نسبة فى العالم !

كذلك فان صناعة ملابس النساء وهى من أقدم وأكبر الصناعات

---

(١) فى أخر احصاءات سنة ١٩٩٠ تبين أن عدد المجندات الأمريكيات فى القوات المسلحة الأمريكية بلغ ٢٢٥ الف مجندة (مائتان وخمسة وعشرون الف مجندة) وهى نسبة تبلغ ١١٪ من العدد الاجمالى .

الأمريكية قاطبة، قد نشأت بناء على تفضيل المرأة الأمريكية شراء ملابسها جاهزة الصنع.. كذلك تكوّن النساء نسبة كبيرة جدا من رواد السينما وقراء الكتب والمجلات. ولا يمكن أن نغفل الدور الذى لعبته المرأة الأمريكية فى تحريم صناعة وبيع الخمور فى أمريكا حول مطلع القرن العشرين حتى سنة ١٩٣٠ وكان سببها عدم رضاء المرأة الأمريكية وثورتها على شدة إقبال الأمريكى على شرب الخمر ومدى تأثير ذلك على الحياة المنزلية الأمريكية وعلى تربية الأطفال والنشء.

وقد عبر كتاب كثيرون عن هذه الظواهر الأمريكية بقولهم : إن المجتمع الأمريكى مجتمع Matriarchal تسيطر عليه المرأة (١) .

(ب) أمريكا : بلد المتناقضات :

كما أنها بلد العجائب والمعجزات فإنها أيضا بلد المتناقضات ففى وسط كل مظاهر الغنى والثراء فى مدينة عظيمة ثرية مثل نيويورك تجد الكثير من الأحياء الفقيرة المتداعية القذرة والمهملة Slums.

ورغم أن مدينة نيويورك يسمونها The Big Apple التفاحة الكبيرة الشهية فإن نصفها «معطب» (عطب).. والغريب فى أمر

(١) اقرأ . america in Perspective 8
للمؤلف Henry S. Commager†††

نيويورك أن احياء ها الفقيرة تختلط باحيائها الثرية وليست منفصلة تماما عنها بل إنها تتداخل فيما بينها اللهم فيما عدا حى الزنوج التقليدى هارليم فهو منفصل ..

كذلك وسط ثراء الولايات المتحدة الفادح وتفوقها على كل العالم فاحصاءات أمريكا ذاتها تقول : إن ٤٠٪ من الشعب دون مستوى الفقرBelow the poverty Line وأن ٣٠٪ من منازل أمريكا ليس بها «بانيو» أو«دوش» و ٢٥٪ منها غير مزودة بدورة مياه بتاتا (١) .

وواضح أن الزنوج الأمريكيين هم الذين يستوعبون الجانب الأكبر من هذه النسب.. ورغم التقدم الكبير الذى حققوه فى ميدان الحقوق السياسية والحريات والتعليم، إلا أنه مازال أغلب فقراء أمريكا ينتمون إلى الجنس الأسود. وبرغم ذلك فمنهم الكثير من المتعلمين النابهين المثقفين والبارزين فى المجتمع الأمريكى عامة ..

إلا أن من صفات الأمريكى الأسود انه بمجرد أن يحقق شيئا من الثراء فإنه يسرع إلى شراء وقيادة سيارة أمريكية من أحسن الماركات واغلاها: كاديلاك فارهة مثلا.. ولن يكون أمريكيا أسود الا

---

(١) اقرأ †Inside USA بقلم john Gunther†
وهو يقع فى مجلدين . وقد ذكرت الصحف الأمريكية فى سبتمبر ١٩٩٠ أن حد الفقر Poverty line بامريكا حاليا هو الف دولار شهريا لعائلة من ثلاثة افراد وان ٣٠٪ من الامريكيين يعيشون دون حد الفقر !!

إذا قادها وفى فمه سيجار طويل ينفث دخانه ! فهذه من علامات الغنى ورمز المركز الاجتماعى Status Sympol ومن هنا فان سائقى التاكسى البيض فى نيويورك مثلا.. يتقاسمون هذه الصفة معهم اثناء قيادتهم لتاكسياتهم !!

ورغم ثراء المجتمع الأمريكى إلا أن الزائر للولايات المتحدة سوف يدهش لرؤية عديد من الشحاذين المفترشين للأرصفة أو الذين يجوبون الطرقات مادين يدهم طلبا للإحسان. وسوف تجد بعضهم من الشباب الذين اعتادوا حياة الكسل والبطالة وان كان الكثيرون منهم من المتقدمين فى العمر فإن برامج المساعدات الاجتماعية للمتقدمين فى السن أو العاطلين أقل اتســـاعا وشمولا من أمثالها فى بعض بلاد أوروبا الغربية المتقدمة فى ميدان الخدمات الاجتماعية .

ورغم تقدم الأبحاث الطبية العلمية وتألق أسماء كثير من أطباء وجراحى الولايات المتحدة إلا أن نفقات العلاج باهظة التكاليف.. والتأمينات الصحية الخاصة لدى الشركات المعنية أصبحت كذلك باهظة التكاليف بسبب مغالاة نقابات الأطباء فى تقدير أتعاب الأطباء لمواجهة احتمالات مقاضاة الأطباء ومطالبتهم بالتعويضات الفادحة فى حالات ارتكاب الخطأ فى التشخيص أو العلاج -Mal practicc وقد كثرت جدا حالات مقاضاة الأطباء فى أمريكا، وأصبحت مصدراً لربح البعض .

ورغم مجتمع الرفاهية الأمريكى فإن السعى وراء السعادة والاستمتاع بها The pursuit of Happiness هذا السعى المنشود وراءها مازال أملا لم يتحقق بعد على نطاق واسع.. فإن الدستور الأمريكى يضع «السعى وراء السعادة» من أهداف المجتمع الامريكى التى يكفلها الدستور - كما أنه من حقوق الانسان الأمريكى. والواقع أن الانسان الامريكى العادى ينشد السعادة طبعا ويسعى لتحقيقها سعيا حثيثا يتمثل فى جده ونشاطه وكثرة ساعات عمله لكن يؤخذ عليه أنه يقضى كل وقته أو أغلب وقته فى هذا السعى المنشود لجمع المال بحيث لا يترك لنفسه بعد ذلك فسحة من الوقت ليقف هنيهة ليستمتع بنتيجة ماحققه فى عمله وبثمرة جده واجتهاده كما يفعل الايطاليون وكثير من الفرنسيين مثلا. وكثير من علماء الاجتماع الامريكيين يشكون من هذه الظاهرة (١) .. ويعزون اليها بعض السبب فى نفور واغتراب بعض الشباب الأمريكى عن مجتمعهم Their Alienation وفى نقمتهم على سياسة بلدهم وعلى بعض اتجاهات سياساتها.. وقد زادت ظاهرة اشتراك الولايات المتحدة فى حرب فيتنام والقذف بمئات الالاف من شباب أمريكا إلى اتون تلك الحرب الطاحنة فى غابات اسيا - لاهداف لم يفهمها

---

(١) American in Perspective »
للكاتب Henry Commager

الشباب الأمريكي - زادت من اتساع رقعة شعور العزلة والنفور والاغتراب عن المجتمع Alienation وزادت من نقمة الشباب على مجتمع الرفاهية وتحديهم له وخروجهم على هذا المجتمع فى واحدة من إحدى صور شتى منها :

الالتجاء الى المخدرات Drugs على نطاق واسع جدا أو إلى اغراق احزانهم في الخمر أو ايجاد تنفس لشعورهم المكبوت بالغضب واليأس فى نـــواح مختلفة من العنـــف.. السطو المسلح أى Muggings أو الجماعات الارهــابية أو مسلك «العصبجيــة Hooliganism كـــل ذلك فى مجـتمع الســـعادة والرفـــاهية !) .

ورغم كرم الامريكى العادى واستعداده لفتح داره وقلبه للاغراب والأجانب بسرعة أكثر من أمثاله فى أوروبا - ورغم طيبة قلب الرجل الأمريكى بصفة عامة إلا أن مدن أمريكا الكبرى - كما هو متوقع - قاسية القلب.. تجد فيها كثيراً من مظاهر العنف التى تبرز الى السطح بسرعة - Excitability إذا ماالحتك الغريب حتى عن غير قصد بأحد من الامريكيين.. كما سوف يحزنك أن ترى الناس تسير فى طريقها ولا تعير أى اهتمام (Apathy) لعجوز أو سيدة نالها

الاغمـــــاء فى الطريق العام أو فى المتـــرو مثلا .. فسقطت أعياء أو جوعا .

كما أنه إذا حاولت استيقاف أحد المارة من الامريكيين فى أحد الشوارع بالمدن الكبرى مثلا لتسأله ليدلك على الطريق فأغلب الظن أنه لن يتوقف فى مسيرته بل سوف يسرع الخطى بعيدا عنك خوفا من أن تكون بسبيل محاولة للسطو المسلح عليه ؟ الى هذا الحد وصل الخوف Fear بالامريكيين من الاعتداءات والسطو المسلح فى المدن الامريكية Muggings حتى بات الامريكيون يتفـــادون السير ليـــلا فى الامـــاكن غير المطروقة ، ولا يحملون معهم إلا احـــدى البطاقـــات الائتمانية Credit Cards أو عشرة أو خمســة عشر دولارا فقط .. حتى إذا ما وقعوا ضحيــــة الســـــطو المسلح لم يحاولوا المقاومة ولم يفقدوا الكثير فى الآونة ذاتها .

هناك نوع أخر من الجرائم هى «الجريمة المنظمة Organized crime عن طريق العصابات المسماة [1] Crime Syndicates التى تفرض الاتاوات على العمال والمتاجر الصغيرة «لحمايتهم»

---

(١) اقرأ Inside U.S.A by john gienther

والتى تعيش فى ظل تحالفها مع بعض رجال السياسة المحليين وفى ظل حماية هؤلاء الساسة لهم نظير الرشاوى الشهرية أو السنوية التى تدفعها لهم المنظمات ..

وقد اثبتت تحريات وتحقيقات رجال ولجان الكونجرس الامريكى فى عديد من المناسبات تغلغل العصابات فى نيويورك لعمال ونقابات الشحن والموانىء . ومن أشهر هذه التحقيقات ماكتشفته لجنة السناتور كيفوفر سنة ١٩٥١ من أن عمدة نيويورك وليام اوداير (الذى صار بعد ذلك سفيرا لأمريكا فى المكسيك) استغل عموديته لنيويورك ليجمع ثروة طائلة من الرشاوى التى تقاضاها من نقابات عمال المدينة ونقابات الجريمة المنظمة.. حتى أن لجنة كيفوفر هذه وجهت نقداً علنيا الى العمدة اوداير لانه «تسبب مباشرة وغير مباشرة فى نمو الجريمة المنظمة والاحتيال والعصابات فى نيويورك وانه هو وموظفيه لم يتخذوا اجراءات حازمة ضد اصحاب نوادى القمار السرية وغرز الحشيش ومجرمى الموانىء وعمال الأرصفة والقتلة والسفاحين »(١) .

ومازالت الجريمة المنظمة فى أمريكا تسيطر على بعض المدن الكبيرة والصغيرة تلتف حول نوادى القمار وأوكار البغاء وماأشبه، حتى وإن قل انتشارها ونفوذها عن ذى قبل .

---

(١) وماباالنا بعمدة مدينة «واشنطن سنة ١٩٩٠ الذى قبض عليه وادين لثبوت حيازته واستعماله للمخدرات وتستره على عصابات المخدرات التى زودته بها ..

لكن من شأن انتشار الجريمة المنظمة واسبابها ودواعيها أن قل اقبال بعض الرجال الطيبين على الزج بأنفسهم فى السياسة وبخاصة فى حكومات الولايات والمدن.. ومن هنا فان مستوى الكثير من رجال السياسة المحلية (فى حكومات الولايات والمدن) يتسم بالانحطاط Mediocrity أى أنه لم يبلغ المستوى السياسى والقيادى الرفيع الذى تبوأته الولايات المتحدة كقائد للعالم الحر.. ومازال أغلب العمد ورجال الضبط وبعض حكام الولايات ضيقى الأفق محدودى التفكير لم ينالوا قسطا وافيا من الثقافة أو التعليم. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن أغلبهم من الطبقة الدنيا أو الطبقة المتوسطة الدنيا ويشتغلون بالسياسة لربحها المادى (١)، كما يرجع إلى هروب وعزوف طائفة المثقفين المحترمين عن العمل بالسياسة لسوء سمعتها .

كذلك فان سببا هاما فى هبوط مستوى رجال السياسة المحليين يرجع إلى ظاهرة انتشار الروح الريفية المنعزلة Provincialism – فى أواسط أمريكا وريفها القصى .. فان اتساع رقعة الولايات المتحدة اتساعا رهيبا – وشعور أهلها بالطمأنينة والحماية فى ظل هذه العزلة وهذا الانعزال عن العالم – واستغناء ها عن الاعتماد على الخارج ماديا واقتصاديا قد أدت الى انتشار شعور العزلة -Pro

(١) John geenther : Inside U.S.A

Provincia lism والاقليمية أو الانغلاق Insularity وبخاصة فى تلك المناطق البعيدة عن الساحل الشرقى ومنطقة كاليفورنيا وهما المنطقتان المعرضتان أكثر من غيرهما للعالم الخارجى .. وقد انتشرت هذه الصفات فى ريف أمريكا رغم كثرة الجامعات والمعاهد العلمية ووسائل الاعلام.. فالامريكى العادى لايتتبع مجريات العلاقات الدولية بل يقصر اهتمامه على الأمور الاقليمية الضيقة.. فالعالم الآخر بعيد عن اهتمامه تماما..

كذلك فمن الظواهر المحيرة مدى التباين مابين التخصص الشديد فى فرع من فروع العلم أو الثقافة والتبحر فيه، too much specialization مع ضيق الافق والجهل فى الوقت نفسه بمجريات الأمور العالمية أو غيرها من القضايا المهمة أو المعلومات العامة General knowledge

فالتعليم الأمريكى يشجع حقا على التبحر فى فرع من فروع العلم بحيث يصير الأمريكى حجة فيه لكنه قادر فى الوقت نفسه على اغفال أو إهمال التثقف بالمعلومات العامة General Knowledge أى أن.. التعليم الأمريكى فى مجموعه يشجع التخصص الشديد ربما على حساب المعلومات العامة الاقل اهمية فى نظر البعض فى أمريكا.

ولعل السبب الأكبر فى هذه الظاهرة – مرة أخرى – هو أن

الولايات المتحدة عالم مستقل منفصل عن العالم كله، عالم يجعل الفرد الامريكي يحسب أنه يعيش فى غنى عن الاعتماد على العالم القديم أو متابعة أحواله واموره. والواقع أن تجارة الولايات المتحدة مع العالم الخارجى لا تتجاوز قيمتها ٥٪ خمسة فى المائه من حركة التجارة الأمريكية ..

ومع هذا ورغم تبوء الولايات المتحدة لمركز القيادة والصدارة العالمية منذ الحرب العالمية الثانية الا أن ظروف الحرب وماتلاها من انجذاب الولايات المتحدة إلى مشاغل وأمور العالم القديم وماصحبه من تشجيع حركة السياحة الأمريكية الى أوروبا والاحساس بانكماش حجم المسافات، كل ذلك قد أدى أخيرا إلى إعادة تعريف الامريكيين باصولهم الأوروبية أو أصول آبائهم أو أجدادهم فى أوروبا .. وصحب ذلك ايضا اكتشاف الامريكيين لمدى قدم واصالة وعراقة الحضارة والثقافة الأوروبية بل وربما تفوقها على «طريقة الحياة الأمريكية» التى لم يتح لها النضج الكافى بعد لكى تقارن نفسها بحضارة وثقافة أوروبا .. ومن هنا شعور« مركب النقص الأمريكى» أمام الحضـــــارة الأوروبية القديمة وبخاصة حضارة انجلترا ولغة انجلترا .. رغم تفوق امريكا عليها ماديا وتكنولوجيا .. وحسب ! .

ج - دبلوماسي مصرى فى واشنطن ١٩٥١ - ١٩٥٦ :

تقع مدينة واشنطن فى منطقة فيدرالية ما بين ولايتى ماريلاند وفرجينيا «يسمونها منطقة كولومبيا» District of colombia وتبعد عن نيويورك ٢٢٠ ميلا جنوبى نيويورك (حوالى ٣٥٠ كيلو مترا) ولكنها تبعد عن البحر (المحيط الاطلسى - خليج تشيسابيك) حوالى ٧٠ - ٨٠ كيلو مترا . لكنها تقع على نهر البوتوماك وهو يكوّن حدها الجنوبى الذى يفصل بينها وبين ولاية فرجينيا .. ومع ذلك فقد امتدت واشنطن الكبرى لتصل بعض أحيائها (Suburbs الضواحى) شمالا عبر حدود ولاية ماريلاند وبعضها الآخر جنوباً عبر ولاية فرجينيا .. والاتجاه الغالب فى كل مدن أمريكا الكبرى حاليا هو التوسع السكانى فى الضواحى Suburbia بعيدا عن الضوضاء والازدحام فى المدن وسعيا وراء الهدوء والطمأنينة والأمان أيضا ..

وعند وصولنا إلى واشنطن فى مارس سنة ١٩٥١ كان سبعون أو ثمانون فى المائة من سكانها من السود .. ومازالت هذه النسبة قائمة حاليا بل تأكد بلوغها الثمانين فى المائة على الأقل .. وكانت واشنطن فى هذا تماثل مدن «الجنوب» الأخرى حيث كانت نسبة السود أعلى كثيرا عنها فى المدن الشمالية .. وآية ذلك أن حركة نقل الزنوج من أفريقيا إلى الولايات المتحدة (ظاهرة الرق) كانت تستهدف تشغيلهم فى المقام الأول فى حقول القطن والقصب فى

الولايات الجنوبية وليس فى الولايات الشمالية .. ومن هنا أيضا كانت الولايات الشمالية هى المدافعة عن مبدأ إلغاء الرق وتحرير العبيد في حين كانت الولايات الجنوبية هى المعارضة لتحرير العبيد مما أدى إلى قيام الحرب الأهلية (١٨٦٠) بين الشماليين The Yan-kees والجنوب والتى انتهت بانتصار الشمال وبتحرير العبيد ..

ورغم تحرير العبيد منذ نهاية الحرب الأهلية الأمريكية فقد كانت واشنطن فى ذلك العهد (١٩٥١ - ١٩٥٦) مدينة "جنوبية الطابع" .. بمعنى أن مسكن السود كان مقصورا على أحياء معينة فى وسط المدينة وفى شرقها .. وليس فى شمالها أو غربها مثلا حيث كان السكن مقصورا على الطبقات العليا من الجنس الأبيض .. ولم يكن الزنوج راغبين (ولا قادرين ماديا) على تعدى تلك المناطق إلى السكن فى أحياء الرجل الأبيض .. كما لم يكن يسمح لهم بدخول افضل المطاعم والفنادق والمنتديات الليلية.. وانما كانوا قد بدأوا دخول دور السينما فى الاحياء التجارية فى وسط المدينة. وبمعنى أخر فقد كان هناك فى واشنطن مجتمعان منفصلان وغير متداخلين، واحد للجنس الابيض وآخر للزنوج.. ولم نكن نرى الزنوج في واشنطن إلا عند مرور سيارتنا بالاحياء المكتظة بهم والواقعة مابين محطة سكة حديد واشنطن والحى الشمالى الغربى الـ N.W فى واشنطن.. حى الطبقات الراقية .

وقد تغير هذا الوضع الآن فى واشنطن وزادت ظاهرة الاختلاط عن ذى قبل وزاد انتشار سكنى الزنوج فى احياء كثيرة لم تكن احياؤهم من قبل.. مما دفع بالطبقات البيضاء الراقية الى الخروج من المدينة والى سكن الضواحى الجديدة فى ولاية ماريلاند شمالا، وفى ولاية فرجينيا جنوبا.. ومازالت هذه الضواحى مقصورة الى حد كبير على الرجل الأبيض..

والمعروف أن بدء انتشار انتقال الزنوج إلى حى أو أحياء بيضاء من شأنه بدء عملية خفض القيمة الايجارية فى مساكنها وخفض ثمن العقارات بالتالى.. لالشىء سوى أن مستوى معيشة الزنوج منخفض أو أقل ارتفاعا عن مثيله للرجل الأبيض.. كما أن أسلوب حياتهم وعاداتهم وطريقة معيشتهم تخالف كلها أساليب وامزجة الرجل الأبيض .

ورغم أن المحكمة العليا الفيدرالية قد أصدرت سلسلة من القوانين والأحكام [1] التى من شأنها إلغاء التفرقة العنصرية فى

---

(١) فى أوائل الخمسينات اصدرت هذه المحكمة حكما يقضى بعدم دستورية نظرية Seperate bict equal التى على أساسها قامت مؤسسات «خاصة للزنوج» بدعوى أنها متكافئة وإن كانت متفرقة عن مثيلاتها للبيض ومن هنا تم ادماج المدارس الخاصة بالزنوج مع مدارس البيض وتم نفس الشىء بالنسبة لسيارات نقل التلاميذ الزنوج وحدهم فاندمجت مع سيارات نقل البيض .. وهكذا .

التعليم وتأكيد حقوق الإنسان الأمريكي بصفة عامة إلا أنه مازالت هناك تفرقة واقعية بين الجنسين الابيض والأسود - تفرقة غير قانونية - لاتستند إلى حكم الدستور أو القانون وإنما أساسها الفروق الواضحة بين مستويات المعيشة والتعليم والعادات والامزجة.. وبمعنى أخر فإن أهم أسسها هي الفروق الاقتصادية والاجتماعية.. فالفقر من أهم أسباب الجهل والأمراض، والمساوىء الاجتماعية مثل ادمان المخدرات والجرائم الخلقية ..

وواشنطن اليوم تأتي على رأس مدن الولايات المتحدة من حيث عدد الجرائم ونسبتها الى عدد السكان.. ولم تكن كذلك في تلك السنوات الخوالي (١٩٥١ - ١٩٥٦) فقد كانت مدينة «جنوبية» هادئة وآمنة ووديعة.. ولم تكن تعرف بعد اخطار السير ليلا (أو حتى نهارا) في الأماكن المنعزلة وأهمها خطر التعرض للسطو المسلح من أجل ثمن جرعة من المخدرات .

وموقع واشنطن الجغرافي أو الطبوغرافي يجعل مناخها شديد الحرارة والرطوبة في فصل الصيف وأقل برودة عن نيويورك شتاء.. لكن الصيف والربيع والخريف هي الشهور المحببة الى الأمريكي العادي والذي اعتاد فيها جمع أفراد عائلته في واحدة من سيارتيه (ربما الاستيشن واجون) أيام عطلات نهاية الأسبوع والخروج "Hit the Road" للنزهة في واحدة من الأماكن الخلوية الجميلة العديدة

حول واشنطن فى اتجاه المحيط شرقا إلى خليج تشيزابيك ومدينة أنا بوليس حيث الاكاديمية البحرية، أو غربا إلى National Park Shenandoah ومغارات Lurray caverns وكلها لاتبعد أكثر من ٨٠ - ١٠٠ كم من العاصمة.. وإذا شاء النزهة قريبا من العاصمة ذاتها فهناك Mount vernon عزبة جورج واشنطن القريبة على نهر البوتوماك .. فضلا عن عديد من المتنزهات والحدائق العامة وأماكن الـ Picnic داخل العاصمة Rock Creek Park والمعالم التاريخية المقامة فى ميادينها وشوارعها وحدائقها Washington, Monument Jefferson Memorial Lincoln Memorial والأخيرة على شكل مسلة مصرية مرتفعة وهكذا..

فمدينة واشنطن مدينة جميلة حقا وهى حسنة التخطيط اذ وضع تخطيطها المهندس الفرنسى البارع Pierre L'Enfant واستوحى فى ذلك تخطيط مدينة باريس واتساع ميادينها وشوارعها وطريقة تفرع عديد من الشوارع من الميادين المستديرة Les Rond points.

وتقع أغلب سفارات الدول الأجنبية فى القطاع الشمالى والغربى North west من الحى الشمالى الغربى (شارع ماساتشوسيتش) وهو الحى الراقى وحى الأعمال فى واشنطن..

وتقع كل الدواوين الحكومية والبيت الأبيض حول وقرب طريق بنسلفانيا فى وسط ذلك الحى وان كان الكونجرس الأمريكى يقع بعيدا على Capitol Hill على وموقعه اقرب الى شرق واشنطن وجنوبيها .

وقد وفقنا فى العثور على شقة صغيرة مناسبة فى الحى الشمالى الغربى قريبا من شارع ماساتشوستيشى والذى تقع عليه أيضا السفارة المصرية .

ومن محاسن طريقة الحياة الأمريكية منذ ذلك الحين – والى الآن – سهولة الحصول على قرض من البنك الذى تتعامل معه وسهولة شراء أثاث منزل كامل بالتقسيط المريح وكذلك سهولة الحصول على قرض من البنك أو إحدى الشركات المتخصصة لشراء السيارة بالمثل.

وكانت واحدة من أولى رحلاتنا خارج واشنطن السفر إلى ساوث بند (ولاية انديانا) حيث مصانع سيارات «ستودبيكر» لتسلم سيارتنا الجديدة وقيادتها الى واشنطن (٨٠٠ كيلو متر) .

وفى طريق العودة مررنا على مدينة صغيرة يسبقها تل مرتفع.. ويفصل بين ذلك التل والمدينة منخفض كبير وممتد رأينا كل السيارات تنزله مسرعة ومندفعة بحكم الانحدار الشديد فى الطريق.. ويبدو أنه كانت هناك لافتات نصبت فى أماكن غير واضحة

وغير بارزة تحدد السرعة فى تلك الجهة بخمسة وثلاثين ميلا فى الساعة لم يلتفت اليها قائدو السيارات.. ولم التفت اليها أنا الآخر بحكم اندفاع كل السيارات امامى وخلفى وشدة انحدار الطريق واتساعه .

لكن كان هناك فى انتظارنا فى نهاية الانحدار وعلى أبواب المدينة فخ نصبه مسئولو الأمن والمرور فى تلك المدينة.. فاوقفوا جميع السيارات المسرعة وطلبوا من قائديها المثول أمام «قاضى المرور» الجالس على قارعة الطريق ومن حوله رجال الضبط والشرطة.. واصطف أمامى أكثر من عشرة من قائدى السيارات.. وكلما مثل أحدهم أمام القاضى أمره بدفع غرامة فورية قدرها ٢٥ دولاراً ! وكان مبلغا باهظا فى تلك الأيام الخوالى.. ولما كان دورى للمثول أمامه أخرجت له بطاقتى الدبلوماسية ولما عرف شخصيتى اعتذر عن ايقافى وعن تأخير سفرى وسمح لى بمعاودة السفر دون تحصيل الغرامة.. لكن كان قد تسبب فى تعطيل مسيرتنا على الأقل نصف ساعة كاملة. وقد افادنى هذ الدرس كثيرا اذ علمنى الالتفات الى علامات المرور وتفادى الوقوع فى أمثال ذلك الفخ.. وبعد سنوات من هذه الحادثة اخترعت الشركات الأمريكية جهازاً يضاف الى السيارة يكشف وجود أجهزة الرادار (١) فى الطرق السريعة

---

(١) Radar Detector

ويحذر اصحاب السيارات الى أمثال ذلك الفخ المنصوب حول أجهزة الرادار .

كانت تلك أياماً سعيدة هانئة لدبلوماسى مصرى شاب وزوجته وأن كانت حياة شاقة.. كانت مواعيد العمل بالسفارة من التاسعة صباحا الى الرابعة والنصف بعد الظهر. تتخللها ساعة واحدة للغداء.. ولما كنت أسكن قريبا من السفارة فقد كنت أعود للمنزل للغداء أغلب الأوقات.. فتناول الطعام فى المنزل كان ومازال ارخص كثيراً من تناول الوجبات فى المطاعم.. ولكن الأهم من ذلك هو محاولة كسر النهار الطويل الذى تقضيه الزوجة وحيدة منذ الصباح إلى المساء.. وهو وحده عبء ثقيل يضاف إلى أعبائها الأخرى فى تنظيف المنزل واعداد الطعام وكل الأعمال المنزلية الأخرى دون مساعدة من أحد. فأجرة الشغالة بالساعة فوق ماتتحمله ميزانية دبلوماسى صغير فى أمريكا ..

وبعد سنتين أو ثلاث سنوات من وصولنا إلى واشنطن واعتيادنا طريقة الحياة الأمريكية والعمل طوال النهار «قررت فى سبتمبر سنة ١٩٥٣ وشجعتنى زوجتى على ذلك - بدء الدراسة المسائية فى الجامعة الأمريكية بواشنطن [١] من أجل الحصول على الماجستير فى العلاقات الدولية.. فكنت أعود إلى المنزل فى الرابعة والنصف

---

(١) هى إحدى ست جامعات فى منطقة واشنطن .

للراحة بعض الوقت ثم للتوجه الى الجامعة لبدء الدراسة من السادسة مساء وحتى الثامنة أو التاسعة مرتين وأحيانا ثلاث مرات أسبوعيا.. وقد وفقنى الله الى نيل شهادة الماجستير فى صيف سنة ١٩٥٥ وكان موضوع رسالة الماجستير «العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٤٥ - ١٩٥٥».

كانت الدراسة عبئا اضافيا فوق اعباء العمل في السفارة طوال النهار كما كانت عبئا ماديا لا يستهان به على دبلوماسي مبتدىء.

فعند وصولنا الى واشنطن فى مارس سنة ١٩٥١ كنت «ملحقا» بالسفارة وهى أدنى درجات السلم الدبلوماسى ثم رقيت الى سكرتير ثالث فنلت علاوة جعلتنا نتنفس الصعداء قليلا.. ولم تلبث فرحتنا أن تبددت.

فبعد قيام ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ وبالتحديد فى ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٥٢ تلقت السفارة تعليمات برقية من القاهرة مفادها أن الحكومة قررت تخفيض «مرتبات الدبلوماسيين والملاحق الفنيين التجاريين والزراعيين والثقافيين والطبيين» بنسبة ثلاثين فى المائة من المرتب الشهرى على أن تسرى المرتبات الجديدة المخفضة ابتداء من مرتب أول أكتوبر: أى أن الحكومة امهلتنا عشرة أيام فقط لكى ندبر فيها أحوالنا ونرتب أمورنا على أساس المرتبات المخفضة الجديدة..

اجتمع اعضاء السفارة كلهم ليتشاوروا فيما بينهم.. واعدنا قراءة البرقية مرات ومرات.. وانتهينا الى أنه لا سبيل إلى محاولة اثناء القاهرة عن رأيها فيما يختص بمبدأ التخفيض أو تعديل نسبته أو تأجيل تطبيقه شهرا أو شهرين يتيحان لنا ترتيب أمورنا على مهل.. وكان معنا المرحوم السيد الدكتور محمد حسن الزيات حيث كان حينئذ مستشارا ثقافيا بالسفارة وعلمنا أنه سيضطر الى بيع سيارته ليتمكن من الوفاء بالتزاماته وسداد أقساط القرض الذى كان قد اشترى به أثاثه وسيارته وليتمكن من سداد مصروفات المدارس لأولاده .

ولاحظ بعض الحاضرين خلو برقية القاهرة من اشارة الى تطبيق التخفيض على «الملاحق العسكريين».. واقترح بعضهم أن تكون كلمة الملاحق الطبيين خطأ فى النص وأن المقصود هو الملاحق العسكريون.. لكن السيد الملحق العسكرى رفض هذه الفكرة وأعلن أنه بما أنه لم يرد اسمهم صراحة فى البرقية ولم يتلق أية تعليمات من وزارته بشأن التخفيض فسوف لا يتخذ أى اجراء فى هذا الشأن..

إلا أن مساعد الملحق العسكرى بالسفارة – وكان وقتئذ البكباشى محمد حافظ اسماعيل (مستشار الرئيس للأمن القومى فيما بعد) أعلن فى الاجتماع أنه لا يقبل أن يختلف وضعه عن

وضع زملائه بالسفارة وانه سوف يقتطع النسبة المقررة من راتبه ابتداء من أول اكتوبر (كما جاء فى البرقية وسوف ينحيها جانبا إلى أن تصل تعليمات وزارته .. وقد طبق علينا جميعا التخفيض المشار اليه.. وانخفض راتبى بمقدار الثلث ليصبح أقل من راتب سكرتير فى الأمريكية حيث إنى كنت مشرفا على قسم الصحافة بالسفارة وكانت سكرتيرتي الأمريكية من المتخصصات العارفات بشئون الصحافة والسكرتارية.. وأصبح راتبها يفوق راتبى الجديد..

ومن هنا فان قرار بدئى الدراسة من أجل نيل الماجستير - حتى بعد تخفيض المرتبات - كان يعنى تضحية مالية وضائقة اقتصادية فى المنزل.. ومع ذلك أقدمنا على هذا القرار وكانت مساعدة زوجتى لى فى اتخاذ القرار وتحمل نتائجه بل وفى اعداد الرسالة مساعدة قيمة حقا ..

كانت سفارتنا فى واشنطن من أهم سفاراتنا فى الخارج قاطبة. فقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية وقد توطدت وتأكدت مكانتها كزعيمة العالم الحر بلا منازع.. وكان سفيرنا فى واشنطن المرحوم الاستاذ/ محمد كامل عبد الرحيم من أقطاب الدبلوماسية المصرية، سفيراً محنكا ووكيلا سابقا لوزارة الخارجية وكان متزوجا من سيدة فاضلة ذات ثقافة عالية جدا ولا عجب فقد كانت كريمة المرحوم / محمد محمود باشا رئيس الوزراء الأسبق..

ومن ثم فان جميع أفراد السفارة كانوا مختارين اختيارا خاصا روعى فيه اختيار وجمع اكفأ العناصر واقدرها على أداء المهام الموكولة الى سفارتنا فى واشنطن منذ نهاية الحرب الثانية.. وكان على رأس تلك المهام اقناع الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى من أجل استعمال نفوذ وتأثير الولايات المتحدة للضغط على بريطانيا لقبول الجلاء التام والناجز عن مصر المستقلة.. ولا يقل أهمية عن المهمة الأولى تأتى المهمة الثانية وهى الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى والزام اسرائيل باحترام حقه فى وطنه ..

ومن هنا فقد وجد فى سفارتنا بواشنطن فى تلك الفترة طاقم قلّ أن يوجد مثله تحت سقف واحد فى أى سفارة أو فى أى مكان آخر فى وقت واحد .

فقد تضمن طاقم السفارة الدبلوماسى السادة المرحوم محمد عوض القونى الوزير المفوض بالسفارة والرجل الثانى (تبوأ بعد ذلك مناصب سفير مصر فى موسكو وفى لندن ثم مندوبنا الدائم بالأمم المتحدة ثم وزيرا للسياحة والمرحوم السيد محمد عبد الشافى اللبان مستشارا للسفارة (تبوأ بعد ذلك منصب وكيل وزارة

الخارجية وسفير مصر فى ســـويسرا) والســـادة أنور نيـــــازى مستشاراً للسفارة (وكيل وزارة التجارة فيما بعد) والمرحوم رشاد مراد مستشارا للسفارة (مدير مصلحة السياحة فيما بعد) أما طاقم الملاحق الفنيين فكان يشمل السيد / محمد حافظ اسماعيل ملحقا عسكريا مساعدا (كان هناك ملحق عسكرى وآخر جوى برتب كبيرة).

وكان طاقم الملاحق التجاريين يشمل الاستاذ/ عبد العزيز زايد كمستشار تجارى (رئيس مجلس ادارة بنك الاسكندرية فيما بعد) والاستاذ حسن عباس زكى كسكرتير تجارى (وزير الاقتصاد فيما بعد) .

أما المستشار الزراعى فكان الدكتور عبد الفتاح المرسى (وكيل وزارة الزراعة ومدير المكتب الإقليمى لمنظمة الأغذية والزراعة فى الشرق الأوسط وفيما بعد) .

أما المستشار الثقافى فقد كان المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات (وزير الخارجية فيما بعد ورئيس لجنة العلاقات العربية بمجلس الشعب سنة ١٩٩٠) ولما نقل الى وظيفة القائم بأعمال السفارة المصرية فى طهران عين محله كمستشار ثقافى الدكتور زكى نجيب محمود وهو غنى عن التعريف فهو واحد من أهم فلاسفة ومفكرى مصر .

أما المستشار العمالى فكان المرحوم د. عبد الرءوف أبـــو علم (وكيل وزارة العمل ومدير مكتب منظمة العمل الدولية بالشرق الأوسط فيما بعد) .

وكنت أنا مشرفا على قسم الصحافة والاعلام بالسفارة ردحا من الوقت.. ثم اثناء تولى الاساتذة انور نيازى ورشاد مراد رياسة المكتب كنت الذراع اليمنى لهما.. وبعد سنة ١٩٥٣ لما عين المرحوم الدكتور / احمد حسين (باشا) سفيرا لمصر فى واشنطن خلفا للمرحوم كامل عبد الرحيم جمع حوله فى قسم الصحافة بواشنطن طاقما شديد القوة والاحتراف مكونا من المرحوم الاستاذ جلال الدين الحمامصى مستشارا صحافيا يعاونه الاستاذ سمير سوقى وظللت معاوناً لهما فى قسم الصحافة فى واشنطن الى أن نقلت سكرتيرا ثانيا بسفارتنا فى تونس سنة ١٩٥٦ بناء على طلبى وباتفاق مع سفيرنا الجديد فى تونس المرحوم/ على كامل فهمى. وبوصول احمد حسين (باشا) على رأس سفارتنا فى واشنطن كان قد تحقق فعلا وبمساعدة الولايات المتحدة هدف جلاء انجلترا عن مصر بعد سنة ١٩٥٤ .

لكن بقى أمام أعضاء السفارة مهمتان «نيل مساعدات الولايات المتحدة الأمريكية عسكريا واقتصاديا (مشروع بناء السد العالى) والتأثير على اسرائيل من أجل احترام حقوق الشعب الفلسطينى .

وكانت مهمتى فى قسم الصحافة بواشنطن تقتضى منى إلقاء المحاضرات والاجتماع مع رجال الصحافة الامريكية ورجال الخارجية لاقناع الجمهور الأمريكى والمختصين بوجهات النظر المصرية ..

ومن محاسن الجمهور الأمريكى فى المدن الكبرى والولايات «المفتوحة» على العالم الخارجى إذ إن بعضها مغلق منعزل لا يهتم بالخارج كثيرا) إنه حسن التنظيم يتمتع بوجود منظمات فنية أو فئوية أو دينية تهتم كثيرا بتنظيم المحاضرات والندوات واللقاءات التى تنير الطريق أمام اعضائها فى المسائل التى تهم تلك المنظمات .

ومن هنا كانت تنهال على سفارتنا - وغيرها من السفارات بطبيعة الحال - الدعوات لإلقاء المحاضرات أمام الأندية الطلابية والنسائية والدينية (مسيحية أو يهودية) والجامعات والكليات وفروع المجلس الأمريكى للشـــئون الخارجية Council on Foreign Offaiss وهو واسع الانتشار فى أغلب انحاء الولايات المتحدة .

وكان عملى يقتضى منى قبول دعوتين أو ثلاث لإلقاء المحاضرات فى الأسبوع الواحد.. بعضها فى واشنطن ولكن الكثير منها فى المدن الأخرى وشتى الولايات. وكان هذا من محاسن عملى بقسم الصحافة فى واشنطن اذ أتاح لى رؤية نصف الولايات

المتحدة على الأقل ودراسة أحوال أهلها والتعرف الحقيقى على تلك القارة وهو مالم يكن متاحا بالمرة لو لم أعمل فى تلك المهمة.. وإذا مارجعت الى خريطة للولايات المتحدة لوجدت انى زرت (مدن) وولايات نيوانجلاند الست وكل الساحل الشرقى حتى فلوريدا جنوبيا فضلا عن بنسلفانيا واوهايووزكنتكى والاباما ولويزيانا وتكساس وفرجينيا وغرب فرجينيا والينوى.. وكاليفورنيا فى غرب الولايات المتحدة ..

حصيلة ضخمة لاى دبلوماسى عمل فى الولايات المتحدة تضاف الى حصيلتى عن طريق المحاضرات.. فقد ألقيت منها مالا يقل عن ثلاثمائة محاضرة فى الولايات المتحدة ابتداء من ١٩٥١ وحتى يوليو ١٩٥٦ ثم بعد ذلك حينما عملت فى نيويورك مرتين..

أما أول محاضرة عهد إلىّ بإلقائها فكانت فى نادى «يوم الأحد» Sunday Club فى إحدى كنائس مدينة واشنطن. وقد اعددت المحاضرة كتابة وقرأتها على الجمهور.. وحاولت جهدى الاّ أجعل قراءتى مملة للسامعين.. واجبت على اسئلتهم الكثيرة بعد المحاضرة.. ووجدت نفسى أكثر انطلاقا وبلاغة وتأثيرا على السامعين فى فترة الأسئلة والأجوبة التى تلت قراءتى للمحاضرة.. وهنا سطعت علىّ الحقيقة المجردة التى لم اتعلمها من احد الاساتذة وانما بحكم التجربة والخطأ.. إنه من الأفضل ألف مرة أن يرتجل

الخطيب محاضرته بدلا من قراءتها.. ولابأس، بل يستحسن أن تكون أمامه ورقة صغيرة تحوى أهم النقاط التى يود أن يتحدث فيها مرتبة ترتيبا منطقيا وسوف يكون تأثير المحاضرة المرتجلة أقوى وأشد كثيرا من المحاضرة المقروءة بشرط توافر عنصر اللغة السليمة طبعا ..

وبعد ذلك لم أقرأ محاضرة واحدة فى حياتى اللهم الا المحاضرات العلمية التى تحتاج إلى الاقتباس من بعض المراجع .

وكأنى بالولايات المتحدة وقد أصبحت استاذى فى فن المحاضرات فقد خرجت منها بتلك التجربة الفريدة التى أفادتنى وبقيت معى فى بقية حياتى الدبلوماسية وحتى الآن ..

ولم تقتصر رحلاتى واسفارى على مهمة القاء المحاضرات بل إن طريقة الحياة الأمريكية تعلم الأجانب محاكاة الأمريكيين فى كثرة السفر والتنقل.. وكما هو الحال فى أوروبا الغربية - وبالذات فى لندن - حيث يسكن كثير من الناس خارج العاصمة بمسافة ستين أو ثمانين كيلو مترا يقطعونها يوميا ذهابا وايابا الى مكان عملهم فى العاصمة، فان الامريكيين ايضا يقطعون نفس المسافات بل أطول منها فى التنقل اليومى - بالقطار أو بالسيارة - من الضواحى النائية إلى وسط المدينة حيث مقر عملهم ..

أما فى عطلات نهاية الأسبوع أو العطلات الصيفية فان قطع ٨٠٠ أو ٩٠٠ كيلو متر يوميا فى رحلة بعيدة أمر هين بالنسبة لقائدى السيارات فى أمريكا.. والطرق واسعة معبدة آمنة والسيارات قوية ومريحة.. ولايعبأ الأمريكى بطول الطريق..

وقد اعتدنا أن نفعل المثل.. وتعلمنا لذة السفر بالسيارة عبر آلاف الكيلومترات .. فمن واشنطن زرنا شلالات نياجرا وكويبك ومونتريال واوتاوا وتورنتو فى كندا، كما زرنا فلوريدا.. وكل رحلة من هاتين الرحلتين تعنى ثلاثة آلاف كيلومتر على الأقل.. وقد افادتنى هذه التجربة الأمريكية فيما بعد اذ شجعتنى على السفر بالسيارة من مدينة المكسيك الى نيويورك (خمسة آلاف كيلو متر ذهابا فقط بالسيارة.. ومن برانكيلا الى بوجوتا فى كولومبيا (١٥٠٠ كيلو متر) ومن ليما بيرو الى كوسكو (١٢٠٠ كيلو متر) ومن تونس الى القاهرة (٣٢٠٠ كيلو متر) وهكذا..

كانت هذه السنوات التى قضيتها فى واشنطن من ١٩٥١ الى يوليو ١٩٥٦ من أمتع واشق السنوات ومن أكثر السنوات التي قضيتها فى السلك الدبلوماسى فائدة. فقد هيأت لى فرصة العمل والإفادة من تجارب سفارة نشطة هامة غنية بالخبرات وبالعمل المثمر الجاد وتحت رؤساء أو مع زملاء كانوا خيرة الزملاء وخيرة الرفقاء وصفوة المعلمين والناصحين.. كما جمعت أيضا مابين

تجربة الدراسة الجامعية فى المحيط العلمى الأمريكى والاعداد لشهادة الماجستير فى واشنطن وما بين مخالطة المجتمعات العلمية والفكرية الأمريكية اينما كانت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فى جميع أركان الولايات المتحدة.. وقد شجعتنى هذه التجارب فيما بعد على الدراسة من أجل نيل الدكتوراة فى جامعة كولومبيا فى نيويورك اثناء عملى كمتشار فى وفدنا الدائم لدى الأمم المتحدة فى نيويورك، وبعد ذلك على قبول منحة علمية «كزميل» فى مركز الشئون الدولية بجامعة هارفارد فى بوستون ..

كانت اذن سنوات اقامتى فى واشنطن سنوات تكوين Forma- tive years واعدادا لدبلوماسى شاب لما ينتظره من مهام كثيرة وشاقة فيما بعد.. وهى فرصة أود لو اتيحت لاغلب شباب سلكنا الدبلوماسى .

بقى أن أذكر تجربة طريفة من سلسلة التجارب الطريفة المفيدة التى مررت بها فى واشنطن .

فبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بقليل ، ولعل ذلك كان فى سبتمبر أو اكتوبر ١٩٥٢ لا أذكر على وجه اليقين، تلقيت فى منزلى مكالمة تليفونية من شخص لا أعرفه.. ذكر أنه سكرتير السفارة الاسرائيلية بواشنطن واسمه «الياهو بن حورين» وانه يكلمنى بأمر سفيره الذى يرجو أن أبلغ السيد/ القائم بأعمال السفارة المصرية

(وكان وقتئذ المستشار محمد عبد الشافى اللبان اذ كان السفير متغيبا) أن سفارة اسرائيل بواشنطن قد تلقت رسالة هامة من حكومة اسرائيل موجهة الى حكومة الثورة الجديدة فى مصر. ومضى بن حورين يقول إنه مكلف بالاتصال بى وأنه مستعد لمقابلتى فى المكان الذى احدده من أجل تلقى الرسالة ونقلها الى السيد القائم بأعمال سفارتنا بأمل ابلاغها للقاهرة ..

اجبته بأنى سوف أبلغ السيد/ القائم بأعمال السفارة فى صباح اليوم التالى وانه يمكنه معاودة الاتصال بى تليفونيا لأبلغه بالنتيجة ..

وقمت فعلا بعرض الموضوع على الاستاذ «المستشار» محمد عبد الشافى اللبان.. وبعد أن تشاور سيادته مع زملائه ومساعديه بالسفارة أبلغنى بموافقته على أن استقبل الياهو بن حورين فى شقتى الخاصة وأن اتلقى رسالة الحكومة الاسرائيلية ..

وقد زارنى فعلا فى اليوم التالى السيد / الياهو بن حورين.. كان هو أيضا فى مثل درجتى وفى مثل عمرى.. وكان شخصا دمثا مهذبا.. وقد نقل الى رسالة حكومة اسرائيل الى حكومة الثورة فى مصر.. وكانت رسالة شفوية وتتلخص فى أن اسرائيل ترى فى قيام حكومة الثورة فى مصر فرصة سانحة وطيبة لبدء صفحة جديدة من السلام والوئام مع مصر حيث إنه لاتوجد خلافات اصيلة

بينهما.. وان مصالح الطرفين الواقعية من شأنها دفعهما الى محادثات السلام.. وان اسرائيل مستعدة لبدء مباحثات السلام مع مصر على المستوى الذى تراه مصر وفى المكان والزمان اللذين تحددهما القاهرة وبالطريقة التى تفضلها مصر، سرا أم جهراً ..

وقد شكرته ووعدته بنقل الرسالة الى رئاستى فى السفارة .

وقد نقلت الرسالة بحذافيرها الى السيد القائم بالأعمال الذى ابلغ بها القاهرة بدوره. ولم تتلق سفارتنا من القاهرة أى رد أو تعقيب ...

تابعت بعد ذلك حياة السيد / الياهو بن حورين من على بعد.. وعرفت بعد سنين طويلة أنه تبوأ مركز سفير اسرائيل فى بون.. وكنت أنا ايضا قد بلغت درجة السفير وتوليت رياسة بعض السفارات ..

لكنا لم نعد ابدا لمعاودة الاتصال بعد زيارته لى فى منزلى ولم اره فى حياتى بعد ذلك ابدا ...

الفصل الخامس

هل من وسيلة لفهم السياسة الأمريكية ؟

(١) الولايات المتحدة جمهورية فيدرالية اتحادية من خمسين ولاية يرأسها رئيس جمهورية منتخب.. لكن الولاية هى «نواة» النظام السياسى فى الولايات المتحدة فهى ليست مجرد مديرية أو محافظة بالمعنى المصرى.. فحق المواطن الأمريكى فى الانتخاب مستمد من دستور ولايته وليس من الدستور الفيدرالى.. وهكذا لا يتمتع سكان مقاطعة كولومبيا (مركز العاصمة واشنطن) بحق الانتخاب فى مقاطعة كولومبيا لأنها ليست ولاية . كذلك فان رئيس الجمهورية لاتنتخبه الأمة أو الشعب لكن فى الحقيقة تنتخبه الولايات عن طريق مندوبين رسميين لكل ولاية فيما يسمى بالجمعية الانتخابية The Ele ctoral College ويمكن تماما لرئيس الجمهورية أن ينتخب بحكم نواله أغلبية اصوات الجمعية الانتخابية أى أصوات الولايات حتى إذا لم ينل أغلبية أصوات الشعب وقد حدث هذا فعلا من قبل .

ولكل ولاية برلمانها ودستورها وقوانينها الخاصة التى قد تخالف دساتير وانظمة الولايات الأخرى اختلافا لايستهان به.. وللولايات حق الاشراف والتصرف فى المدن التى تقع فيها صغرت أم كبرت هذه المدن.. وهكذا فان عاصمة ولاية نيويورك (مدينة البانى) تتحكم فى أجور مواصلات مدينة صناعية كبرى مثل نيويورك.. ورغم احتمال قيام أعمال مشتركة كثيرة مابين الولايات والحكومة الفيدرالية (الرى والطرق والكبارى.. الخ) إلا أن هذا لا يعنى الانتقاص أو الحط من نفوذ الولايات سياسيا واحتمالات تأثيرها على سياسة الحكومة الفيدرالية، فى الميادين الداخلية والخارجية .

ولكل ولاية حاكمها ونائب الحاكم والوزراء وكلهم بالانتخاب الفردى.. وقد ينتخب حاكم «ديمقراطى» ونائبه «جمهورى» وهكذا.. كما لكل ولاية مجلساها التشريعيان ..

(٢) أما رئيس الجمهورية فأساس قوته الشعبية العظيمة التى تحيط بانتخابه عادة وبمنصبه، وامكانيات توجهه الى الشعب مباشرة على الراديو والتليفزيون لكسب تأييده ضد منافسيه فى الحكم وهم الكونجرس ورجال السياسة فى الولايات أو حول الحكومة الفيدرالية.. كما أن رئيس الجمهورية بحكم رياسته للوزراء فى أمريكا (أى أنه لا يوجد منصب رئيس الوزراء فهو اختصاص رئيس الجمهورية ايضا وبحكم رياسته للسلطة التنفيذية يتمتع

بامكانيات هائلة فى ميدان توزيع الغنائم والاسلاب كالمناصب السياسية على انصاره ومؤيديه بعد توليه الرياسة.. ومن هذه المناصب التى يملك الرئيس توزيعها على اصدقائه ومؤيديه أغلب مناصب الحكومة الفيدرالية الرفيعة كوكلاء الوزارات والسفراء بل حتى وظيفة ناظر مكتب البريد (بامريكا أكثر من خمسين الفا منها) بل يملك الرئيس تعيين بعض القضاة (فالقضاة فى أمريكا نوعان: معين ومنتخب حسب اللون الحزبى) وفقا لدستور كل ولاية .

(٣) وقد راعى الآباء المؤسسون للحكومة الفيدرالية فى أمريكا أن تكون السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية منفصلة الواحدة عن الأخرى لكن أن تقوم كل منها بالإشراف على قطاع أو قطاعات من أعمال الأخيرتين فيما يسمى بنظام «الضوابط والتوازن» Check s and Balances System.

لكن الواقع – كما ثبت عمليا – أن سلطة الكونجرس فى الضبط والرقابة على أعمال السلطة التنفيذية اقوى كثيرا من قوة السلطة التنفيذية فى الرقابة والضبط على السلطة التشريعية .. فلمجلس الشيوخ الأمريكى The Senate وحده حق الموافقة على المعاهدات مع الدول الأجنبية التى من حق الرئيس إبرامها لكنها لا تصبح نافذة الا بموافقة مجلس الشيوخ كما أن المجلس يقر المخصصات المالية والمساعدات الاقتصادية للدول الأجنبية وفقا لتوصيات الرئيس (وقد يرفضها المجلس أو يعدلها) كذلك المجلس اقرار أو

ايقاف أو تعديل برنامج الحكومة الذى انتخبت على أساسة . ورغم أن للرئيس حق الاعتراض Veto على تشريعات الكونجرس لكن الكونجرس له حق التغلب على فيتو الرئيس بثلثى الأصوات بل إن له حق عزل الرئيس بثلثى الأصوات Im peachwent وله حق محاكمة الوزراء وكبار موظفى الدولة ..

ومن هنا يلجأ بعض الرؤساء إلى تنفيذ نواحى سياساتهم الخارجية تحت ستار الكتمان لئلا يصطدموا باعتراض الكونجرس عليها .. (ظاهرة Irangate) ويؤكد كثير من كبار الكتاب الصحفيين الأمريكيين أن الرئيس روزفلت خطط لدفع اليابان دفعا لمهاجمة بيرل هاربور فى هونولولو حتى يثير الرأى العام الأمريكى ضد اليابان (وكان الرأى العام ضد دخول الحرب حتى تلك اللحظة) وحتى يستطيع دخول الحرب فى صف انجلترا وفرنسا ضد المانيا واليابان [1] .. كذلك فان فضائح ووترجيت وإيران جيت جاء ت دليلا على انغماس رؤساء أمريكيين متعاقبين فى هذا النوع من التستر بالكتمان لتنفيذ مخططات معينة فى السياسة الخارجية والداخلية بعيدا عن رقابة الكونجرس . لكن هناك خطر الفضائح فى حالة اكتشافها بطبيعة الحال ..

(١) هذا ما أكده Rear, Ofmiral Robert The obold قائد البحرية الأمريكية فى بيرل هاربور وايدته صحف أمريكية كثيرة .

ولما كان إعلان الولايات المتحدة الحرب على دولة أخرى من اختصاص الكونجرس وحده فقد عمد رؤساء أمريكيون متعاقبون إلى شن حملات عسكرية ضد أعداء الولايات المتحدة دون اذن الكونجرس ودون الاضطرار لطلب إذنه لإعلان الحرب [1] .

كذلك جاء اعتراف الرئيس ترومان باسرائيل بعد ساعة واحدة من إعلان استقلالها دون موافقة الكونجرس بل ضد نصائح وزارة الخارجية الأمريكية المتعاقبة .

(٤) ولد النظام الحزبى سنة ١٧٩٣ بانشاء الحزبين الجمهورى والديمقراطى وهما أهم حزبين وهناك أحزاب أخرى قليلة الأهمية ..

والحزب الجمهورى حزب أصحاب الصناعة الضخمة ولهذا فهو أكثر محافظة ، فهو حزب الأغنياء الذين يتبنون سياسات تستهدف المحافظة على مصالح الطبقات الثرية ومصالح أصحاب الأعمال (ويرمز لهذا الحزب بالفيل) ويؤمن الحزب بمبادىء الرأسمالية الكلاسيكية Laissez-. Faire وبأقل قدر من التدخل الحكومى فى الاقتصاد .

---

(١) الغارة على طرابلس ومحاولة غزو كوبا فى خليج الخنازير ، بل وكل حرب فيتنام جاءت دون إعلان الحرب .. وأخيرا مغامرات أمريكا فى نيكاراجوا وبنما .

ولن ننسى لا تنسى دور حكومة الرئيس ليندون جونسون سنة ١٩٦٧ فى مساعدة إسرائيل وتسهيل مهمتها فى حرب الأيام الستة .. راجع كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «الانفجار سنة ١٩٦٧» .

أما الحزب الديموقراطى - ويرمز له بالبغل - فهو حزب الرجل الصغير وصغار المزارعين والأجناس المختلطة التى تشكل أغلب سكان المدن الكبرى . ويحتكر هذا الحزب ولايات الجنوب فى الولايات المتحدة . فى حين أن الحزب الجمهورى يحتكر ولايات نيوانجلان (شمال شرقى أمريكا) فيما عدا ولاية ماساتشوستش الديموقراطية، ويحتكر أيضا وسط الولايات المتحدة الانعزالى المغلق.

وهناك من يطلقون عليه الحزب الثالث أى حزب أصحاب الأصوات المستقلة من الناخبين الذين لا ينتمون إلى واحد من الحزبين الآخرين ويقررون فى آخر لحظة التصويت لمرشح هذا أوذاك .. ولا يقل عدد المستقلين عن $\frac{1}{3}$ أصوات الناخبين عادة ولهذا تتجه جهود كافة المرشحين من الحزبين الكبيرين إلى «مغازلة المستقلين» لنيل أصواتهم .

(٥) لم يشأ واضعو الدستور الأمريكى أن يجعلوا انتخاب رئيس الجمهورية متروكا للشعب أو للأحزاب وممثليها فى الكونجرس حتى يكون الرئيس مستقلا عن أيه ضغوط من هذه الناحية .. ومن ثم عمدوا إلى خلق أداة ثالثة لانتخاب الرئيس أسموها «الجمعية الانتخابية» تعينها الولايات وتتكون من عدد من الممثلين الموثوق من صلاحهم وعلمهم يوازى عدد نـواب وشيوخ كل ولاية فى

الكونجرس [1] . وتجتمع هذه الجمعية فى دار برلمان الولاية لانتخاب مرشح واحد من مرشحى الأحزاب للرياسة وقد سبق انتخاب رؤساء للجمهورية بسبب نوالهم غالبية أصوات «الجمعية الانتخابية» رغم عدم نوالهم غالبية أصوات الناخبين فى عموم الولايات المتحدة .

(٦) يتكون الكونجرس الأمريكى من مجلس الشيوخ وهو يضم شيخين عن كل ولاية من الولايات الخمسين ، ومجلس النواب الذى يوضع عدد ممثليه على أساس نسبة تعداد كل ولاية .. ومجلس الشيوخ أوسع نفوذا من مجلس النواب فلمجلس الشيوخ الإشراف الأقوى على السياسة الخارجية ، والتصديق على المعاهدات وإعلان الحرب ، والتصديق على ترشيح السفراء الأمريكيين للخارج والموافقة على برامج المساعدات الخارجية ، وحق محاكمة رئيس الجمهورية إذا وافق ثلث أعضاء المجلس وحق محاكمة كبار موظفى الدولة وتكليفهم بالحضور أمام الكونجرس للإدلاء بشهاداتهم ، وحق الإشراف على تنفيذ السلطة التنفيذية لدستور وقوانين وتشريعات

---

(١) لما كانت ولاية نيويورك التى تشمل مدينة نيويورك أكبر الولايات تعدادا فان لها أكبر عدد من الأصوات فى الجمعية الانتخابية وهو ما يعطيها نفوذا كبيرا فى انتخاب رئيس الجمهورية فلا ينتخب أحدهم رئيسا للجمهورية إلا إذا ضمن الأصوات الانتخابية لولاية نيويورك .. ويتحكم اليهود فى نسبة كبيرة من أصوات نيويورك كما هو معلوم ..

البلاد .. وحق الاطلاع على وثائق وملفات الدولة وملفات جميع الموظفين .. ومدة عضويته ست سنوات .

أما مجلس النواب فمدة عضويته سنتان فقط وله الاشراف الأوسع على المخصصات المالية وميزانية الدولة . كذلك فى حالة فشل أحد المرشحين لرياسة الجمهورية فى الحصول على العدد اللازم من الأصوات التشريعية (١) فان مجلس النواب – لا مجلس الشيوخ – هو الذى يختار رئيس الجمهورية من بين المرشحين .. إلى هذا الحد بلغ توزيع السلطات بين السلطات الثلاث ..

(٧) ولجان الكونجرس الأمريكى (شيوخا ونوابا) هى المؤثرة الأولى فى الكونجرس والمسيرة الحقيقية لاعماله .. اذ يحتم النظام البرلمانى الأمريكى أن تمر جميع مشروعات القوانين وقرارات المجلسين على اللجان المتخصصة الفنية أولا وهى التى تتخذ قرارا بشأنها : إما اقرار المشروع أو القرار وتقديمه إلى المجلس أو أن تدخل عليه التعديلات اللازمة أو أن ترفضه كلية ، أو قد تقرر تجميد المشروع كلية (تركه ليموت) فى اللجنة المختصة دون اتخاذها أى إجراء بشأنه ... وفى هذه الحالة لا توجد وسيلة لاحيائه أو إنقاذه.

كما أن هناك لجنة شديدة النفوذ اسمها لجنة اللوائح والأنظمة Rules Committee وهى اللجنة الإدارية المختصة التى تمر فيها –

---

(١) أى أصوات الولايات فى الجمعية الانتخابية

أولا - جميع المشروعات بقوانين لتضع ترتيبا معينا لعرضها على واحدة من اللجان الفنية المختصة بعد ذلك - ولها أن تقدم مشروعا على آخر أو تؤخر مشروعا ما شاء لها التأخير ..

وهناك ١٥ لجنة دائمة بمجلس الشيوخ و١٩ لجنة دائمة بمجلس النواب . وينتخب أعضاء تلك اللجان كلا من المجلسين مكتملين (الشيوخ والنواب) ويصبح أقدم أعضاء اللجنة الذى ينتمى إلى حزب الأغلبية أى الحزب الحاكم رئيسا للجنة أوتوماتيكيا .. ومن هنا فان رؤساء اللجان عادة ما يكونون من أكبر الأعضاء سنا وأقدمهم خدمة فى المجلس ويتمتعون بنفوذ كبير فى ميدان السياسة الأمريكية.

(٨) اما كيف يصوت اعضاء الكونجرس فهذه من أعقد الظواهر الامريكية السياسية.

فالمفروض أن يصوت أعضاء حزب الأغلبية فى صف رئيس الجمهورية فهو عادة ما يكون رئيس ذلك الحزب .. والمفروض أيضا أن يصوت أعضاء حزب الأقلية أى حزب المعارضة ضد سياسة الحزب الحاكم وضد سياسة رئيس الجمهورية (اللهم إلا فى المسائل التى لا تحتمل النزاع ضمانا للمصلحة العامة) .. لكن ليس هذا حتما النظام المتبع فى الكونجرس الأمريكى .. فهناك عدة عوامل تتحكم فى كيفية تصويت الأعضاء على المسائل العامة ، وأحيانا

كثيرة بخلاف اللون الحزبى ، وأحيانا كثيرة أيضا ضد المصلحة العامة ، وضد مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ...

(٩) فهناك احتمالات التصويت وفقا للتبعية لكتلة من « الكتل الاقتصادية» Economic Blors وتطلق على جماعة من أعضاء الكونجرس سواء فى الشيوخ أو النواب تجمعهم – خلافا لانتماءاتهم الحزبية – مصالح اقتصادية واحدة تجعلهم يصوتون بما يضمن مصالح اقتصادية معينة قد لا تتفق مع مصلحة حزبهم أو حتى مع مصلحة الدولة .. ومن هذه الكتل كتلة الزراعة – كتلة المصالح العمالية – كتلة الفضة .. مثال ذلك كتلة الفضة التى تضم ١٤ شيخا جمهوريا وديموقراطيا فى مجلس الشيوخ يمثلون ٧ ولايات غربية – بها مناجم الفضة – أهمها نيفادا التى بها حوالى ٣٠٠٠ منجم فضة .

ويمثل هؤلاء الأربعة عشر شيخا حوالى عشرة ملايين نسمة لكنهم يمثلون من الأصوات فى المجلس ما يعادل أصوات سبعة شيوخ آخرين قد يمثلون ستين أو سبعين مليونا ، لكن استطاعت كتلة الفضة بفضل مناوراتها وتآزرها سنة ١٩٤٦ (برفضها إقرار مشروع الميزانية) أن تضطر الكونجرس بأكمله أن يقر قانونا بحماية أسعار الفضة حماية صناعية (أى دعمها) حتى تستمر المناجم فى ولاياتهم فى العمل .. وذلك على حساب جمهور المستهلكين الأمريكيين فى كل الولايات المتحدة ..

كذلك هناك ظاهرة الفردية أو الانفرادية Indiridualism أو أيضا ظاهرة ضيق الأفق Provincialism ، وهى الظاهرة التى قد تدفع بشيخ أو نائب إلى الخروج على مواقف حزبه ، إما عن عقيدة استقلالية أو اقتناع بوجهة نظر خاصة أو عن جهل وعناد .. وهى ظاهرة منتشرة فى الكونجرس الأمريكى .. وإما بسبب الوقوع تحت تأثير جماعة من أصحاب المصالح الخاصة .. وهى أيضا ظاهرة منتشرة فى التصويت .

(١٠) الفرق والجماعات الحزبية : الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أنه على الرغم من وجود حزبين رئيسيين ممثلين فى الكونجرس إلا أنه - واقعياً - توجد خمسة أحزاب أو إن شئت الدقة خمس جماعات حزبية:

أ - الجمهوريون المعتدلون أو التقدميون الذين يدركون وجوب الاعتدال وعدم التمسك بالمبادىء «المحافظة» الشديدة وذلك تمشيا مع اتجاهات الرأى العام الأمريكى الحديثة .

ب - الجمهوريون الرجعيون المتمسكون بمبادىء الحزب التقليدية «المحافظة» .

جـ - الديموقراطيون «اليمينيون أو المعتدلون» وهم الذين يقابلون الفريق الأول أى الجمهوريين المعتدلين .

د - الديموقراطيون اليساريون أى المغالون فى تبنى المبادىء

الإصلاحية (الأقرب إلى الاشتراكية وإن كان هذا التعبير لا يرضى الأمريكيين اذ يخافون من لفظة الاشتراكية) .

هـ - فريق الديموقراطيين من الولايات الجنوبية فى أمريكا وهم يجمعون ما بين الرجعية أو المحافظة فى السياسة الداخلية (لكثرة عدد الزنوج فى الولايات الجنوبية) وما بين التقدمية والليبرالية والعالمية فى المسائل الخارجية .

وقد لاحظ المراقبون السياسيون الأمريكيون أنه فى ظل الحكم الديموقراطى (أى تولى الحزب الديموقراطى الأغلبية) تأخذ الفرقة الأخيرة (هـ) زمام القيادة داخل الكونجرس .. وذلك لأن رؤساء اللجان دائما يكونون أقدم أعضاء تلك اللجان .. وحيث إن الجنوب فى أمريكا ينتخب دائما الحزب الديموقراطى ولا يغير شخص ممثليه من الحزب الديموقراطى فهم يضمنون رياسة اللجان تحت أى نظام يتولى فيه الحزب الديموقراطى الحكم .. وهنا تسيطر الفرق الممثلة للولايات الجنوبية : تقدمية ليبرالية فى المسائل الخارجية شديدة المحافظة فى المسائل الداخلية .

أما فى ظل الحكم الجمهورى - فان القيادة غالبا ما تذهب إلى فريق الجمهوريين المتزمتين الرجعيين الذى يمثلون غالبا ولايات نيوانجلند - ما عدا ما ساتسوسيتش - والولايات الوسطى والذين بفضل أقدمياتهم أيضا فى اللجان يتولون رياستها .. ووسط الولايات المتحدة معروف برجعيته وتبنيه للمبادىء المحافظة ..

(١١) وفى رأى عدد من الخبراء السياسيين والبرلمانيين أن الخط الفاصل ما بين نفوذ السلطتين التنفيذية والتشريعية فى أمريكا عائم وغير مستقر .. وتتوقف ملامح هذا الخط وموقعه إلى حد كبير على قوة شخصية القائمين بالسلطتين فى أى زمن من الأزمان .. وعلى مدى رغبتهم فى التساهل وكذا على مهارة رئيس الجمهورية فى كسب تأييد وولاء رؤساء اللجان وزعماء الكونجرس ، وعلى مدى مهارته فى كسب تأييد الشعب له اذا ما حدث تصادم أو خلاف ما بينه وبين الكونجرس .

كذلك تتوقف النتيجة النهائية أو المحصلة النهائية فى عديد من القضايا المهمة - إلى جانب ما سبق - على مدى اهتمام جماعات التأثير وأصحاب المصالح بتأييد قضية معينة ، ودرجة تأييد الكونجرس لها أو على العكس موقف رئيس الجمهورية إذا كان مخالفا لرأى الكونجرس .

(١٢) جماعات التأثير : الجماعات ذات المصالح الخاصة والمشتغلون من وراء الكواليس

إن نظام اللجان التابعة للكونجرس ، وبها يكتب ويقرر مصير كل التشريعات الأمريكية ، يخضع إلى حد كبير لتهديد وإغراء جماعات التأثير [١] وذلك لأن هذه الجماعات لا يمكنها شراء جميع أفراد

---

(١) كلمة Lobbyists وتعنى بالإنجليزية العاملين داخل الأبهاء (جمع Lob by أى أبهاء الكونجرس وبمعنى آخر ممثلو أصحاب المصالح الذين يجتمعون مع أعضاء الكونجرس داخل ابهاء الكونجرس وكواليسه .

الكونجرس لكنها استطاعت فعلا شراء أفراد بعض اللجان الصغيرة بالكونجرس والاحتفاظ بسيطرة كاملة عليهم ..

«إن أصحاب الحكومة فى واشنطن هم أصحاب رءوس الأموال ورجال الصناعة الضخمة الذين بإمكانهم إملاء جميع التشريعات الهامة».

لست صاحب هذه الكلمات السابقة - وإن كنت أتفق مع مضمونها - وإنما صاحبها هو وودرو ويلسون أحد رؤساء الجمهورية الأمريكية وقد ظل يردد هذه الكلمات منذ ١٨٩٥ وحتى ١٩١٢ .. وقد أقر الرئيس هارى ترومان هو الآخر ما توصل إليه وودرو ويلسون من نتيجة فعزى إلى كبار رجال الصناعة تدمير قوانين تحديد الأسعار التى كانت قد أقرتها الحكومة أثناء الحرب العالمية الثانية لحماية المستهلك من استغلال رجال الصناعة .. لكن كيف تم ذلك ... عن طـريق حملة عاتية قـام بها اتحـاد رجال الصنـاعة للتأثير على رجـال الكونجرس والمنظمات الطلابية والنسائية ، أنفق فيها الاتحاد ملايين الدولارات لكن تمكن بموجبها فى النهاية من إلغاء قوانين تحديد الأسـعار التى استهدفت حماية المستهلك من استغلال أصحاب الأعمال والصناعات .

وما برحت جماعات التأثير تلعب إلى يومنا هذا دورا خطيرا فى

التأثير على المشرعين الأمريكيين لمصلحتها الخاصة .. وقد أفرد الشيخ (سناتور) بول دوجلاس كتابا خاصا عن هذه الظاهرة الأمريكية الخطيرة أسماه« النهب الكبير في واشنطن (سنة ١٩٥٠) . Big Grab at Washington

كذلك اعترف شيخ (سناتور) آخر هو سناتور لا فوليت بخطورة دور جماعات التأثير فقال «الكونجرس هو مركز الثقل السياسى فى نظام حكمنا الحالى لأنه إنما يعكس إرادة الشعب فى تكوين سياسة الدولة . لكن كثيرا ما يحدث أن تُمسخ أرادة الشعب ولا تصل إلى الكونجرس صحيحة بسبب تدخل أصحاب المصالح وذوى النفوذ والتأثير Lobbyists .. فيجد المشرعون انفسهم محاطين بأسراب من أصحاب المصالح يحاولون حماية شطر صغير من الاقتصاد أو تنمية مشروع محدود النفع .. وهكذا يجد المشرعون من الصعب عليهم أن يتبنوا إرادة الغالبية من الشعب أو أن يشرعوا بما يتمشى مع مصالحها » .

«وهؤلاء الوسطاء يحاولون تحويل رغبات طائفة قليلة من الشعب وأمانى الفرق التى يمثلونها إلى سياسة أهلية عن طريق إدخالها فى تشريعات الكونجرس عن طريق تغيير نظام الضرائب بما يلائم مصالحهم أو عن طريق إستعمال نفوذهم لانقاص أو

لإلغاء مخصصات وزارات أو هيئات لا يؤيدونها أو زيادة مخصصات المؤسسات التى تحقق مصالحهم» نهاية الاقتباس .

ويستعمل أصحاب المصالح الخاصة أحد طريقين للوصول إلى رجال الكونجرس للتأثير عليهم ، الطريق المباشر ، أو الطريق غير المباشر عن طريق «الجذور» Roots أى التأثير على ناخبى دوائر رجال الكونجرس فى الولايات حيثما كانت ، أو عن طريق التأثير على أجهزة الإعلام المحلية أو الفيدرالية أو عن طريق بعض الصحف فى واشنطن نفسها والتى قد تؤدى دور جماعات تأثير هى الأخرى (١) ...

ومن أمثلة أهم جماعات التأثير والمصالح الخاصة كبرى شركات التأمين الأمريكية والجمعيات النسائية (التى تمكنت من تحريم صناعة وبيع الخمور من ١٩٠٠ – ١٩٣٠) وجمعية المحاربين القدماء والبناى بريث Bnai breth اليهودية . ومن أمثلة الاتحادات والجماعات التى تعتبر واسعة النفوذ فى هذا الميدان بتعدد أعضائها اتحادات نقابات العمال ، واتحاد الغرف التجارية والجمعيات اليهودية والصهيونية الأمريكية (تمثل ٧–٨ ملايين نسمة فى أمريكا) والجمعيات النسائية .. واتحاد أصحاب الصناعات ... وجمعية البندقية أو المسدس Gun التى تمكنت عبر السنين من هزيمة كل محاولات منع حيازة الأسلحة النارية .

---

(١) نقلا عن الكاتب الصحفى الأمريكى A - j- hiebling

وقد شكل الكونجرس الأمريكي نفسه عدة لجان على مر الأجيال للتحقيق فى مدى انتشار نفوذ هذه الجماعات بين أفراده ، وكيفية ووسائل العلاج ، لكنها كلها أجمعت على أن جماعات التأثير وأصحاب المصالح وممثليهم   في واشنطن قد أصبحوا جزءا من النظام السياسى الأمريكى لايمكن التخلص منه إلا بإلغاء الكونجرس لحق التظلم أو حق الالتماس Right of petition أى حق التوجه إلى رجال الكونجرس بآمال الشعب وأسباب شكواه .. لكن الكونجرس مازال مصرا على عدم إلغاء هذا الحق الذى يكفله (التعديل الأول) للدستور ..

وقد ذكرت لجنة بوكانون فى تقرير لها عن هذه الظاهرة : «إن القوة الاقتصادية لهى اساس متين من اسس صناعة التأثير .. وقد يكون حق التأثير على الكونجرس حقا مقدسا لكنه حق يستطيع بعض الأفراد (الأغنياء والأقوياء) استغلاله دون الآخرين ... فالمستهلك الواحد والشركة التى رأسمالها بليون دولار لهما نفس الحق أمام القانون . لكن هل المستهلك الواحد والشركة الضخمة سواء أمام واضعى القانون؟» .

(١٣) جماعات التأثير الأجنبية : أصحاب المصالح الأجنبية :

من أهمها فى أمريكا الجماعات التى تمثل بعض الحكومات الصديقة والثرية أو صاحبة النفوذ (البريطانية - الفرنسية -

اسرائيل .. الخ) والتى تحاول استمرار تمتعها بميزات معينة أو الحصول على مزيد منها ..

ويلزم القانون الأمريكى Foreign Agents Registration act

ويلزم المكاتب الأجنبية التى تمثل مصالح دول أجنبية بتسجيل اسمائها وأسماء القائمين عليها ومقدار ميزانياتها واوجه انفاقها على ماتصدره تلك المكاتب من نشرات ومطبوعات .

على أن الهيئات اليهودية أو الصهيونية الأمريكية (١) الجنسية التى تمثل فئات وجماعات مواطنين أمريكيين معفاة طبعا من تسجيل اسمائها بموجب القانون سالف الذكر، وذلك على الرغم من أن المكاتب (الأمريكية) الصهيونية تعمل لخدمة مصالح دولة أجنبية هى اسرائيل ..

بل على العكس من ذلك، فان دهاء المخططين اليهود والصهاينة الأمريكيين بلغ إلى حد أن وصفوا جهودهم وأعمالهم بأنها تستهدف أعمالاً خيرية انسانية» سواء داخل أمريكا أو فى اسرائيل ذاتها، وبهذا تستفيد تلك الجماعات من الاعفاءات الضريبية والمزايا التى يكفلها القانون الأمريكى للاعمال الخيرية ..

---

(١) عدد اليهود الأمريكيين يفوق عشرة ملايين لكنهم حسنوا التنظيم شديدو الثراء واسعو النفوذ فى دوائر الصحافة والسينما والتليفزيون والبنوك .

وبديهى أن نفوذ جماعات التأثير وأصحاب النفوذ لا يقتصر على الكونجرس والحكومة الأمريكية الفيدرالية فى واشنطن لكنه يتعداها الى الولايات أو عواصم الولايات الخمسين. وتسيطر هذه الجماعات على كثير من المجالس البرلمانية المحلية فى الولايات لأنها أضعف بكثير من الكونجرس الأمريكى فى واشنطن.. ويسهل على أصحاب المصالح الخاصة التأثير على النائب أو الشيخ المحلى فى كل ولاية لأنهم كلهم غير متفرغين لمهمتهم النيابية بل يشتغلون اصلا فى المهن المختلفة (المحاماة أو التجارة) وهم فى حاجة الى «زبائن» والى تشجيع الشركات الضخمة التى تملك أحيانا ولايات بأسرها وتسيطر تماما عليها وعلى سياستها وساستها...

بل ان كثيرا من الولايات تسمح - رسميا - بجلوس ممثلى Lobbyists جماعات التأثير والشركات الضخمة والهيئات سالفة الذكر المسجلة رسميا فى المجالس النيابية - تسمح بجلوسهم الى جانب الشيوخ والنواب داخل قاعات المجالس النيابية المحلية دون أن يكون لهؤلاء الممثلين التشريعيين (أى ممثلى جماعات التأثير..) حق التصويت ..

وهناك ١٧ ولاية فقط من الخمسين تتطلب من «الممثلين التشريعيين» أى ممثلى أصحاب المصالح والنفوذ أن يسجلوا أنفسهم ومبالغ انفاقهم واوجه صرفها.. أما البقية فلا تتطلب منها أى شىء من هذا القبيل ..

(١٤) لقد أسمينا عددا كبيرا من جمعيات التأثير وأصحاب المصالح والنفوذ ووسائل تأثيرها على رجال السياسة فى أمريكا بحيث يبدو أن تسيير دفة الحكم فى هذا البلد فى يد كل من يشاء وكل من يستطيع التأثير.. وتستغل جماعات التأثير المنظمة وأصحاب المصالح الضخمة قلة خبرة الشعب ورجل الشارع بالسياسة أو عدم نضج رجل الشارع من أجل توجيهه واستغلاله للتأثير بدوره على ممثليه فى الكونجرس من أجل الضغوط على الحكومة .

والمحقق اذن أن الطبقة المسيرة حقيقة للولايات المتحدة لن تتجاوز عدة آلاف وأن مصالحها لاتتفق بالضرورة مع مصالح الشعب والولايات المتحدة الأمريكية .

وأن العامل المشترك الوحيد بين جماعات أصحاب المصالح هو الغنى الطائل والذى يكفل النفوذ العريض.. ولقد كانت الولايات المتحدة فى الماضى ومازالت الى يومنا هذا والى حد بعيد - تسيرها الطبقة الثرية أى أصحاب رءوس الأموال أو الثروات الطائلة.. ولقد يضم هذا التعريف اتحادات العمال الواسعة الثراء والتى تضم عشرات الملايين من العمال، الى جانب اتحادات كبار رجال الصناعة والمال.. إنه المال الوفير أو الدولار الذى يقاس به النجاح فى الولايات المتحدة والذى يكفل السلطان والنفوذ.. وكثيرا

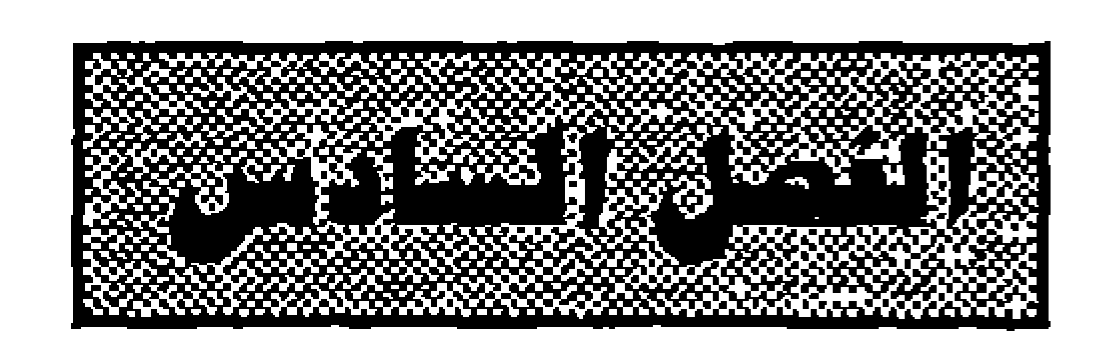
ماتعارضت مصالح هذه الجماعات فيما بينها وينعكس تعارضها وتخاصمها في تفرق الأحزاب ومعاكسات الفرق الحزبية ممايؤدى الى ضياع الجهد والمال والى تضارب سياسات الولايات المتحدة .

(١٥) أما تأثير ذلك في ميدان السياسة الخارجية فلا يمكن توقع استقرارها ونضجها وتمشيها مع مصالح الولايات المتحدة بصفة عامة مادامت السياسة الخارجية مرآة وانعكاسا للسياسة الداخلية وأحوال القائمين عليها .

ولما كان الخيط الفاصل بين سلطات رئيس الجمهورية والسلطة التنفيذية من جانب وبين الكونجرس الأمريكي من جانب آخر خيطاً غير مستقر ويخضع للشد والجذب كخيط معاوية وذلك بسبب نظام توزيع الاختصاصات والمسئوليات والضوابط والتوازن Checks and balanees sylstem فيما بين السلطتين فان جماعات التأثير وأصحاب المصالح الخاصة - داخلية كانت أو خارجية - استطاعت النفاذ ما بين السلطتين والتأثير على كلتيهما عن طريق ضرب الواحدة بالأخرى أحيانا وخلق أسباب المنافسة والمواجهة بينهما من أجل تحقيق بعض المصالح الخاصة .

وقد رأينا إلى أى حد تعقدت السياسة الداخلية وكيف أن عددا عديدا من العناصر والمؤثرات يتنازع هذه المؤسسات الدستورية ويؤثر عليها ويسيرها كيفما شاءت تلك المؤثـرات.. وتحت انظار وبموافقة الدستور والعرف والنظم المعمول بها فى أمريكا ..

ولهذا فكثيراً ماجاءت سياسات أمريكا الخارجية غير مستقرة وغير ناضجة وتعكس نتائج الحلول الوسط والتنازلات التى لابد منها بين السلطتين.. وقد يكون كل ذلك فى النهاية على عكس ماتمليه مصالح أمريكا الحقيقية وذلك ابتغاء كسب عدة أصوات داخلية أو تهدئة أصحاب نفوذ معينين .



العلاقات المصرية الأمريكية

كانت العلاقات المصرية الأمريكية حتى الحرب العالمية الثانية سطحية وهامشية. ولم تبدأ العلاقات بينهما فى اتخاذ صفة عميقة وجدية الا بعد أن تبوأت الولايات المتحدة مكانة الصدارة العالمية بعد انتهاء الحرب الثانية، وبدأت ترث تركات بريطانيا وفرنسا فى منطقة الشرق الأوسط.. وقد حاولت مصر بنجاح استعمال وساطة وتأثير الولايات المتحدة على بريطانيا حتى تم انسحاب الجيوش البريطانية من مصر ١٩٥٤ .

وإلى هنا كانت العلاقات بين القاهرة وواشنطن تبشر بالخير وبالنمو المطرد.

إلا أن السنتين من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٦ جاءتا بما لاتشتهى السفن.. وكان سبب تعكير صفو العلاقات سياسة جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة القاضية بتطويق الاتحاد

السوفييتى Policy of Containment ودعوته لمصر وغيرها من دول الشرق الأوسط للانضمام إلى واحد من الأحلاف الغربية العسكرية التى اقترحها دالاس لحصار الاتحاد السوفييتى مثل Cento أ و Medo أوNorthern Tier فى الوقت الذى كانت مصر فيه قد تخلصت من احتلال الجيوش البريطانية بالكاد ولم تلتقط انفاس الحرية بعد ..

ولم يكن بينها وبين الاتحاد السوفييتى مايحملها على الانضمام الى خصومه، بل كانت مصر ترى فى اسرائيل وليس فى روسيا مصدر الخطر عليها وعلى الدول العربية..

كما كانت مصر إحدى الدول الأربع التى أرست دعائم حركة الانحياز منذ باندونج فى أبريل سنة ١٩٥٥ ولم تر داعيا للانضمام الى أحد المعسكرين المتخاصمين. ثم جاء لقاء عبد الناصر بالزعيم الصينى تشوين لاى فى باندونج واعتراف مصر بالصين «الشيوعية» التى اعتبرتها واشنطن عدوة للولايات المتحدة منذ حرب كوريا .. وهو ماأثار ثائرة جون فوستر دالاس.. وزاد الموقف تعقيدا سلسلة من هجمات اسرائيل على قطاع غزة سنة ١٩٥٥ وقتلها للعديد من الضحايا المصريين . وجاء رفض امريكا امداد مصر بالسلاح اللازم للدفاع عن مصر ولمجابهة عدوان اسرائيل فدفع عبد الناصر لابرام اتفاقية السلاح التشيكوسلوفاكى ١٩٥٥..

وكانت هذه «القشة التى قصمت ظهر» جون فوستر دالاس ، فبادر الى سحب عرض الولايات المتحدة (والبنك الدولى) لتمويل مشروع السد العالى سنة ١٩٥٦ بطريقة مهينة مما أدى الى تأميم مصر لقنال السويس ثم للعدوان الثلاثى البريطانى الفرنسى الاسرائيل على مصر فى اكتوبر ٥٦ وانتهى بالفشل لدول العدوان الثلاثى بسبب قوة مركز مصر الدبلوماسى وتأييد العالم الثالث والاتحاد السوفييتى لمصر.. بل وانضمام الولايات المتحدة الى مجموعة الدول التى أدانت العدوان وعملت على تصفيته حيث إن بريطانيا وفرنسا لم تستشر واشنطن قبل اقدامها على العدوان .

وقد تركنا واشنطن الى تونس فى يوليو ١٩٥٦ والقدر يغلى على وشك الانفجار الذى حدث فعلا بعد وصولنا الى تونس بشهرين اثنين .

لكن نالت العلاقات المصرية الأمريكية صدمة شديدة بتمويل السوفييت للسد العالى وبدء فترة التعاون الوثيق بين القاهرة وموسكو.. ورأت واشنطن فى ذلك انكارا لجميلها بوقوفها ضد العدوان الثلاثى ..

ولم تقلل الوحدة بين مصر وسوريا سنة ٥٨ من غضب الولايات المتحدة بل زادته تأججا وزادت من حدة العلاقات وخاصة عندما ساءت العلاقات بين القاهرة وكل من عمان وبيروت وانقرة مما دعا

الولايات المتحدة إلى إنزال جنود البحرية فى لبنان سنة ٥٨ بناء على طلب الرئيس شارل حلو اللبنانى.. وزاد من غضب واشنطن على مصر تأييد القاهرة للثورة فى اليمن وتأييد مصر لجميع حركات التحرير بعد ذلك ..

ثم جاءت حرب الأيام الستة بين مصر واسرائيل سنة ١٩٦٧ (١) وحملت فى طياتها بذور زيادة تدهور العلاقات بين مصر وواشنطن عندما اتهمت القاهرة امريكا بالتواطؤ مع اسرائيل (٢) وقطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع واشنطن ..

ويسهل على المراقب الدبلوماسى الوصول إلى النتيجة أن كل تدهور صاحب تأزم العلاقات بين مصر وأمريكا انما جاء كصدى وانعكاس لأزمة من الأزمات بين مصر واسرائيل : سنة ١٩٥٥ بعد هجوم اسرائيل على غزة، سنة ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثى، سنة ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة .. وقد اتخذت واشنطن سنة ١٩٦٧ موقف تأييد عسكرى تلاه التأييد الدبلوماسى والسياسى الصريح لاسرائيل فىمجلس الأمن عند صياغة مشروع القرار ٢٤٢ فيما يخص انسحاب القوات الاسرائيلية من «أراض» بدلا من «الأراضى» العربية المحتلة .

---

(١) فى مذكرات القادة الاسرائيليين اعتراف بان واشنطن وتل أبيب باتتا تدبران هذا الفخ لعبد الناصر منذ تصفية آثار حرب ١٩٥٦ وحتى قراره بإغلاق المضايق راجع كتاب محمد حسنين هيكل سالف الذكر .

(٢) وضح تواطؤ واشنطن مع تل أبيب عند طرح القضية امام مجلس الأمن سنة٦٧–٦٨ وتأكد فى حرب ٧٣ باقامة جسر جوى امريكى لانزال الامدادات الى اسرائيل داخل سيناء ذاتها (راجع كتاب محمد حسنين هيكل سالف الذكر .

لكن الطبيعة الحقيقية والحجم الهائل للتحالف الأمريكى الاسرائيلى الاستراتيجى الجديد ظهر فى اوائل حرب سنة ١٩٧٣ حين باتت اسرائيل على شفا الهزيمة فأقامت الولايات المتحدة جسرا جويا مباشرا من أمريكا إلى سيناء وانزلت فى سيناء مئات الدبابات الأمريكية يقودها أمريكيون فضلا عن بقية المعدات لتعويض خسائر اسرائيل الفادحة فى الأيام الأولى للقتال ..

ومن هنا ثبتت لأول مرة حقيقة حجم التحالف الأمريكى الاسرائيلى العسكرى الاستراتيجى والدبلوماسى والاقتصادى والذى مازال مستمرا بل يقوى كل يوم ...

وقد اثمرت زيارات هنرى كيسنجر (وزير خارجية امريكا) المكوكية الى مصر ومقابلاته مع انور السادات اثمرت اقتناع السادات بعدم جدوى استمرار سبيل الحرب «ضد الولايات المتحدة» التى لم ولن تسمح بهزيمة اسرائيل» أو كما قال كيسنجر : «لن نسمح بهزيمة الاسلحة السوفييتية للاسلحة الأمريكية» ومن هنا اقتنع السادات بألا سبيل لاستعادة مصر لسيناء إلا عن طريق السلام فان مصر كانت قد استنفدت امكانياتها على القتال «وكان الاقتصاد المصرى فى مستوى «اقل من الصفر» على حد تعبير السادات.. وظل السادات يردد أن «الولايات المتحدة تملك ٩٠٪ من أوراق اللعبة» وأنها الشريك الكامل لمصر فى عملية السلام «وواقع

الأمر أنها كانت الشريك الكامل لاسرائيل فى حربى ٦٧ و٧٣ ثم بعد ذلك فى عملية السلام ..

وصحب سعى واشنطن لوقف الحرب ولتحقيق انسحاب القوات وتخفيف حدة المواجهة Disenagazment ازدياد حرارة العلاقات مابين نيكسون والسادات لدرجة أن نيكسون زار مصر حتى قبل استئناف العلاقات الدبلوماسية المقطوعـة بين القاهرة وواشنطن منذ ٦٧ ...

وآية ذلك أن السادات اكتشف – منذ تولى مسئولية الحكم – أنه لكى ينجز عبور قنال السويس ويحرك المسألة الراكدة من جديد، كان يحتاج الى تأييد ودعم الاتحاد السوفييتى عسكريا.. وقد كان.. إلا أن الشق الثانى من اكتشاف السادات جاء بعد معركة العبور وكان أنه لكى يستعيد سيناء بطريق السلم والمفاوضات فانه كان يحتاج إلى دعم وتأييد «الشريك الكامل» فى عملية السلام.. أى الولايات المتحدة الأمريكية بقدر ما تملك من نفوذ على اسرائيل ..

وقد قبل باطمئنان وعود الولايات المتحدة له بأنها سوف تبذل قصارى جهدها لتحقيق تسوية عادلة سليمة.. وقد بذل الرئيس كارتر فعلا قصارى جهد أى رئيس أمريكى «وهو محدود بسبب قوة جماعات التأثير الصهيونية على الكونجرس الأمريكى» من أجل تنفيذ وعده للسادات منذ كامب دافيد وحتى توقيع معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية فى البيت الأبيض فى أغسطس ١٩٧٩ .

وكان هذا نصرا عظيما للدبلوماسية الأمريكية طالما سعت وراء تحقيقه منذ سنة ١٩٤٨ دونما فائدة.. لكن يبدو أنه استنفد ايضا كل جهد وطاقة الولايات المتحدة.. وقد تبين أن طاقة جهد الولايات المتحدة فى التأثير على اسرائيل أقل مما كان يظن أو يأمل العرب.. ولكن بماذا اذن يمكننا تعليل ماحدث ؟! لماذا أدت حرب سنة ١٩٦٧ حرب الأيام الستة إلى قطع القاهرة للعلاقات بين مصر وواشنطن تحت شبهة او مظنة تواطؤ أمريكا مع اسرائيل فى حين أن مساعدة الولايات المتحدة العلانية لاسرائيل جهرا وبقدر حاسم فى حرب سيناء سنة ١٩٧٣ أدت إلى نتيجة عكسية ؟ وإلى تحسين العلاقات بين القاهرة وواشنطن ؟!

يبدو لكاتب هذه السطور أن تضافر بعض الاعتبارات السياسية والسيكولوجية والاستراتيجية والاقتصادية قد شجعت القاهرة وواشنطن على اتخاذ قرار مهم وحاسم باعادة النظر واعادة تقييم علاقاتهما فى الميادين سالفة الذكر وبدء صفحة جديدة من علاقاتهما على أساس «الحقائق المجردة» التى اكتشفها الطرفان حديثابشأن علاقاتهما ..

ومن هنا فقد اتفقت ارادتا الطرفين كما تلاقت خطوط تفكيرهما وادراكهما المتبادل .

فمن ناحية الولايات المتحدة واسرائيل نجد الآتى :

أ - قرار الولايات المتحدة بضمان استمرار تفوق اسرائيل فى ميدان الأسلحة التقليدية بأى ثمن - وذلك برغم أو بالأحرى بسبب امتلاك اسرائيل لعدة قنابل ذرية تكتيكية ووسائل ايصالها. فان تفوق اسرائيل فى الأسلحة التقليدية حسب التفكير الأمريكى - يغنيها عن استعمال قنابلها الذرية كملجأ أخير فى حالة ادراكها لقرب هزيمتها.. كما حدث فى الأسبوع الأول لحرب ١٩٧٣. وقد يفسر هذا مسارعة امريكا لامداد اسرائيل بالأسلحة التقليدية عن طريق «جسر جوى» نشط اثناء حرب ١٩٧٣ .

ب - إن أربعه حروب مصرية - اسرائيلية وبخاصة حرب ١٩٧٣ اثبتت أن طرفا من الطرفين قد يكسب معركة أو عدة معارك لكن يستحيل عليه كسب الحرب أو فرض الصلح الذى يتمناه ويحتاجه على الطرف الآخر .

ج - إن معارك الدبابات الطاحنة والحرب الالكترونية التى جرت سنة ١٩٧٣ اثبتت ازدياد خطورة نتائج أى حرب قادمة بين مصر واسرائيل من حيث درجة مخاطرها الشديدة ونتائجها الوخيمة وخسائر الطرفين البشرية المتوقعة الى الحد الذى قد لايحتمله احدهما أو كلاهما، وذلك دون أن تؤدى الحرب الى توفير الفرصة لحل نزاعهما .

د - كانت الولايات المتحدة واسرائيل على اقتناع تام طوال

السنوات والتجارب الماضية بانه فى حين لاتملك الدول العربية الأخرى شن الحرب ضد اسرئيل دون اشتراك مصر، فان مصر رغم ذلك قد تكون القائدة الى طريق السلام فى المستقبل مابين الدول العربية واسرائيل .

ومن ثم فان واشنطن والقدس كانت لديهما حوافز قوية بل شديدة القوة لفصل مصر بعيداً عن جبهة الحرب العربية.. ومن هنا وجد الرئيس الأمريكى كارتر ضروريا وممكنا أن يغلق الباب على نفسه وعلى السادات وبيجين فى كامب دافيد لمدة اسبوعين كاملين.. بعيدا عن المؤثرات الخارجية .. ومن هنا ايضا أمكن لواشنطن الوصول الى الاتفاق مع السادات .

هـ - واخيرا فقد ظهر رئيس مصرى (هو السادات) اتخذ قراره واعلنه حتى قبل بدء المفاوضات على رءوس الاشهاد بان حرب ١٩٧٣ سوف تكون «آخر الحروب التى تخوضها مصر ضد اسرائيل» فقد قرر أنه لن يحتاج الى اسلحة سوفييتية وإنما الى مساعدة امريكا السياسية والاقتصادية والى وزنها وثقلها الدبلوماسى ليزيل التراكمات التى خلفتها العهود الماضية. وكانت الولايات المتحدة فى انتظار مثل هذه الاشـــارة وعلى استعداد لأخــذ يده التى امتـــدت نحوها وان تقبل الدور الذى طلبه السادات منها ...

و – كذلك ظهر فى الأفق هذا الزعيم المصرى الذى أبدى من الدلائل ماأكد رغبته فى تصفية تجربة عبد الناصر «الاشتراكية» والتى كانت قد صاحبت مغامراته الخارجية وتركت مصر تنوء بعبء دين خارجى ثقيل وباحتلال اسرائيلى. جاثم فوق أرض سيناء منذ سنة ١٩٦٧ .. كانت هذه اذن فرصة الولايات المتحدة لكى تظهر للعالم اجمع أن أكبر الدول العربية كانت تود – وكانت تستطيع بمساعدة الولايات المتحدة – أن تنحرف من اليسار الى اليمين، ومن الوقوف على شفا حفرة الافلاس الى الاستقرار والطمأنينة، ومن معسكر الحرب إلى السلام عن طريق المفاوضات، كل ذلك بمساعدة واشنطن ..

أما من الناحية المقابلة فنجد العناصر والاعتبارات التالية :

أ – اقتناع السادات أن طاقة مصر على شن الحرب قد حققت أهدافها المحدودة بعبور القنال – وانه حان الآن دور الدبلوماسية المصرية لمحاولة تحقيق بقية الأهداف المصرية .

ومن أجل تحقيق تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط فان مصر كانت فى حاجة الى حسن نية وتأييد صديق اسرائيل الأكبر وحاميها ومانحها المساعدات والهبات والعتاد الحربى. وقد ردد السادات دائما أن الولايات المتحدة هى التى تملك تسعين فى المائة من أوراق اللعبة .

ب – كان السادات قد أعلن مبكرا، ربما مبكرا اكثر من اللازم، أى حتى قبل كامب دافيد، أن حرب سنة ١٩٧٣ سوف تكون أخر حروب مصر ضد اسرائيل .. وكما تبين لاحقا فان هذا الاعلان وتوقيته قد اضعفا من مركز مصر التفاوضى فى كامب دافيد حيث اضطر السادات فى النهاية لقبول أقل كثيرا مما كان يأمل ...

جـ – كان السادات على اقتناع بأن استمرار اقتصاد الحرب أو «نزيف الحرب» يضر بالمجتمع المصرى وبنظامها السياسى وانه سوف يزيد من فرص انتشار الشيوعية أو الأفكار الثورية الهدامة بين الشعب المصرى وخاصة بين طبقاته المحرومة والفقيرة. ولم يكن السادات ولا الولايات المتحدة راغبين فى قبول هذا الخطر .

أما مساعدات الدول العربية لمصر فى الميدان الاقتصادى فلم تكن بالقدر الذى يخفف من ازدياد الفقر فى مصر ولم تكن فى تقدير السادات والمصريين تعويضا كافيا لتحمل مصر :أغلب أعباء الحروب ضد اسرائيل ...

ومن هنا فان اتفاقا تاريخيا – مؤقتا – بين مصالح وآمال «مصر السادات» و «امريكا كارتر» جعل كامب دافيد ممكنا وأدى الى توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل سنة ٧٩ تحت رعاية وكفالة كارتر .

وكان اتفاق كامب دافيد يحمل البصمات الشخصية لكارتر والسادات وبيجين وان لم يعكس حقائق الموقف فى مصر بنفس القدر.. أو حتي نيات اسرائيل الحقيقية....

وحدث بعد ذلك أن بيجين لم ينفذ التزاماته أو القليل الذى التزم به فى كامب دافيد، أما كارتر فقد فشل أو لم يستطع أن يجبره على ذلك وأن يختلف معه علانية بعد حصول بيجين على نصف جائزة نوبل للسلام وحصول كارتر على أغلى واعز انتصار دبلوماسى للسياسة الأمريكية .. أما السلام الشامل وأما الرخاء اللذان كانا معقد آمال الشعب المصرى فلم يتحققا هما الآخران .

وسرعان ماانتجت التطورات اللاحقة رد فعل عنيفا فى مصر.

فقد أدى عناد وتزمت بيجين - وعجز الولايات المتحدة عن زحزحة بيجين عن تزمته الى خيبة أمل شديدة فى قلب السادات الذى فقد الأمل فى امتداد السلام المصرى الاسرائيلى ليشمل الفلسطينيين وبقية الدول العربية.. بل فسّر بيجين اتفاقيات السلام تفسيرا مجحفا ومخلا بحقوق الفلسطينيين فى سيادتهم على أرضهم وفى تقرير مصيرهم تفسيراً غير متمش مع تفسير كارتر نفسه أو السادات.. كما أن انتهاك اسرائيل لحقوق الانسان العربى فى الاراضى المحتلة لم يعكس روح اتفاقيات السلام ولا نصوصها ... بل إن بيجين جرؤ على مهاجمة وتدمير المفاعل الذرى العراقى

فى اليوم التالى لاجتماعه مع السادات فى الاسماعيلية !! ثم جاء غزو اسرائيل للبنان ودورها فى مذابح الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا.. كل هذا كان بمثابة علامات استهزاء واحتقار موجهة من اسرائيل للسادات وكامب دافيد وللولايات المتحدة !! واصبح السادات رجلا مليئا بخيبة الأمل وقد اصابه القنوط والأسى وبخاصة عندما فتحت المعارضة المصرية نيرانها على كامب دافيد والسلام المصرى الاسرائيلى المبتسر وعلى السادات نفسه.. وبات الرأى العام المصرى غير متقبل هو الآخر لاتفاقية السلام مع اسرائيل بعد أن كان يعلق عليها آمالا كبارا فى السلام الشامل والرخاء المأمول ...

ولم يكن السادات ولا كارتر بمستطيعين التراجع عن مواقفهما من السلام .. كان كارتر قد نال اهم واسطع نجاحاته الدبلوماسية في كامب دافيد وكان تراجعه عنها من شانه تحطيم مستقبله ومستقبل حزبه سياسيا بل لقد بلغت الاستهانة بروح كامب دافيد وبغرض السلام الحقيقى بلغت بمستر بيجين مبلغا شجعه على التمسك بقطاع طابا المصرى وعلى الادعاء بملكية اسرائيل له .. وكانت المعركة الدبلوماسية والسياسية بين مصر واسرائيل حول طابا القشة التى قصمت ظهر الآمال المصرية التى قامت حول كامب دافيد . ومرة أخرى لم تستطع الولايات المتحدة الضغط على

اسرائيل للتنازل عن ادعاءاتها الكاذبة بشأن طابا. وكل ماستطاعت الدبلوماسية الأمريكية القيام به هو دور الوساطة من أجل قبول اسرائيل التحكيم وحسب.. وهو ماأكد عدم رغبة أمريكا أو عدم قدرتها على الامساك بزمام الموقف حينما تتعارض مصالحها مع سياسات اسرائيل وطموحاتها . هذا اذا افترضنا بوجود تعارض حقيقى فى سياستهما ..

وسرعان ما وجد الرئيس حسنى مبارك نفسه فى مواجهة دبلوماسية مع الرئيس ريجان رغم المحاولات الجدية من مصر لتجنب القطيعة مع واشنطن بسبب حادثة الباخرة أكيلى لاورو واختطاف السلاح الجوى الأمريكى لطائرة مصرية مدنية بركابها فى المجال الجوى الدولى واضطرارها للهبوط فى ايطاليا . ومن ثم فان علاقة الرئيس حسنى مبارك وريجان افتقدت الصداقة والدفء والثقة التى ميزت علاقات كارتر - السادات.. ورغم استمرار المساعدات الاقتصادية الأمريكية لمصر، فان عيون المصريين تفتحت على حقيقة أخرى ألا وهى أن اسرائيل بملايينها الثلاثة أو الأربعة من السكان تنال مرة ونصفا من أمريكا قدر المساعدات الأمريكية لمصر بسكانها الخمسة والخمسين مليونا.. فما وجه التفرقة إلا إذا كان السبب المنزلة الخاصة التى تتربع عليها اسرائيل فى قلب البيت الأبيض والكونجرس الأمريكى؟ وجماعات التأثير الأمريكية ؟!

لقد كادت علاقات مصر بواشنطن أن تنفصم فى مناسبة اختطاف الطائرة المصرية ومناسبات أخرى تبعتها فى عهد الرئيس السابق ريجان .

ومع ذلك ورغم البرودة التى أصابت تلك العلاقات حينا أو احيانا فيبدو أن هناك ارادة متبادلة فى القاهرة وواشنطن بعدم الوصول بهذه العلاقات مرة أخرى الى مرتبة القطيعة السافرة بل استحسان الوقوف بها على أدنى مستوى ممكن لتلافى الإساءة اليها كما حدث سنة ٥٦ ولتلافى القطيعة كما حدث سنة ١٩٦٧.. فالفارق هذه المرة هو الاتفاق الذى أبرمه السادات من أجل السلام ومن أجل جعل حرب ١٩٧٣ آخر حرب تدخلها مصر، وكذلك نمو التعاون السياسى والاقتصادى والدبلوماسى والعسكرى والاستراتيجى الجديد مابين القاهرة وواشنطن منذ أن تحول تسليح الجيش المصرى وتنظيمه من موسكو الى واشنطن فى عهد السادات.. وبعد أن احرقت مصر كباريها مع موسكو .

ومن هنا جهود الطرفين، رغم ما قد يصيب العلاقات من برود أو كدر مؤقت احيانا، من أجل تلافى القطيعة الدبلوماسية .. فمن جانب هناك حاجة مصر الاقتصادية الكبيرة الى استمرار تدفق المعونات الأمريكية بنفس معدلاتها المتفق عليها منذ كامب دافيد .. وهناك ايضا احتياج مصر المستمر لوزن الولايات المتحدة وثقلها

الدبلوماسى لاستمرار مساعى «السلام الاسرائيلى العربى» فى الشرق الأوسط [١] .. وهناك من جانب آخر احتياج واشنطن إلى استمرار التزام مصر بالسلام والى استمرار سياسة «حرب ١٩٧٣ هى آخر حرب مع اسرائيل» واستمرار سعى مصر وراء السلام العربى الاسرائيلى . فانه دون مساعى مصر فى هذا المضمار لا يبقى فى الحلبة العربية لاعب واحد آخر..

وأن حاجة الولايات المتحدة الى مصر المستقرة والمعتدلة والراضية والملتزمة بمسيرة السلام والسعى وراء السلام الشامل، الى مصر التى يجمعها مع الغرب علاقات صداقة وتعاون تعادل حاجة مصر الى مساعدات الولايات المتحدة الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية للاجل المنظور ..

ويبدو لكاتب هذه السطور أن هذا الاحتياج المتبادل والذى باتت تدركه كل من العاصمتين حاليا هو الفارق مابين الآن وسنة ١٩٦٧ .

وهو قد يكون كافيا للتغلب على الازمات العابرة وغير الحادة...

ومع هذا فقد تحدث رغم هذا ظواهر «الصعود والهبوط» فى هذه العلاقات بين القاهرة وواشنطن خاصة ان الولايات المتحدة –

---

(١) لا يسع مصر سياسيا ولا دبلوماسيا ، عالميا أو عربيا ، أن تغلق ملف القضية الفلسطينية حتى فى مواجهة مرواغة وتعنت اسرائيل .

كما يتبين منذ ١٩٧٣ – تجمعها واسرائيل تحالفات استراتيجية قوية وعلاقات فريدة اقتصادية وسياسية ودبلوماسية غير قابلة للانفصام وغير قابلة – فى الوقت نفسه مع الأسف الشديد – لأن تستعملها واشنطن للضغط على تل أبيب .

بل العكس هو الصحيح فان تل أبيب باتت تستغل هذه العلاقات القوية والتحالفات الفريدة للضغط على واشنطن ولتسييرها وفق هواها فى أزمة الشرق الأوسط !! [١] وذلك منذ نهاية حرب سنة ١٩٦٧ ...

.. انظر الى تصريحات المسئولين الأمريكيين ذاتهم . إن واشنطن «لاتنوى الضغط على اسرائيل» – «إن واشنطن لا تملك سوى محاولة اقناع اسرائيل [٢] وكأن واشنطن هى الدولة الصغيرة التى تعيش على احسان تل أبيب وليس العكس !!

ثم انظر الى محاولات ضغط واشنطن على موسكو منذ سنوات عديدة للسماح بهجرة اليهود السوفييت الى الخارج فلما سمحت روسيا بذلك وفتحت أبوابها منذ ٨٨–١٩٨٩ أمام جميع اليهود بها للهجرة إذا بواشنطن تغلق أبوابها فى وجه اليهود السوفييت

---

(١) وصف الكثيرون هذه العلاقة بأنها «الذنب الذى يهز الكلب» وليس الكلب الذى يهز الذنب» !!

(٢) تصريحات ، المسئولين الأمريكيين كما جاءت فى الصحف الأمريكية ذاتها .

لدفعهم دفعا إلى الهجرة الى اسرائيل !! وكأن اسرئيل بحاجة الى جيش جديد حسن التدريب تام الاعداد من نصف مليون يهودى روسى لطرد بقية الفلسطينيين من الأراضى المحتلة !! ولتكوين اسرائيل الكبرى!! ولبدء حرب توسعية جديدة !!

ومن هنا فان «شهر العسل» فى العلاقات بين القاهرة وواشنطن، والذى صاحب كامب دافيد وابرام معاهدة السلام داخل البيت الابيض غاب الى غير رجعة.. لتخلفه «سنوات اليقظة» واعادة حساب الأمور حسابا «أكثر واقعية» يقوم على حقائق الموقف ..

ومن أهم هذه الحقائق - المؤسفة - أن هناك للولايات المتحدة فى اسرائل مصلحة أو مصالح تختلف فيها مع مصالح مصر والعرب.. هذه هى الحقيقة المُـرّة ..

كان اقصاء مصر عن المعسكر العربى فى عهد السادات كما كان انسحابها المؤقت من مركز قيادتها السابق فى حركة عدم الانحياز، وخلافها المؤقت بالمثل مع موسكو، كانت كلها «هدايا قيمة» لواشنطن نالت رضاءها واستحسانها، سواء أكان السادات قد قدمها طواعية الى واشنطن أم سقطت فى حجرها مصادفة ...

لكنها كلها لم تكن لتتفق مع آمال مصر ومصالحها ورغبات

شعبها أو حتى مع واقع الأمر.. وماكانت لتستمر طويلا.. رضيت الولايات المتحدة أم لم ترض ..

وفى مقابل ذلك التزام واشنطن التزاما قاطعا - كما بدا فى حرب سنة ٧٣ - باستمرار تفوق اسرائيل العسكرى على مصر وكل الدول العربية وبالتحالف السياسى والاستراتيجى ويتسامح واشنطن أو بخضوعها أمام مواقف اسرائيل المتشددة المتصلبة وغير الانسانية من القضية الفلسطينية، كلها ايضا لا ترضى مصر وشقيقاتها الدول العربية .

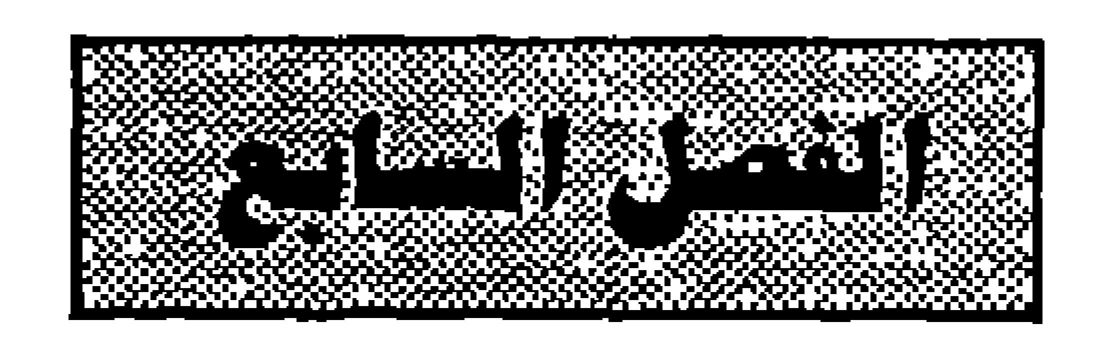
ومن هنا، وطالما بقيت القضية الفلسطينية وتفرعاتها من القضايا العربية الأخرى دون حل عادل دائم ومرض ، حل يأخذ فى الاعتبار - على الأقل - آمال الجناح المعتدل جناح الغالبية من الفلسطينيين والدول العربية المعتدلة، فان العلاقات المصرية الأمريكية ستظل تحت تأثير ظلال وغيوم تطورات الموقف فى الشرق الأوسط، صعودا أو هبوطا.. لكن الموقف فى الشرق الأوسط يبدو خاليا من امكانيات الصعود بشكله الحالى !! وليس أمامه سوى إمكانيات الهبوط من جديد!! طالما بقيت سياسات واشنطن وتل ابيب دون تغيير ...

لنأمل على الأقل الاّ يصل الموقف ما بين اسرائيل والشعب الفلسطينى والدول العربية الى الحد أو إلى الدرك الأسفل الذى قد

يضطر مصر أو يجرها جرا الى تغيير سياستها المسالمة أو الى قطع سبيل الحوار أو العلاقات الاعتيادية مع واشنطن .. (ومع الغرب بالتبعية)... وليكن هاديا ونبراسا للطرفين الادراك العاقل لاحتياجات الطرف الأخر وذلك من أجل محاولة تخفيف الصدمات المرتقبة بينهما .....

ولتدرك واشنطن أن معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية لم تكن الا بداية الطريق ولم تكن هدفا فى حد ذاتها .. وان النظر اليها كهدف نهائى ليعنى الحكم عليها وضدها، بالإهمال والنسيان أو بما هو أسوأ، وليعن الحكم على كل المنطقة بمزيد من البؤس والدمار كما أنه يلغى جميع الخطوات الايجابية الثمرة التى خطتها القاهرة فى تجاه واشنطن، والاخيرة نحو القاهرة ...

فهل ستملك واشنطن - يوما ما - أن «تقود» اسرائيل الى التوصل الى تسوية سلمية عادلة مع الشعب الفلسطينى تكون مفتاحا لعلاقات اكثر اعتيادية مع بقية الدول العربية المجاورة ؟ هذا هو التحدى الحقيقى أمام واشنطن وامام علاقاتها مع العالم العربى ...



تونس الخضـراء ...

غريب حقا هذا الانسان.. إذا ما اعتاد أكل أفخر الأطعمة فان نفسه تتوق أحيانا الى «الطرشى المخلل» أو سندوتش الطعمية (وأنا فى الواقع أحب هذين الاخيرين!) وإذا ما امتدت به الاقامة فى واشنطن عاصمة الولايات المتحدة لأكثر من خمس سنوات متصلة فان نفسه تتوق إلى الانتقال به الى عاصمة صغيرة فى دولة نامية فى شمال افريقيا لم تكد تنال الاستقلال مثل تونس سنة ١٩٥٦ .

أما لماذا تونس بالذات فقد كان السبب هو رئيسى المباشر فى سفارتنا فى واشنطن (المرحوم) الوزير المفوض على كامل فهمى.. فقد جمعت أواصر العمل المشترك فى واشنطن ما بين قلوبنا وكنت شديد الاعجاب بصفاته كدبلوماسى وزميل ورئيس من الطراز الأول ويبدو أن الاستلطاف كان متبادلا، فلما اختير سفيرا لمصر

فى تونس بمجرد استقلالها اقترح علىّ أن نعمل بها سويا.. فقبلت. ورغم إلحاح سفيرنا السابق فى واشنطن المرحوم. احمد حسين (باشا) علىّ بالبقاء فى واشنطن فقد فضلت التجديد والانتقال الى تونس. كانت قد مرت علىّ فى واشنطن سنوات خمس طويلة حافلة بكثرة العمل وبسرعته وبمشقة الحياة على الطريقة الأمريكية. كانت مواعيد العمل بالسفارة فى واشنطن من التاسعة صباحا وحتى الرابعة والنصف مساء – كما هو الحال فى أمريكا – لا يتخللها سوى ساعة واحدة للغداء السريع وكنت قد اضفت على نفسى جهدا ومشقة جديدين بالدراسة المسائية المركزة فى إحدى جامعات واشنطن من أجل الماجستير فى العلوم السياسية وحققت نجاحا سريعا فحصلت على الماجستير فى سنة ونصف من الدراسة.. لكن كان ذلك على حساب اعصابى ومزاجى.. اضف إلى ذلك طريقة الحياة الأمريكية نفسها حيث يقع كل ثقل الاعباء المنزلية على الزوجين بدونما مساعدة خارجية. فلا يقدر أحد فى امريكا على استئجار خادم أو خادمة إلا الأثرياء.. لكنى كنت دبلوماسيا صغيرا واقتطعت من راتبى الصغير مصاريف الدراسة الجامعية ولم تكن بالقليلة.. وان ننسى فلا ننسى تأثير تكدر جو العلاقات المصرية الأمريكية وتكاثر السحب فوقها منذرة بأوخم العواقب.. وكان لهذا تأثيره على نفسى طبعا..

ثم انى كنت قد كونت صورة ذهنية لمدينة تونس «الخضراء»

المطلة على شاطىء البحر الأبيض الجنوبى فاجتذبتنى هذه الصورة، ووجدتها فرصة سانحة للتعرف على حضارة تونس العريقة.. نعم.. العريقة.. فقد درست فى الأدب اللاتينى (أدب الرومان القدماء) عندما كنت طالبا فى كلية الآداب درست انه قامت حضارة تاريخية مرموقة فى قرطاجنة ومقرها قرطاج من ضواحى مدينة تونس - وكانت حضارة قرطاجنة تنافس حضارة روما القديمة. بل لقد انزل كل من ملكى قرطاجنة أميلكار ومن بعده ابنه الشهير هانيبال هزائم كثيرة بجيوش الرومان فى صقلية واسبانيا بل وفى ايطاليا نفسها وإن لم يستطع هانيبال الاستيلاء على روما، وذلك فى حروب قرطاجنة الثلاث المعروفة باسم Punic wars التى قامت بين قرطاجنة وروما مابين ٢٦٤و١٤٦ ق..م، ومن ثم فان حضارة قرطاجنة التى كانت ندا لروما لابد أن تكون قد خلفت فى تونس آثارا حضارية وروحية (انسانية ومادية) تستحق المشاهدة والدراسة. ناهيك بان أصل القرطاجنيين كما هو معلوم يعود الى مهاجرين وفدوا اليها من صور وصيدا وبيروت (لبنان) واقاموا امبراطورية بحرية ذات شأن على مدى اربعة قرون، وحتى بعد أن دانت قرطاجنة لروما اقامت بها روما مركزاً لامبراطوريتها الأفريقية وخلفت فيها أثـــارا رومانية جديرة بالمشاهدة هى الأخرى .

كانت تونس - تاريخيا - معبرا عبره الفينيقيون واليونانيون ثم

الرومان.. وجدير بالذكر ان «كاتو» وغيره من كبار ساسة الرومان كان لا يختتم احدى خطبه أمام الشيوخ الرومانيين الا بعبارة «لابد من تدمير قرطاجنة» Cartago delenda est وهكذا دمر الرومان قرطاجنة في النهاية واحتلوا تونس لقرون طويلة، تشهد بها الآثار الرومانية الجميلة فى تونس ومنها التياترو الكوليزيوم العظيم فى مدينة «الجم El djem » جنوب تونس وهو من أفضل الآثار الرومانية التى مازالت محتفظة برونقها وشكلها القديم ..

وتونس اليوم دولة عمادها الزراعة.. والزراعة فيها عمادها المطر فليس بها انهار لكنها تتلقي نسبة كافية من الأمطار على مدار السنة ماعدا فصل الصيف الجاف القائظ. وتهب احيانا فى فصل الصيف رياح جنوبية حارة قادمة من الصحراء الافريقية الكبرى يسمونها « Sirocco السيروكو» ويسمونها «القبلى» فى ليبيا (والهارماتان فى غانا) ترفع درجة الحرارة فى مدينة تونس الساحلية الى مايقرب من الأربعين درجة مئوية، لكن فيما عدا أيام السيروكو فالجو بارد ممطر شتاء وحار جاف صيفا.. كذلك فان دولة تونس (وعاصمتها ايضا بنفس الأسم) تضم عدة مناطق مناخية ونباتية. وتقع مدينة تونس فى وسطها تقريبا على الساحل.. اما يسارها أو غربها فمنطقة ساحلية جبلية (مناخ بحر أبيض) غنية بالأمطار وبالغابات وباشجار الزيتون وتزداد الأمطار

كلما اتجهنا غربا تجاه جبال الاطلس الجزائرية.. أما إلى شرق وجنوب مدينة تونس فتقل الأمطار الشتوية تدريجيا ومعها الخضرة والغابات، وأن تكثر زراعة الموالح والزيتون والنخيل ثم تقل تدريجيا ومعها الخضرة والغابات ، إلى أن تلتقى بصحارى تونس، وصحارى ليبيا فى أقصى الجنوب الشرقى.. لكن سواحل تونس وماجاورها من أراض - بصفة عامة - خضراء يانعة وتمتد الخضرة لتصل إلى حافة الشاطىء وشواطىء تونس فى الجنوب والشرق رملية ناعمة شجعت على قيام حركة سياحية نشطة ومزدهرة عمادها السائحون من فرنسا والمانيا وايطاليا ونوادى «كلوب ميديترانية» الفرنسية .

والعمل فى سفارة صغيرة فى عاصمة صغيرة له طعم يخالف تماما العمل فى سفارة كبرى مثل سفارة واشنطن. فالدبلوماسى الصغير السن والحديث العهد بالمهنة له فرصة الظهور ومخالطة المجتمع أكثر كثيرا فى مدينة صغيرة عنها فى العواصم الكبرى - وكنت فى ذلك الحين سكرتيرا ثانيا ولم يتعد عمري ٣٢ سنة ، وكنت سأشغل منصب القنصل والمسئول عن الشئون الاقتصادية فى السفارة فى تونس .

وهكذا وصلنا - زوجتى وأنا - إلى تونس فى سبتمبر ١٩٥٦ بطريق البحر قادمين من نيويورك الى نابولى بايطاليا، ثم منها

بباخرة أخرى أصغر كثيرا إلى تونس على ظهر إحدى سفن شركة Tyrrancan نسبة الى اسم ذلك الجزء من البحر الذى يفصل مابين نابولى وتونس. والدخول الى ميناء تونس بطريق البحر يقتضى أولا عبور خليج تونس ثم ولوج بحيرة صغيرة مقفلة أوشبه مقفلة اسمها لا جوليت La goulette مياهها ضحلة قليلة الحركة تفوح منها رائحة الاعشاب البحرية والفضلات خاصة فى الصيف وتقطع السفن هذه البحيرة الضحلة عن طريق قناة عميقة شقت وسط البحيرة .

كان فى لقائنا على رصيف ميناء تونس بعض زملائى فى السفارة وعلى رأسهم مستشار السفارة والرجل الثانى بها (المرحوم السفير) يوسف الغمراوى. كان قد وصل تونس قبلنا بشهر منقولا من سفارتنا فى طرابلس ليبيا.. وكان هو وعائلته يرون فى مدينة تونس «باريس صغيرة» بمقارنتها بطرابلس كما كان يرى فى تونس الخضراء جنة يانعة بمقارنتها ايضا بصحارى ليبيا الممتدة المقفرة !

كانت سفارتنا قد افتتحت فى يوليو ١٩٥٦ كواحدة من السفارات الأجنبية الاثنتى عشرة [(١)] أى بمجرد استقلال تونس. وكانت مكاتب سفارتنا مازالت فى أحد فنادق وسط المدينة. وقد

---

(١) كان عدد السفارات سنة ١٩٥٦-١٩٥٧ اثنتى عشرة سفارة هى سفارات فرنسا - بريطانيا - امريكا - المانيا الغربية - ايطاليا - مصر - العراق - المغرب - ليبيا - اسبانيا - السودان والمملكة السعودية .

اقمنا فى نفس الفندق إلى حين عثورنا على السكن المناسب . وكان وسط مدينة تونس يتصف بما تتصف به مدن شمال افريقيا وقتئذ من وجود «حى عربى» أو القصبة ذات الشوارع أو الحوارى الضيقة – ولها نوع خاص من الرومانتيكية والجاذبية خاصة لنظافتها وقد ذكرتنى بفيلم كازابلانكا الشهير – وقد راعنى واعجبنى ان وجدت القصبة أو المدينة القديمة فى تونس تمتاز عن «مصر العتيقة» أو القاهرة الفاطمية بالنظافة التامة. وتبرز مدى اهتمام وعناية القائمين عليها بالمحافظة كاثر من الآثار التاريخية القيمة.. كان التوانسة قد ورثوا كل ذلك بالكاد من الفرنسيين. وفى قلب القصبة يوجد متحف تونس الشهير «الباردو» الذى يضم مجموعة رائعة من الموزايكو والفايانس تمثل صورا ومشاهد تعود الى عهد الرومان والعهود التالية على الحائط كما أن المدينة القديمة حافلة بمتاجر العاديات والسجاجيد التونسية ويسمونها «الزرابى» (١) من صوف الجمل أو الماعز زاهية الألوان، ومشهورة تاريخيا.. وان كانت أقرب إلى الكليم منها إلى السجاد العجمى أو التركي أو الباكستانى والهندى. ولكنها كليم أو «اكلمة» فاخرة حقا.. كذلك كانت وزارة الخارجية التونسية قد انتقت مقرا لها مبنى قديما تاريخيا فى المدينة القديمة.. وكان هذا سببا قويا للدبلوماسيين للتعرف على القصبة !

---

(١) كلمة عربية قديمة وردت فى القرآن .

أما الحى «الافرنجى» فكان يقيم به الفرنسيون وكبار التوانسة، ويمتد ليصل تونس بالضواحى الساحلية.. وكان الفارق كبيرا جدا مابين واشنطن وبقية مدن أمريكا وما بين مدينة تونس بطبيعة الحال. لكن هذا ما اخترناه لأنفسنا.. ولكل بلد صفاته وميزاته وأن اختلفت الموازين.. أما ضواحى مدينة تونس فكانت جميلة خلابة حقا وهى لتونس أشبه بحى الرمل لمدينة الاسكندرية وتمتد إلى يمين تونس الى مايسمى حلق الوادى وحمام الانف وما بعدها والى يسار تونس الى لاجوليت وسلامبو والمرسى وقرطاج واميلكار وسيدى بوسعيد وجمارت.. وكانت ضواحى تونس خضراء حقا يزيدها جمالا التلال الكثيرة الخضراء المحيطة بالضواحى تكسوها الأشجار وغابات الصنوبر أو الزيتون أو الموالح والنخيل أو غيرها من العشب الأخضر بسبب كثرة الأمطار فى الشتاء والربيع والخريف. وتطل هذه التلال ايضا على سلسلة متصلة من البلاجات (الشواطىء) الرملية العريضة. وقد بنى المستوطنون الفرنسيون ومن خالطهم من كبار التوانسة لانفسهم فيلات ومنازل حديثة ذات حدائق جميلة بامتداد الشواطىء، وكان يصل مدينة تونس بمنطقة «الرمل» الساحلية هذه خط مترو اطلقوا عليه الـ T.G.M أى تونس لاجوليت المرسى ..

وقد أثار جمال هذه التلال الخضراء المطلة على الشاطىء فى

نفسى ذكرى تسمية العرب لتونس بتونس الخضراء.. فانى اوافقهم على ماذهبوا اليه فقد كان منطقيا ومفهوما أن يطلق الفاتحون العرب الوافدون من الصحراء اسم «الخضراء» على هذه المناطق اليانعة التى طالعت اعينهم بعد أن اجتازوا صحارى مصر الغربية والصحراء الليبية الجرداء .. وكان هذا نفس احساس مستشار سفارتنا الوافد اليها من طرابلس !

وقد حققت حكومة بورقيبة نجاحا ملحوظا فى تشجيع الاستثمارات الألمانية والفرنسية فى صناعة السياحة والفنادق فى تونس اعتمادا على جمال الطبيعة والبلاجات، والاستقرار السياسى، مابين سنوات ٦٧-١٩٧٧ (١) مما قفز بالحركة السياحية فى تونس قفزات مدهشة سواء بالنسبة لعدد الفنادق على سواحل تونس الجميلة ومياهها الدافئة الرقراقة البلورية أو بالنسبة لعدد السياح الأجانب الذين بلغوا أكثر من مليون سائح سنويا (ربع سكان تونس) وتعنى هذه النسبة لمصر مايقارب من ١٣ مليون سائح سنويا! فى حين أن عدد السياح إلى مصر يتجاوز المليونين.. وكان عماد بورقيبة فى سياسته هذه التركيز على صورة تونس كصديقة للغرب (٢) ومحبة للسلام والأجانب.. ومما يذكر أن الزيتون والنخيل والموالح هى عماد الاقتصاد التونسى الأول.. إلى جانب السياحة .

---

(١) وهى السنوات التى صاحبت الكساد السياحى فى مصر بعد حرب سنة ١٩٦٧ .

(٢) "LA TUNESIE AMIE"

هذا وقد دعتنى وزارة الاقتصاد التونسية - باعتبارى المسئول عن المسائل الاقتصادية فى سفارتنا - مع نفر غير قليل من الدبلوماسيين الأجانب لزيارة أهم مراكز زراعة الزيتون وجمعه وتعليبه أو عصره واستخراج زيت الزيتون منه وذلك فى الجنوب التونسى.. وتستخدم تونس حاليا أساليب أكثر تحديثا عن الماضى فى هذه العملية نتيجة للخبرات الأجنبية التى اكتسبتها مما وصل بها إلى مركز الدولة الخامسة أو الرابعة بين دول البحر الأبيض فى تصدير الزيتون وزيوته بعد ايطاليا واسبانيا واليونان وتركيا ..

كذلك اشتركت فى رحلة أخرى تنظمها وزارة الاقتصاد التونسى للدبلوماسيين الأجانب لزيارة مصنع تعليب سمك التونة فى الشمال التونسى قرب العاصمة. وبرغم حداثة وطرافة هذه العملية فقد كان لابد من مشاهدة عملية تقطيع أوصال سمك التونة الضخم وتنظيفه.. وقد أثرت فى نفسى هذه العملية تأثيرا سيئا وامتنعت بل لم استطع رغم أنفى رؤية علبة تونة أو أكل التونة لمدة الشهور الستة التالية.. رغم حبى اصلا للتونة.. لكن يجدر بى أن اذكر للقارىء انى فى صدر شبابي كنت لا آكل اللحوم وآنفها الى سن السابعة عشرة تقريبا فلم اقرب اللحوم.. وان كنت اتناولها بحذر حاليا وبقدر ما. ومن ثم فان منظر اشلاء سمك التونة المبعثرة فى المصنع اعاد الى ذهنى عقدة الماضى من جديد .

أما ما أحببته حقا فى تونس فكان ومازال البلح التونسى المجفف شديد الحلاوة حلو المذاق عظيم الفائدة والمسمى بدجلة (١) النور. وتصدر تونس منه كميات وافرة الى اوروبا خاصة ان صناعة تعليب دجلة النور اصبحت صناعة حديثة فاخرة مبهجة للعين وللمذاق ..

وأهل تونس خليط من اجناس البحر الأبيض المتوسط.. فقد استوطن تونس - بعد التوانسة الاصليين.. الفنيقيون واليونانيون والرومان والعرب والكريتليون (أهل كريت)، والاتراك والفرنسيون والايطاليون والمالطيون والصقليون وأهل سردينيا والأسبان.. لم يكونوا كلهم قوما غزاة، وانما نزح الكثيرون منهم إلى تونس - قبل استقلالها لسماحة التونسيين وكرمهم وحسن معشرهم ..

ومن ثم فالتونسيون اليوم حسنو الطلعة تميل بشرتهم الى اللون الأبيض الفاتح لدرجة تفوق جيرانهم الى اليسار (الجزائريين) وجيرانهم الى اليمين (الليبيين) وأهل تونس شعب مسالم محب للاجنبى، مضياف ولا يميلون الى العنف مما دعا الغزاة الأجانب تاريخا - سواء كانوا من العرب أو الأتراك أو الرومان - إلى أن يعقدوا مقارنة سريعة بين أهل تونس وأهل

---

(١) البلح فى تونس اسمه دجلة نسبة الى نهر دجلة فى العراق .

الجزائر وأهل المغرب فقيل على لسان الغزاة «المغرب أسد كاسر والجزائر محارب باسل، أما تونس فامرأة جميلة» .

والحق أن ماشهدناه من كرم وحسن ضيافة بعض كبريات العائلات التونسية بعد أن استقر بنا المقام فى تونس ليعزز تماما صورة تونس المضيافة وشعبها المضياف المحب للمصريين.. كذلك ما رأيناه من حسن وبهاء فضليات السيدات التونسيات أو زهرات المجتمع التونسى ليعزز تماما ايضا ذلك القول المأثور بأن تونس تمثلها امرأة جميلة ولن يدهشك ايها القارىء ان تعلم أن الشعب المثقف التونسى بصفة عامة ذكى مطلع ملم بمجريات الأمور فى العالم اجمع وفى العالم العربى بصفة خاصة والجميع يتكلم الفرنسية إلى جانب العربية.. أما المتعلمون فى تونس فيجيدون الحديث بالفرنسية إجادة تامة أما عامة الشعب فقلّ أن تجد شابا أو شابة لاتتحدث بعض الفرنسية على الأقل بل إننا وجدنا أن بعض الفتيات البدويات الصغيرات كن يطلبن شيئا من المعونة أو الاحسان مستعملات بعض الكلمات الفرنسية !!

وهذه ايضا ظاهرة موجودة بالمثل بطبيعة الحال فى المغرب ايضا فكل من تونس أو المغرب عاشت تحت الاحتلال الفرنسى قرنا أو أقل من القرن، لكن تلك الظاهرة موجودة بشكل اقوى واظهر فى الجزائر حيث كان المستعمر الفرنسى ينظر الى الجزائر

على انها ليست ارضا اجنبية محتلة وانما جزء لا يتجزأ من الوطن الفرنسي !

والغريب فى الأمر انه لما كنت فى واشنطن كان امامى عرض السفير على كامل فهمي بمرافقته الى تونس كما كان هناك امامى احتمال آخر وهو أن انقل الى برن فى سويسرا مع السفير محمد عبدالشافى اللبان.. ولم تكن وزارة الخارجية قد اختارت لى الواحدة أو الأخرى بعد كما لم يكن أحد من زملائى فى واشنطن يعلم شيئا عن هذين الاحتمالين.. ومع ذلك فإن أحد زملائى وهو (السفير) حسن سالم وكان قد وهبه الله شفافية غير عادية فى قراءة فنجان القهوة نظر مرة فى فنجانى وانبأنى بأنه أمامى طريقان احدهما جبلى والآخر ساحلى على حافة البحر لكنى ساستقر قرب البحر وليس فى وسط الجبال وسيكون بجوارى شخص عجوز ذو لحية بيضاء طويلة !!

وفعلا صدقت النبوءة وانتقلنا إلى تونس وسكنت على البحر في قرطاجنة قريبا جدا بل على مرمى حجر من قصر «الباى» ذى اللحية البيضاء الطويلة المشتعلة !! كنت أرقب الحرس الملكى الذى يحرس سراى الباى فى قرطاج متعجبا فرداؤهم الأزرق ولباس رأسهم الأحمر الفاتح (شيشية صوف) كان يذكرنى بجنود محمد على الكبير .. وكذلك قصر الباى فى قرطاج كان هو الآخر

استمرارا للتاريخ القديم .. وعلى رأس هذا التاريخ شديد القدم كان يجلس الباى نفسه - قطعة من التاريخ القديم لم يعد لها مكانها فى مجتمع تونس الحديث .. خاصة بعد الاستقلال فقد ظلت تونس حوالى مائة وعشرين عاما تحت حكم الفرنسيين الذين عزلوا الشعب التونسى تماما عن الباى ، وعزلوا الباى تماما عن شعبه التونسى حتى فقد التوانسة الاحساس بفائدة الباى بل بوجوده .. ولم يشارك الباى وعائلته فى نضال تونس من أجل الاستقلال بل ظل مستسلما حبيس قصره .. لذلك كان طبيعيا تماما فى نظر التوانسة أن يزول نظام الملكية بزوال الاستعمار الفرنسى فقد ارتبط الاثنان تماما فى نظر التوانسة الذين تطلعوا بعد استقلالهم إلى تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية شـــاملة ..

كان الرئيس (السابق) بورقيبة أول رئيس لجمهورية تونس بعد استقلالها .. لكن أول رئيس لدولة تونس المستقلة كان «الباى» (الملك) السابق .. وكان آخر سلالة العائلة المالكة التونسية من أصل تركى وكان يلقب بالباى مثلما كان الحال فى مصر تحت رئاسة المماليك ومنهم على بك الكبير ومراد بك الخ ، وكان باى تونس عجوزا بلغ الثمانين من العمر مهيب الطلعة له ذقن طويلة غلبها اللون الأبيض الناصع ، وبعد استقلال تونس ظل الباى على

كرسى العرش عدة شهور إلى أن خلعه بورقيبة وأعلن انتهاء الملكية وبدء الجمهورية واختاره الشعب رئيسا للجمهورية ، ثم رئيسا لها لمدى الحياة إلى أن خلعه الرئيس الحالى على زين العابدين سنة ١٩٨٧ ..

والانصاف يدعونى إلى تذكرة القارىء بأن الشعب التونسى خاض معارك كثيرة ، ضد الغزاة الأجانب سواء كانوا من الرومان أو الاتراك أو الفرنسين . ولم يتقبل الشعب التونسى الاستعمار الفرنسى دون حركة غليان دائبة فقد قامت جمعيات سرية إرهابية كثيرة منها «اليد السوداء» اغتالت كثيرا من المستعمرين الفرنسيين وقضت مضاجعهم ، كذلك قاد الرئيس (السابق) بورقيبة والزعيم صالح بن يوسف وغيرهما حركة المقاومة المتمثلة فى الحزب الحر الدستورى والتى انتهت بالغاء الحماية الفرنسية واعلان استقلال تونس سنة ١٩٥٦ - كذلك فالعدل يقتضى أن نذكر بأن طبوغرافية تونس وخلوها من الجبال والهضاب المرتفعة (بعكس المغرب والجزائر التى بها سلسلة جبال الأطلس المرتفعة الوعرة) وبعكس ليبيا التى قامت بها حركة المقاومة الباسلة ضد الاستعمار الإيطالى فى الجبل الأخضر ، كذلك حجم الشعب التونسى الذى لم يزد فى أى وقت من أوقات الاحتلال على ثلاثة ملايين شخص فقط ، جعلته فى غير مقدرة على شن حملات مقاومة عسكرية

واسعة النطاق ضد المستعمر الأجنبى مثلما حدث فى المغرب أو الجزائر أو حتى فى الجبل الأخضر ، ليبيا.

وكان الرئيس بورقيبة يطيب له أن يقص القصة التالية فى مجالسه الخاصة .. عندما اشتدت وطأة الحركة الوطنية واشتد بحث السلطات الفرنسية الحاكمة عن بورقيبة لإعادة اعتقاله وسجنه هرب بورقيبة على الأقدام عبر ليبيا إلى مصر حتى وصل إلى مركز حدود السلوم منهكا تعبا لكنه كان يتشوق إلى احتفاء مصر ببطل معركة استقلال تونس .. واستقبله ضابط الحدود أو الجوازات المصرى وأعلن له بورقيبة فرحا بوصوله إلى نهاية المطاف عن شخصيته قائلا «أنا بورقيبة» لكن ضابط الجوازات المصرى لم يكن قد سمع أبدا عن «بورقيبة» هذا ، وتساءل من هو «أبو رقيبة» ؟ «أبو رقيبة مين » ؟

وأسقط فى يد بورقيبة ؟! أبعد كل هذا الكفاح جيلا بأكمله وفراره إلى مصر عبدالناصر ! مصر مشعل الثورة ضد الاحتلال ، مصر المضيافة التى جعلت من نفسها قبلة المكافحين من أجل الاستقلال ، لم يسمع ضابط الجوازات المصرى بمجرد اسم «بورقيبة» ! زعيم حركة الاستقلال فى تونس الشقيقة لمصر ومضى بورقيبة يشرح له من هو «أبو رقيبة» وما قدره ومنزلته فى تونس ، وتوقعه بشدة لترحيب السلطات المصرية به .. لم يكن أمام ضابط

الجوازات المصرى سوى أن يتصل تليفونيا برئاسته فى القاهرة مستفسرا منهم عن «أبو رقيبة» هذا ! وفعلا جاءه الامر بحسن استقباله وبتسفيره فى سيارة سلاح الحدود إلى القاهرة لكن كان يتعين على بورقيبة أن يبيت ليلته فى مكتب ضابط الجوازات إلى أن تصل السيارة التى ستقله إلى القاهرة وامضى بورقيبة ليلته الأولى فى مصر راقداً فوق مكتب الضابط فلم يكن هناك سرير أو مكان آخر يبيت فيه !! وكان بورقيبة يقص قصته هذه ضاحكا متندرا بنوعية اللقاء الذى ناله فى مصر أول يوم وصوله.. لكن مصر اكرمت وفادته ومنحته معاشا محترما ثابتا - ١٠٠ جنيه مصرى وكانت كثيرة فى ذلك الوقت ظل يتقاضاه الى أن قرر العودة الى تونس لاستئناف الكفاح وإلى أن صار أول رئيس لوزارة تونس فى عهد الاستقلال .

ولا يمكن استكمال الحديث عن بورقيبة دون أن اسجل للرجل انه حفظ الجميل لمصر فبعد افتتاح سفارتنا فى تونس وتقديم السفير على كامل فهمى لأوراق اعتماده لم يكن بورقيبة يترك مناسبة رسمية أو غير رسمية الا وأظهر فيها حبه وتقديره لمصر فى شخص سفيرها على كامل فهمى.. ورغم أن اتفاقية الاستقلال التى وقعتها تونس مع فرنسا نصت على أن سفير فرنسا فى تونس يتولى منصب عميد السلك الدبلوماسى الاجنبى فى تونس ،

ورغم ان ترتيب سفير مصر فى أسبقية تقديم أوراق الاعتماد وضعه فى المركز الرابع أو الخامس إلا أن الرئيس بورقيبة كان يدعوه أمام الجميع فى بعض المناسبات للجلوس الى يمينه أو إلى يساره قاصدا بذلك تكريمه وتكريم مصر أمام جميع الحاضرين .

أما شعور الشعب التونسى نحو مصر سنة ١٩٥٦ فكان لا يقل حماسا واعجابا عما كان يظهره الرئيس بورقيبة. فعندما كان المرحوم السفير على كامل فهمى يذهب بسيارته الرسمية التى يرفرف فوقها علم مصر أيام الجمعة لتأدية الصلاة كانت جموع الشعب التونسى تتسابق للمس العلم المصرى ولمس سفير مصر أو محاولة تقبيل يده أو حمله على الاعناق وهو ماكان يرفضه السفير طبعا. كل ذلك وسط زغاريد السيدات وبنات البلد.. ولما كثرت مظاهر الحفاوة بالسفير وكادت تبلغ حد المظاهرات الاسبوعية الحت السلطات التونسية الى سفيرنا بأن يقلل من ظهوره فى صلاة الجمعة بصفته الرسمية وأن يذهب للصلاة متخفيا أو دون مظاهر رسمية ..

إلا أن مظاهر الحب والتقدير لمصر استمرت فى شكل التفاف مشايخ جامعة الزيتونة وجامعة القيروان (وهما أعلى سلطتين دينيتين فى تونس) ورجال الثقافة العربية والصحافة العربية حول سفيرنا ومجالسه . ومن الواضح أن ذلك الحب والتقدير من جانب

ذلك الشطر من التوانسة الذى درس اللغة العربية والفقه الاسلامى فى الزيتونة والقيروان كان طبيعيا، لكن التقدير لمصر لم يكن مقصورا عليهم بل تعداهم الى جموع الشعب التونسى حتى الذين يدرسون فى المدارس والجامعات الفرنسية.. وحتى بين من يجهل القراءة والكتابة ..

وإن انسى لا أنسى ذات مرة وكنا زوجتى وأنا جالسين فى شرفة منزلى المطلة على البحر فى قرطاج من ضواحى مدينة تونس ولم يكن المارة فى الطريق أمام المنزل يرونا فى جلستنا هذه، أن سمعنا فريقا من شباب تونس المرتدى الزى الوطنى يمر أمام المنزل وقال احدهم «هذه كهــربة قنصل عبد الناصر ! يعايشه» (١) .

واذكر جيدا انه لما حدث العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر ٥٦ وكانت سفارتنا فى تونس لم تكد تفتح فى يوليو ١٩٥٦ تدفقت جموع الشباب التونسى بالمئات على مقر سفارتنا للتطوع للخدمة العسكرية فى مصر للمشاركة فى صد العدوان: وكنت قنصل مصر فى تونس وكان واجبى يقتضى بأن اسجل اسماء المتطوعين وعناوينهم، وشكرهم، ووعدهم بالاتصال بهم عندما تقرر سلطاتنا

(١) كهربة كلمة تونسية دارجة تطلق على السيارة. أما يعايشه فمعناها يعيش! ويقصدون طبعا يعيش عبد الناصر وليس قنصله ..

فى مصر الاستعانة بالمتطوعين الأجانب. وهذا لم يحدث بطبيعة الحال.. غير أن حماسهم وغيرتهم كانت حقيقية وكانت جديرة بالتسجيل. أما خلال موسم الحج فكان واجبى أن أمنح تأشيرات الدخول الى مصر للآلاف المؤلفة من التوانسة الذين لم يكونوا يريدون مجرد المرور بمصر فى طريقهم الى الحج بل كانوا يلحون فى طلب تـأشيرات تسمح لهم بالاقامة شهرا أو اكثر فى طريق العودة من الحج ايضا ...

ومازلت اذكر ذلك «الجربى» Djerbi البقال القريب من دارى فى قارتاج. كان يتزين بالزى التونسى الوطنى أى شيشية (١) حمراء فوق الرأس، ونوع من العباءة الصوف (المغزول محليا من صوف الماعز أو الأبل الكثيرة المتوافرة البنية اللون أو السوداء اللون فوق صديرية وسروال ضيق متوسط الطول وبلغة أو حذاء وطنى.. وكلما ذهبت إليه لشراء امر من الأمور كان يردد على مسامعى أنه يحب شيئين فى الدنيا هما بهذا الترتيب : عبد الناصر وفريد الاطرش..

والواضح أن الشعب التونسى فى تلك السنوات ٥٦ - ١٩٥٧

(١) الشيشية مثل الطربوش الاحمر لكنها غير مقواة بل مثل الطاقية الصوف الحمراء اما زى السيدة التونسية الوطنى فكان السفسارى (عباءه بيضاء رحبة طويلة) ويلبس أو يلف الجسم فوق الرداء ويغطى الرأس والوجه احيانا حسب الحاجة ويصل الى اسفل الساقين .

كان شديد الإعجاب بأغانى فريد الأطرش لكن إعجابه بأم كلثوم أيضا كان عظيم الشأن .. وكذا بألحان عبدالوهاب وبالأفلام المصرية .. ولا أنسى إعجابه وتقديره لعبدالناصر !

وكانت سيدات المجتمع فى تونس تدعو حرم السفير على كامل فهمى ومعهن بعض سيدات السفارة المصرية ومنهن زوجتى إلى حفلات شاى أو قهوة نسائية صباحية (مقصورة على النساء) .. وفى تلك الحفلات كانت أغانى مصر : الأطرش ، وأم كلثوم ، وعبدالوهاب هى التى تحيى الحفلة .. لكن المهم فى الأمر أن السيدات التونسيات كن يتبارين فى «الشطح» (أى الرقص المنفرد) على الأنغام المصرية .. وكن يبدين أشد الدهشة عندما يعلمن أن السيدات المصريات يأبين الرقص حتى على الأنغام المصرية وليس من عادتهن اداؤه بالمثل . وليس معنى ذلك أن الحفلات كلها كانت مقصورة على النساء وحدهن والرجال وحدهم. بل إن المجتمع التونسى الراقى كان يمارس الاختلاط بحضور الأزواج مع الزوجات حفلات العشاء أو الغداء أو حفلات السمر أيضا .. ولا ننسى فضل عدد من كبريات العائلات التونسية فى دعوتنا إلى العشاء على موائد فاخرة وعامرة فى منازل توحى بالذوق الرفيع وحسن الضيافة .

والمطبخ التونسى غنى ومتنوع ولا يختلف كثيرا عن مثيله المصرى سوى فى تفوق المطبخ التونسى فى قسم الطواجن

ويطلقون عليها «طاجين» وهى عادة طواجن من الفخار الذى تشتهر تونس بصنعه ويستخدمون جميع أنواع الخضراوات أو اللحوم أو الدواجن فى هذه الطواجن «المسبكة» ويشتهر المطبخ التونسى بأنواع البوريك «ويسمونه البريك» المحشوة باللحم المفروم أو قطع المخ ولكن بصفة خاصة بالبيض غير تام التماسك . ويتقن التونسى أكل البريك ذى البيضة «السائلة» دون أن يترك نقطة واحدة منها تقع من البريك ! وبالمناسبة فان هذا اللون اسمه فى تونس البريك بالعضم لأن العضم عندهم هو البيض ومن العيب لديهم ذكر كلمة بيض فى المجالس المهذبة لأن معناها عندهم مقصور على المعنى البيولوجى أو التشريحى بالنسبة للذكور .. والشىء بالشىء يذكر فيجب ايضا تلافى ذكر كلمة طحينة فى مجالس التوانسة فمعناها لديهم ينصرف إلى سلوك القوادين وأمثالهم .. والعياذ بالله .

هذا ولما كانت قد قامت فى تونس صناعة ناجحة لصيد التونة وتعليبها فقد أصبحت التونة فى تونس اشبه شىء بالفول المدمس أو الطعمية فى مصر فالعامل والتاجر والطالب يتناول غداء سريعا عادة مكونا من سندوتش مستدير (عيش فينو مستدير) متوسط الحجم أو كبير الحجم وبداخله شرائح سمك التونة المعلب فى تونس مختلطا مع عجينة «الهريسة» المعبأة فى تونس ايضا أى

عجينة مصنوعة من مسحوق الفلفل الأحمر الذى يزرع بكثرة فى تونس ومع بعض زيت الزيتون الذى تنتجه تونس بكثرة ايضا.. وسندوتش التونة بالهريسة اذن هو طبق الطعمية التونسى وهو يماثل الى حد كبير شكلا وتركيبا سندوتش الـ Pan Bagnat الذى تشتهر به منطقة Nice وجنوب فرنسا بصفة عامة.. وربما اصلهما سندوتش التونة بالهريسة التونسي.. وبمناسبة الحديث عن التونة فان المطبخ التونسى يشتهر ايضا بالأسماك والجمبرى واللانجوست وغيرها من طيبات البحر، الى جانب طبق الكوسكوسى Couscous الشهير فى كل شمال افريقيا طبعا.. ويؤكل الكوسكوسى وفوقه ثريد من الخضراوات ومن اللحوم أو الأسماك أو الدجاج.. أو كنوع من الحلوى وفوقه بعض اللبن الحليب والبلح التونسى الشهير الفاخر والملقب بدجلة النور وهو بلح جاف يحتوى على نسبة عالية من السكر. والبلح فى تونس يسمى دجلة نسبة إلى اصله العراقي ولا شك كما أسلفنا ..

وتحضرنى ايضا، بمناسبة اختلاف استعمال الشعوب الناطقة بالضاد لبعض الكلمات العربية، تحضرنى واقعة طريفة.. فعندما كنت ابحث عن سكن دائم لى اخذت سيارتى بصحبة زوجتى ورحنا نبحث عن دار للايجار، فى حى قارتاج جمرت السكنى الراقى. وفى سنة ١٩٥٦ لم تكن هناك فى تونس وسائل اكثر

تنظيما وأكثر فعالية فى البحث عن السكن أكثر من التردد على الأحياء المناسبة وسؤال البقالين والبوابين وامثالهم ..

فلما كان يعجبنى حى معين أو بقعة معينة كنت أوقف سيارتى أمام واحد من هؤلاء وأسألهم «بالمصرية الدارجة طبعا «فى بيت للايجار؟ » .. وكان هذا السؤال يثير حيرة لدى السامعين التوانسة كما تبين لى بعد عدة استفسارات فكلمة «بيت» فى تونس انما تعنى الحجرة الواحدة. ولايستعملون كلمة للايجار وسرعان ماتعلمت منهم بحكم التكرار انه كان يجب على أن اتساءل «فم دار للكراة» ؟! مع تشديد النطق على الألف الأخيرة فى كلمة الكرا (الكراء بالعربية الفصحى تعنى الايجار كما هو معلوم، اما كلمة فم فما هى الا تحريف للكلمة العربية الفصحى «ثم أوثمة أى ثمة دار للكراء ؟) .

والواقع أن اللهجة التونسية الدارجة غنية بالكلمات العربية القديمة وينطقونها أقرب إلى العربية الفصحى .

فمثلا «تونس باهية ياسر» بمعنى أن تونس جميلة جدا ووسيلة التونسى للاستفسار عن صحة صديقه هى السؤال.. كيف انك .. لاباس ؟! والزرابى وتعنى السجاجيد، والزرابى كلمة عربية قديمة وردت فى القرآن الكريم .. وينطقونها بلهجة مفهومة واضحة

تختلف كثيرا عن اللهجتين المغربية والجزائرية ولا تكاد تخالف كثيرا اللهجة الليبية فتونس تخلو من عنصر القبيلة أو البربر المنتشرة فى الجزائر والمغرب .

والواقع ان برد تونس فى الشتاء أى فى يناير وفبراير ١٩٥٧ قد اخذنا على غرة ولم نكن نتوقعه.. خاصة بعد اعتيادنا على البيوت ذات التدفئة المركزية العالية فى واشنطن فكنا قد استأجرنا فيلا جميلة جدا بحديقة واسعة تطل على البلاج والشاطىء فى منطقة جمرت السياحية لكنها لم تكن مزودة بالتدفئة المركزية وانما بمدفآت تقوم على حرق الفحم أو الأخشاب وأمضينا عدة ليال فى ديسمبر نتدثر بأربعة من البطاطين لم تفلح فى درء البرد والرطوبة عنا وكان صاحب الدار فرنسى اسمه مسيو Lecari وعندما شكونا اليه حالنا أحلنا من العقد وسمح لنا بفسخه طواعية وبنفس كريمة.. وعدنا نبحث عن دار أخرى للكرا ووجدنا المطلوب فى حى قارطاج قرب سراى الباى وتطل على الشاطىء ايضا أمام منطقة الآثار الرومانية القديمة وكانت هذه الدار ملكا للسيد أحمد القروى سكرتير عام مجلس الوزراء.. بيد أن هذه الدار كانت مزودة بالتدفئة المركزية وبحديقة غناء ايضـــــا.. وامضينـــا فيها بقيـــة

المدة التى عشناها فى تونس الى أن نقلنا منها أواخر عام ١٩٥٧.

ويوم تم عزل الباى وإلغاء الملكية واعلان الجمهورية كنت فى شرفة منزلى عندما اخذوا الباى العجوز فى سيارته لآخر مرة الى منفاه ومنه الي مثواه الأخير.. وقد كنت من الدبلوماسيين القلائل الذين شاهدوا تونس فى عهدين مختلفين وفى فترة الانتقال من الملكية الى الجمهورية.. وقد ذهب الباى غير مأسوف عليه ولم يستثر تقدمه في السن الشفقة أو العطف سوى انه حماه من القتل أو التعذيب ..

كان بورقيبة رمز استقلال تونس، رمز كفاحها الثورى حتى ظفرت بالاستقلال.. وكان بورقيبة اريبا ذكيا وسياسيا بعيد النظر ادرك ببصيرته انه لابد من مهادنة الفرنسيين ومداراتهم بحسن السياسة والدهاء والدبلوماسية من أجل أن يظفر باستقلال تونس.. وكان شغل الفرنسيين الشاغل حرب الجزائر وكان همهم الأول وأد ثورة الجزائر مع استعمال كل أساليب البطش والتنكيل فكانوا يعتبرونها جزءا من فرنسا الأم.. وكانوا يخشون أثر اعترافهم باستقلال تونس على زيادة اشتعال ثورة الجزائر، كما كان العسكريون الفرنسيون يؤكدون حاجتهم الى قواعدهم فى تونس لمساعدتهم فى اقفال حدود الجزائر مع تونس ومن ثم أهمية عدم تخلي فرنسا عن قاعدتها البحرية والعسكرية فى ميناء بنزرت

الشهيرة في تونس قرب حدود الجزائر. ومن ثم كانوا لايوافقون على نيل تونس كل استقلالها كاملا غير منقوص دفعة واحدة سنة ٥٦ وإنما على درجات. ولما كان بورقيبة قد أدرك استحالة قيام ثورة عسكرية ناجحة فى تونس على غرار ثورة الجزائر وفى نفس توقيتها (تونس تختلف عن الجزائر طبوغارفية وحجما واستعدادا). فقد اهتدى بورقيبة الى ماأسماه دبلوماسية الخرشوفة La Di-plomacie de l ártichout حيث إن المرء يأكل ثمرة الخرشوف بنزع أوراقها ورقة ورقة وغمسها فى صلصة الزيت بالخل والليمون قبل أن يصل الى مكافأته المجزية فى النهاية وهى قلب الخرشوفة أى الاستقلال التام.. ومن هنا توصل بورقيبة إلى الاتفاق مع الفرنسيين على نيل استقلال تونس على دفعات. فظلت فرنسا حتى بعد اعلان استقلال تونس تحتفظ بقاعدتها فى بنزرت وقواعد أخرى على حدود الجزائر.. وكان الوضع مقبولا فى البداية لكن سرعان ماوجدت تونس نفسها بين نارين، نار الفرنسيين من ناحية، والمد الثورى الاشتراكى من ناحية أخرى ..

فبعد حدوث وفشل العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ فإن موجة الوطنية العربية العارمة التى صاحبت انسحاب قوات العدوان عن مصر، وزيادة المد الاشتراكى الثورى العربى فى مصر وعبر ليبيا حتى وصل وتجاوز حدود تونس، ثم زيادة

مساعدات مصر لثورة الجزائر وبالتالى زيادة تأججها مع ازدياد أعمال البطش والكبت الفرنسية ضد الجزائريين، كل ذلك كان له صدى وردود فعله داخل تونس ذاتها ومابين طبقات سياسييها وحكامها.. وقد اختلف عدد منهم مع بورقيبة.. ومنهم صالح بن يوسف إلى جانب اليسار التونسى حسن التنظيم وحسن الاعداد.. فإلى جانب بورقيبة والحزب الحر الدستورى كان هناك اليساريون التوانسة الذين درسوا فى فرنسا وتأثروا بالماركسية أو الاشتراكية أو على الأقل بالحركة النقابية الفرنسية اليسارية الميول.. وكان اليسار التونسى بصفة عامة لا يرضى عن سياسة الخرشوفة ولا عن مظاهر استئثار الحبيب بورقيبة بالسلطة وطريقة اتخاذه للقرارات منفردا .

وكان على رأس المعارضين صالح بن يوسف زميل بورقيبة فى الكفاح من أجل الاستقلال. ومالبث صالح بن يوسف ان فر خارج تونس خوفا من بطش بورقيبة واحتضنه الرئيس عبد الناصر فقد رأى فيه امله فى تحدى الفرنسيين وطردهم من كل تونس والجزائر وربما فى نشر ألوية الاشتراكية والوحدة العربية فى شمال افريقيا.. وكانت هذه فترة زيادة نشاط اجهزة المخابرات المصرية ليس فى شمال أفريقيا وحسب وإنما فى لبنان وغيره من الأقطار العربية مما أدى إلى نزول القوات الأمريكية فى لبنان سنة ٥٨ كما

يذكر القارئ. ومن جهة أخرى كان بورقيبة يقع تحت ضغط الاحتلال الفرنسى الجاثم قرب مدينة تونس العاصمة نفسها وفى بنزرت وعلى طول حدود تونس والجزائر.. وإلى جانب الفرنسيين كانت قوات جبهة التحرير الجزائرية نفسها قوة لا يستهان بها وذات بأس وذراع طويلة داخل تونس نفسها.. وكان بورقيبة يخشى بأسهم إن استجاب إلى الفرنسيين فى طلبهم احكام اقفال الحدود التونسية الجزائرية لمنع وصول الامدادات العسكرية الى الجزائريين من مصر عبر ليبيا والجنوب التونسى ومن هنا حدثت عدة تحرشات ومواجهات ما بين القوات الفرنسية والتونسية على حدود الجزائر خسر فيها التونسيون عشرات القتلى صرعى غضب القوات الفرنسية وتصميمها. وكان على رأس الشهداء التونسيين أحد وكلاء وزراء الخارجية التونسية وهو المرحوم خميس الحجرى الذى أوفده بورقيبة الى الحدود ذات مرة ليحاول تهدئة الفرنسيين، لكن دون جدوى..

وكان نشاط السفارة المصرية فى ليبيا فى ذلك الحين يعكس رأى رجال المخابرات المصرية بأن تونس وشعبها متلهفان إلى استقبال وتقبل الثورة والاشتراكية العربية، وكانت سفارتنا فى طرابلس تزود المدرسين المصريين العاملين فى ليبيا بنشرات وكتيبات تشرح وتدعو لتلك الفلسفة الثورية.. وكان الكثيرون منهم

شغوفين بقضاء اجازاتهم الدراسية فى تونس حاملين معهم تلك المطبوعات. ومن هنا كثر احتجاز المدرسين المصريين فى مراكز الحدود التونسية لتفتيشهم.. ومصادرة مايحملون من دعايات. وكثر احتجاج السلطات التونسية إلى سفيرنا فى تونس على هذا النشاط الذى اعتبرته معاديا لنظام بورقيبة ..

أما على كامل فهمى سفيرنا فى تونس فكانت رؤيته للاوضاع السارية فى تونس أكثر واقعية وأكثر صدقا وشفافية وقد اختلف رأيه كثيرا مع رأى أجهزة مخابراتنا من حيث تقديرها لمدى فرص نجاح محاولات صالح بن يوسف لتولى مقعد الرئاسة فى تونس وكان يقدر شعبية بورقيبة ومدى قدراته على ضمان استقرار حكمه التقدير الصحيح.. لكن ذهبت محاولات سفيرنا ادراج الرياح واستمرت مظاهر تغلب وجهات نظر المخابرات المصرية الى أن طلب بورقيبة رسميا إغلاق السفارة المصرية فى تونس وقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر لما اسماه بنشاط مصر المعادى فى تونس وكان ذلك سنة ١٩٥٨ .

كنت أراقب هذه التطورات أواخر ايامى فى تونس عام ١٩٥٧ فقد نقلت منها فى نوفمبر سنة ١٩٥٧ وكنت اسأل اصدقائى التوانسة فى كثير من الحذر والدبلوماسية عن رأيهم فى الخلاف مابين بورقيبة وصالح بن يوسف أو ما بين مدرستى المهادنة

والتدرج ومدرسة المواجهة الثورية الاشتراكية الفورية.. وقد عبرت «ست حلومه» وهى سيدة تونسية فقيرة غير متعلمة كانت تعمل طاهية فى منزلى، عبرت أجمل تعبير وباختصار شديد عن رأى سواد الشعب التونسى حين اجابتنى «لا يهمنى يابنى الفارق بين بورقيبة أو غيره إن مايهمنى هو أن يحكمنا شخص يضمن لى ولأولادى لقمة العيش.. وبورقيبة يعنى حاليا بهذا الأمر... أما إذا قصر فى ذلك فبالسيف !!» .

وقد اقفلت السفارة المصرية فى تونس مع قطع العلاقات سنة ١٩٥٨ وظلت العلاقات مقطوعة الى نهاية الستينات. أما بورقيبة فظل يحكم تونس من سنة ٥٦ على مدى ثلاثين سنة أخرى. بل لقد جدد الشعب له البيعة مرات وانتخبه رئيسا للجمهورية التونسية مدى الحياة. وتوالى ثلاثة من أعضاء الحزب الحر الدستورى رئاسة الوزارة فى ظل رئاسة بورقيبة للجهورية وكان بورقيبة يحسن تقليم اظافرهم أولا بأول مع الاسراع فى استبعاد كل رئيس وزارة تزداد شعبيته أولا بأول مثال ذلك الباهى الادغم والهادى نويرة وهكذا ...

كان بورقيبة شخصية فريدة حقا.. كان شجاعا جريئا وصريحا فى اعلان رأيه بغض النظر عن تـأثيره على سامعيه. كان يدرك فائدة مواجهة الشعب التونسى بالحقائق أولا بأول ويجيد

استعمال أساليب الاعلام الحديثة فى التقريب مابين الحاكم والمحكوم. كان يوجه احاديث اسبوعية الى الشعب التونسى عبر الاذاعة.. يحادثهم فيها باللهجة التونسية الدارجة على مدى ساعتين يشرح لهم أهم مشاكل الساعة ويفسر لهم دواعى وأسباب سياساته.. لم يكن هناك سياسى تونسى آخر يمكنه أن يجارى بورقيبة فى هذا المضمار، وهذا سر من اسرار بقائه على مقعد الرئاسة أكثر من ثلاثين عاما بعد استقلال تونس ..

ومع ذلك فقد اتخذ بورقيبة سياسات وأعلن عن مواقف لم تكن كلها لتنال موافقة الشعب التونسى برمته، وان كانت تنال رضاء جانب منه دون الجانب الآخر.. ومن ذلك اعلانه فى إحدى امسياته الاذاعية الشهيرة، وبعد تفاقم الخلاف بينه وبين مصر عبد الناصر، «أن العرب جرب» وأن البعد عنهم غنيمة.. وإعلانه فى أواسط الستينات بأن ماتنادى به بعض الدول العربية من القضاء على اسرائيل واستمرار الحرب معها ورفض الحوار والسلام وهم باطل وأن الواقعية تقضى بالوصول الى اتفاق واقعى للسلام معها فى أقرب وقت.. وبمعنى آخر سبق بورقيبة الرئيس السادات بحوالى عشرين سنة كاملة ويتفق موقفه فى هذه النقطة مع سياسة مصر الحالية ..

ومن مظاهر شخصية بورقيبة ايضا اقراره لقوانين وتشريعات تمنع الطلاق إلا أمام القاضي وذلك منعا لتسرع بعض الأزواج فى اتخاذ قرار الطلاق.. وتمنع تعدد الزوجات أيضا إلا فى ظروف خاصة ضيقة احاطها بالضمانات القانونية التى تمنع العبث واللهو فى هذا المضمار.. ومع ذلك فقد طلق بورقيبة زوجته الفرنسية شريكته فى الكفاح وأم ولده الحبيب بورقيبة الابن، من أجل أن يتزوج من سيدة تونسية كانت زوجة لأحد سفراء تونس فى الماضى ..

وقد حاول بورقيبة ادخال نهضة عمرانية وثقافية حديثة. افلح فى جذب الاستثمارات الأجنبية فى ميادين الصناعة والسياحة والزراعة وتغير وجه النشاط السياحى فى تونس تغيراً شاملا.. كما أعطى دفعة قوية للتعليم فى تونس بفرعيه العربى الاسلامى والفرنسى الغربى الحديث.. لكنه لم يستطع اقناع الشعب التونسى – مثلما اراد بورقيبة بالكف عن الصيام خلال شهر رمضان بدعوى أن الصيام لا يتفق مع متطلبات الحياة الحديثة وكفاحها. كذلك نجح بورقيبة فى جذب مقر جامعة الدول العربية المؤقت إلى تونس بعد قرار الجامعة بتجميد عضوية مصر. وظل المقر المؤقت فى تونس (حتى سنة ١٩٩٠) .

كما كان منصب أمين عام الجامعة العربية ظل يحتله الشاذلى

القلیبی أحد وزراء تونس السابقین ..

ما بین ۱۹۷۹ و ۱۹۹۰ لكن .. السلطة تفسد الحكام.. والسلطة المطلقة تفسدهم أكثر وأكثر .

"Power Corrupts.. and absolute power corrupts absolutely " (۱) وهكذا ظل بورقيبة يســـتجمع مظاهر السلطة المطلقة بين يديه على مدى ثلاثين عاما حتى كبرت مظاهر تحكم واستبداد وتخبط الشيخوخة .. وهكذا تراكم الفساد واستشرى داخل اجهزة الحكم الرئاسية وحول شخصية الرئيس، وقبل أن يتمكن بورقيبة من استبعاد الثالث من رؤساء الوزارات الذين اختارهم للعمل تحت رئاسته وهو السيد / زين العابدين بن على وزير الداخلية السابق، تمكن الآخير من تنحية بورقيبة عن الرئاسة وتولى هو الرئاسة بعد أن نال بيعة الشعب دستوريا.. ومع ذلك فان الشعب التونسى المسالم طيب القلب أتم ثورته الثانية، ودخل عهد الجمهورية الثانية فى تونس دون عنف أو إراقة الدم.. ومازال بورقيبة الذى بلغ من العمر ۹۰ عاما يعيش فى موناستير مسقط رأسه فى كنف ورعاية الجمهورية التونسية الثانية.. فقد كان ومازال بورقيبة رغم الأخطاء التى تراكمت فى فترات حكمه

---

(۱) مقولة لأحد فلاسفة الانجليز وهو لورد أكتون Lord Acton

الأخيرة يستمتع بما بقى له من رصيد كزعيم تونس الأول: «المجاهد الأكبر» كما اسماه الشعب التونسى، وهذا جزء من التاريخ ثابت ولاينسى.. والشعوب الاصيلة لا تنسى لكنها تغفر احيانا..

نقلت من تونس للعمل فى ديوان وزارة الخارجية فى نوفمبر ١٩٥٧، وقد قررنا زوجتى وأنا العودة إلى القاهرة بطريق البر أى بسيارتنا عبر الجنوب التونسى ثم عبرنا ليبيا إلى السلوم والقاهرة.. وهى مسافة ٣٢٠٠ كيلو متر وقدرنا أن تكون الرحلة شاقة عبر صحارى جنوب تونس والصحراء الليبية الكبرى ثم صحراء مصر الغربية، لكن كنا مضطرين لهذه التجربة الصعبة فان الوزارة فى ذلك الحين لم تكن تنقل ولو أى جزء من أثاث الدبلوماسيين على نفقتها بل كانت لا تتحمل سوى «مرتب نقل» يوازى مرة ونصف مرة مرتب الدبلوماسى الأصلى فى القاهرة.. ولم يكن هذا البدل لينقل خمس حقائب أو ست .

ومع ذلك فقد كانت تجربة مفيدة حقا اذ اتاحت لنا دراسة مالم نكن قد رأيناه فى الجنوب التونسى من مدن موناستير وصفاقس وسوس وجابس أما فى صفاقس فقد نزلنا فى فندق Les Oli-viers أى اشجار الزيتون.. وهو فندق جميل على شاطىء رملى ناعم ثم رأينا مدينة جابس والكوليزيوم الرومانى الجميل فى منطقة

الجيم Djem ومدينة الحمامات السياحية الجميلة ذات الساحل الرملي الناعم العريض والمياه البلورية الشفافة واشجار الموالح والزيتون والنخيل التى تصل إلى حافة الشواطىء ..

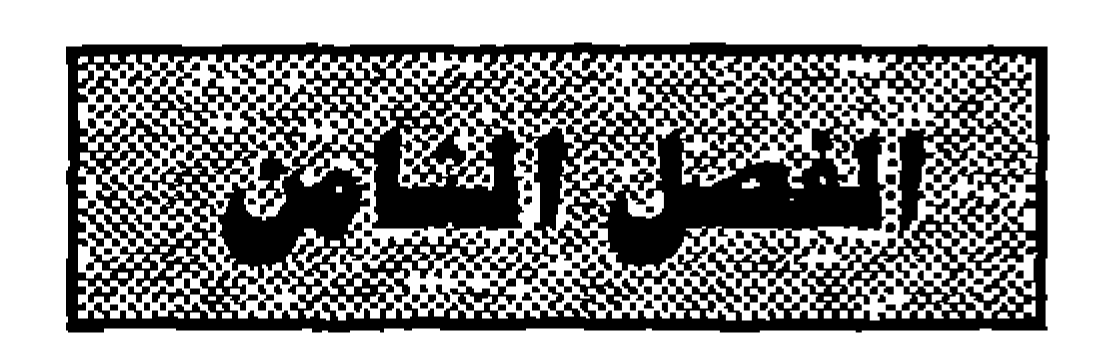
وكانت مَناطق زراعة النخيل والزيتون والموالح تثير الاعجاب حقا من حيث حسن نظامها وجمالها وهى ترتفع وتنزل مابين الهضاب والوديان على مدى البصر. وكلما ازددنا قربا إلى حدود ليبيا ازداد التصحر الى أن عبرنا الحدود الى ليبيا فواجنا الصحراء الليبية التى لم تكن تتخللها سوى بضع شجيرات بين الحين والحين وأمضينا ليلتنا الثانية فى مدينة طرابلس عاصمة ليبيا وادركنا صواب ماذهب اليه مستشار سفارتنا الذى نقل من ليبيا الى تونس عندما قال : إن تونس تعتبر باريس بالنسبة الى طرابلس، ثم عبرنا المسافة مابين طرابلس وبنغازى وهى تزيد على الألف كيلو فى صحراء مقفرة تماما لم يتخللها الا قرية سيرتة أو مدينة سرتة الصغيرة التى تقع فى منتصف المسافة بين طرابلس وبنغازى وأمضيت ليلتى الثالثة (١) .. فى استراحة حكومية فى سرتة لأنها لم يكن بها فندق ذو شأن. وفى اليوم الرابع وصلنا الى بنغازى حيث امضينا الليلة وهى مدينة ذات جو شرقي أكثر من

---

(١) كانت مرحلة اشق مما كنا نظن ومن هنا سافرت زوجتي من طرابلس الى القاهرة بالطائرة وحل محلها زميل قديم اكمل الرحلة معى بالسيارة .

طرابلس وتشابه الى حد ما حلوان القديمة. وكان يتعين علينا أن نحمل معنا في سيارتنا رصيدا احتياطيا من البنزين والماء وتبين أن هذا كان واجبا فالمسافة التي كنا نقطعها يوميا تبلغ خمسمائة كيلو متر لم يكن يتخللها محطة بنزين واحدة هذا ولا أدرى إن كان الحال أحسن هذه الأيام أم لا.. ومن بنغازى مررنا مرور الكرام على طبرق الى أن وصلنا الحدود المصرية والسلوم فمرسى مطروح وأمضينا ليلة خامسة في مرسى مطروح وكان الجو شتاء والفنادق القليلة الموجودة فيها مقفلة مما اضطررنا للنزول لدى بنسيون احدى الأسر اليونانية.. ومن مرسى مطروح للقاهرة آخر المطاف ووصلناها في عصر اليوم السادس.. إلا أنه راعنا ان الطريق فى تونس وليبيا كان كله ممهدا بشكل جيد أى أسفلت ناعم ومستو - وكان يفضل بكثير الطريق من السلوم إلى مرسى مطروح ومن الأخيرة الى القاهرة.. كان هذا سنة ١٩٥٧ ولا شك أن الطريق فى مصر قد تحسن كثيرا فى السنوات الأخيرة.. لكن اجمل ماصادفنا فى الطريق كان «الجبل الأخضر» فى ليبيا مابين بنغازى وطبرق فالاسم مطابق تماما على المسمى.. جبل اشم ضخم تعلوه الزراعة والخضرة.. والسيارة تصعد بك لأكثر من نصف ساعة ثم يستوى الطريق فوق الجبل فاذا بك فى وسط مزارع فاكهة تفاح وكمثرى وغيرها وكأنك لست فى ليبيا وانما فى

ايطاليا وكان الجبل الأخضر ينتمى الى دولة أخرى والى عالم آخر غير طرابلس وبنغازى.. ولاشك أن الزراعة والخضراوات ازدادت فى ليبيا حاليا عما كانت فى سنة ١٩٥٧، لكن لا أشك ايضا فى أن مظاهر أخرى للحياة قد اختلفت ومنها ماوجدناه سنة ٥٧ من وفرة البضائع البريطانية الأوروبية وفرة محيرة ورخص اسعارها وقد انتهزت الفرصة فاشتريت لنفسى بعض الأحذية البريطانية الصنع من طبرق .



فوق قمم جبال الانديز بوجوتا عاصمة كولومبيا

تسلمت عملى فى ديوان وزارة الخارجية مديراً لمكتب أحد وكلاء الوزارة المساعدين الثلاثة وكان المرحوم السفير الأستاذ صالح خليل.. وكان مسئولا عن الشئون الأوروبية والأمريكية الشمالية والأمريكية اللاتينية. وكان مدير إدارة أمريكا الشمالية فى ذلك الحين المرحوم الوزير المفوض عباس الشافعى. وكنت قد عرفته وزاملته فى سفارتنا فى واشنطن بعض الوقت حيث كان قد عين ملحقا عسكريا سنة ٥٤ وكنت أنا سكرتيرا ثانى السفارة فى واشنطن . وقد جمعت بيننا من جديد أواصر العمل المشترك فقد كان مكتبى دائم الاتصال به بحكم تولى الوكيل صالح خليل الإشراف على شئون امريكا.. فلما عين السفير عباس الشافعى

سفيرا لمصر في بوجوتا عاصمة كولومبيا في أمريكا اللاتينية ألح عليّ أن أعمل معه في بوجوتا.. فوافقت بشرط موافقة رئيسي السفير الوكيل صالح خليل فقد كنت أكن له احتراما وحبا حقيقيا فقد كان رحمه الله شخصا شديد التواضع والرقة والدماثة فضلا عن غيرته واقباله على العمل. وقد دهش الوكيل صالح خليل لرغبتي العمل في بوجوتا «آخر الدنيا» واخبرني انه يدخرني للعمل معه عندما يعين بعد عدة شهور سفيرا في بروكسل. ولما رأى ميلي الي قبول منصب أمريكا اللاتينية لغرابته وطرافته قال إن صديقه السفير د. مصطفى كامل قد عين لتوه سفيرا في واشنطن (سنة ٥٨) وانه سوف يسره أن يزكيني لديه فلا شك انه سيرحب بمصاحبة شاب مثلي سبق له العمل في واشنطن لمدة خمس سنوات.. الا انه لما رأى اصرار السفير عباس الشافعي على التمسك بمصاحبتي له وميلي أنا شخصيا لمرافقته وافق اخيرا ولم يضع عقبة امام تعييني سكرتيرا ثانيا في بوجوتا.. وفعلا اصدر الوكيل السفير حسين عزيز وكيل الوزارة الدائم قرارا بندبي فورا الى بوجوتا على أن تصدر الحركة الدبلوماسية المقبلة فتتضمن تعييني بها رسميا..

أما لماذا صدر قرار بندبي فورا في بوجوتا فلأنه لم يكن لدينا أي تمثيل في بوجوتا حتى ذلك الحين.. وكان لزاما عليّ أن أسبق وصول السفير بعدة شهور لافتتح السفارة هناك ولأظل بها كقائم

بأعمال السفارة بالنيابة الى حين وصول السفير وذلك لكى اتمكن من تمثيل مصر فى احتفالات تنصيب رئيس الجمهورية الجديد بعد شهر من وصولى الى بوجوتا..

أما لماذا فضلت العمل فى بوجوتا على العودة إلى واشنطن ثانية أو على العمل فى بروكسل فيرجع ذلك الى حبى وانجذابى الشديد للحضارة الأسبانية واللغة الأسبانية كما اسلفت.. ورأيتها فرصة سانحة لأتكلم اللغة الأسبانية ولأنهل من تلك الحضارة. فان لم يسعدنى حظى بتعيينى فى مدريد فلا أقل من أمريكا اللاتينية هكذا فكرت.. ومن ناحية أخرى فان واحدا من أهم أسباب التحاقى بالسلك الدبلوماسى كان رغبتى فى رؤية العالم بأكمله وتفضيلى الدائم لرؤية موقع جديد على العودة إلى القديم ولم أكن قد وطأت أمريكا اللاتينية بأقدامى بعد .. اما السبب الثالث فيرجع الى حبى وانجذابى للحضارات القديمة فى أمريكا اللاتينية أى حضارات الانكا والمايا والازتيك والشيبشا وغيرها.. والأخيرة عاشت فى كولومبيا وتسمى ايضا باسم Chibcha Muisca قبل الفتح الأسبانى وخلفت اثارا مهمة ..

وهكذا كُلفت بالسفر فى خريف ١٩٥٨ إلى بوجوتا لافتتاح السفارة هناك.. وكانت هذه تجربتى الثانية فى افتتاح السفارات الجديدة فقد شاركت فى ارساء دعائم سـفارتنا الجديدة فى تونس

ايضا من قبل لكن مع الفارق.. فان بوجوتا بلد يتكلم الأسبانية التى لم أكن اتكلمها بعد.. وسوف أصل إلى هذا البلد الغريب ذى اللغة التى لا أعرفها ولا أعرف فيها أحدا ولن يكون احد ما فى انتظارى لتسهيل وصولى أو مهمتي.. ومن هنا بدأت قبل أن اغادر القاهرة اتعلم الأسبانية فورا واشتريت اسطوانات ومعها الكتب الخاصة بتعلم الأسبانية في منزلى.. واقفلت الباب على نفسى اياما طويلة استمع فيها للحديث بالأسبانية واطالع الكلمات فى الكتاب في الوقت نفسه.. وكانت عائلتي تستمع الى مايجرى فى حجرتى وتتساءل احيانا «هل سمير عنده زائر اجنبى ام ماذا» ؟!

المهم.. عندما حان موعد سفرى وزوجتي ومعنا الزميل الدكتور كمال هجرس (١) سكرتيرا ثالثا للسفارة الى بوجوتا كنت استطيع التفاهم بقدر ما باللغة الاسبانية.. أما هما فلم يكونا قد بدآ دراستهما بعد.. ووصلنا بوجوتا مرورا ببروكسل حيث زرنا معرضها الدولى لمدة يومين، ثم منها إلى ميامى فى الولايات المتحدة ومنها إلى بوجوتا. والمسافة مابين ميامى فلوريدا فى الولايات المتحدة وبوجوتا قطعتها الطائرة التابعة لشركة Branniff فى أكثر من ثماني ساعات بعد التوقف في مطارات بعض عواصم امريكا الوسطى .

---

(١) اصبح د. كمال هجرس سفيرا فيما بعد وقد اعير الى دولة عُمان سنوات طويلة عمل فيها كسفير لعمان فى باريس ثم لدى الأمم المتحدة .

وأخيرا وصلنا بوجوتا ذات صباح وكانت الشمس مشرقة.. وهى لا تشرق فى بوجوتا كل الوقت بل إن سماءها كثيرا ماتتلبد بالغيوم حتى وإن لم تمطر ويشرف على بوجوتا من علىٍ جبل اسمه مونت سيرات يجذب اليه السحب وتظل معلقة فوقه وهى ظاهرة واضحة فى بوجوتا.. اقصد تلبد سمائها بالسحب اغلب الوقت وغياب الشمس كثيرا من الأيام ومن ثم زيادة نسبة الرطوبة فى الجو. وبوجوتا ترتفع حوالى ثمانية آلاف وخمسمائه قدم أى الفين وثمانمائة متر فوق سطح البحر بحيث يقل الاوكسجين فى الجو ولهذه الظاهرة الأخيرة تأثير واضح آخر يشعر به الزائر الغريب بمجرد وصوله الى بوجوتا. فالاحتمال كبير أن ينتاب الزائر دوار أو دوخة خفيفة سريعة أول ماتطأ قدماه أرض المطار. ثم لايلبث أن يتمالك نفسه وموطىء اقدامه.. لكنه يحسن صنعا بألا يسرع الخطى سواء فى المشى أو صعود السلم لأنه سيشعر بخفقان القلب ويتعب سريع وقد يلهث من فرط الحاجة الى الاكسجين.. أضف إلى ذلك ما ينتاب الزائر من القلق (ظاهرة قلة النوم) إلى أن يعتاد هذا الجو بعد شهور.. واحيانا كثيرة يصاب الزائر الغريب بالصداع.. دون أن يدرى السبب لكن أهل البلد القدامى يعرفون تماما هذه الظاهرة وأسبابها ويسمونها بالـ Saroche ويصفون لعلاج الصداع والإنهاك شرابا مثل الشاى مصنوعا من

ورق الكوكا Coca وله تـأثير مهدىء.. كما يحبذون بشدة أن يظل الزائر لمدة ساعتين أو ثلاث فى فراشه بمجرد وصوله إلى المناطق المرتفعة ...

حتى السيارات تصاب بصداع الارتفاع هى ايضا.. فتقل قوتها فى بوجوتا عن قوتها الافتراضية بنسبة ٢٥٪ - ٣٠٪ لكن تزداد قوة اذا ما صاحبتها الى مستوى سطح البحر من جديد الى برانكيلا مثلا حيث يكمل احتراق البنزين.. أما فى ارتفاع بوجوتا فإن البنزين لا يتم احتراقه تماما ولهذا يتميز «عادم» السيارات فى بوجوتا برائحة البنزين غير تام الاحتراق.. وتملأ هذه الرائحة شوارع بوجوتا (وسط البلد بسبب زحمة السيارات) وهى رائحة نفاذة لا يعتادها الزائر الا بعد مضى وقت طويل ..

أخذنا سيارة اجرة من مطار إلدورادو Eldorado فى بوجوتا الى وسط البلد وهكذا بدأ انتفاعنا من معرفتى القليلة بالأسبانية.. ثم نـزلـنا فـندق تكنـداما [١] (هيلتـون) فى وسط البـلد حيث اسـتأجرنا ايضا جناحا صغيرا فتحنا فيه مكاتب السفارة مؤقتا..

وقد أعلنت الصحف الكولومبية افتتاح السفارة المصرية ووصول القائم بأعمال السفارة.. وبعدها بيومين دعتنى إحدى

---

(١) شلالات تكنداما قريبة من بوجوتا .

محطات التليفزيون فى بوجوتا لاجراء حديث أمام شاشات التليفزيون .. فتركت زوجتى والزميل د. كمال هجرس يتناولان الغداء فى مطعم الفندق وذهبت لاجراء الحديث الذى تم بخليط من الاسبانية والفرنسية حيث كانت المذيعة تساعدنى فى محاولة التقاط الكلمات الاسبانية وكنت احاول مساعدتها على فهم بعض الكلمات الفرنسية لترجمتها إلى الأسبانية . المهم أن الشعب فى كولومبيا احس بافتتاح سفارة مصرية وبوصول أول طاقم لها ..

ولما عدت إلى الفندق وجدت زوجتى وزميلى فى مطعم الفندق مستغرقين فى الضحك فقد حاولا طلب قطع من الثلج لاضافتها إلى ماء الشرب فطلبا Helado فإذا بالساقى يأتيهم بآيس كريم .. وكان المفروض أن يطلبا Hielo (ثلج) .. ولم يستطيعا حتى النهاية أن يفهما الساقى مقصدهما فأتى لهما بزبادى وهكذا .. ولم يصلهما الثلج إلا بعد وصولى أنا حيث أتت معرفتى القليلة بالأسبانية بفائدتها المرجوة ..

وقد أتت زيارتى للتليفزيون أيضا بفائدتها .. فإذا بكثير من الفلسطينيين المقيمين فى بوجوتا يتصلون مرحبين وعارضين مساعدتهم .. بل اتصل بى بعض كبار الفلسطينيين من مدن أخرى فى كولومبيا ، مثل يوسف دكرت من ميناء بارانكيلا على ساحل البحر الكاريبى ، ومثل فارس غزلان من مدينة كالى ثالث

مدن كولومبيا وهكذا . والشيء بالشيء يذكر .. فقد كان لاتصال هذين السيدين بالسفارة فى أيامها الأولى للترحيب وعرض خدماتهما أثر محمود على علاقات السفارة بهما وبالجاليات العربية فى كولومبيا وتم اختيار كل منهما قنصلا فخريا لمصر فى مدينة (بارانكيلا – كالى) .

ولعل القارئ يتساءل أو قد تساءل عما حدا بمصر اصلا إلى افتتاح سفارة لها فى كولومبيا ؟ فهل العلاقات بين البلدين من القوة سياسيا أو اقتصاديا بحيث تستدعى تبادل السفارات ؟ وللاجابة عن هذا التساؤل الذى هو فى محله اجيب بأن افتتاح مصر لسفارات جديدة لها فى كولومبيا وفى الاكوادور وبوليفيا وفنزويلا والاوروجواى وبنما وبيرو وغيرها جاء سنة ١٩٥٨ نتيجة لسببين : أولهما وجود جاليات سورية (إلى جانب الفلسطينيين واللبنانيين) فى تلك البلاد . ولما كانت قد قامت الوحدة ما بين مصر وسوريا سنة ٥٨ فقد قررت الجمهورية العربية المتحدة تبادل التمثيل وافتتاح السفارات التى ترعى شئون الرعايا السوريين أى أبناء الاقليم الشمالى فى تلك البلاد التى لم تكن بها سفارات مصرية أو سورية من قبل . أما السبب الثانى فقد كان حاجة ج.ع.م إلى أصوات تلك الدول فى الأمم المتحدة بالنسبة للقضية الفلسطينية وأفرعها . وكان غياب تمثيل سياسى عربى فى تلك

الدول مدعاة لترك المجال مفتوحا أمام اسرائيل وحدها لمحاولة كسبها لتلك العواصم إلى صفها .. ومن هنا فإن مهمة سفاراتنا فى تلك البلاد كانت .. ومازالت . لم شمل أفراد تلك الجاليات العربية واحسان تنظيمها واستغلال طاقاتها المخزونة لصالح القضايا العربية لدى تلك الدول سواء بالنسبة للأمم المتحدة والقضية الفلسطينية أو العلاقات الثنائية بين ج.ع.م وتلك الدول .. ومنها كولومبيا .

وكولومبيا تقع فى أقصى الطرف الشمالى أو المثلث الشمالى لأمريكا الجنوبية ولها شاطئان احدهما على البحر الكاريبى والمحيط الأطلسى والآخر على المحيط الهادى . ويفصل بين الشاطئين برزخ جمهورية بنما (وكانت قديما جزءا من كولومبيا إلى أن فصلتها عنها الولايات المتحدة فى شكل جمهورية بنما المستقلة ١٩٠٣ وذلك لكى تشق فيها قناة بنما وتنال حق اقامة قواعد امريكية فيها حتى الآن) .. ومساحة كولومبيا تفوق مساحة القطر المصرى بقليل لكن بدلا من نسبة الـ ٩٦٪ من الصحارى فى مصر فإن كولومبيا كلها مزروعة . أكثر من ثلث كولومبيا الشرقى والجنوبى الشرقى تحتله الغابات الامازونية الكثيفة ، والثلث الآخر تحتله سلسلة جبال وهضاب الانديز شديدة الارتفاع وشديدة الوعورة لكنها أيضا مغطاة بالغابات والاشجار .. والثلث

الباقى تحتله السهول الشمالية الساحلية المنخفضة والمتميزة بشدة الحرارة وشدة الرطوبة (فهى منطقة مدارية) كذلك تحتله وديان نهرى الكاوكا Cauca وماجدالينا Magdalena اللذين ينحدران من جبال الانديز ليصبا فى المحيط ، مكونين واديين من اغنى وديان جمهورية كولومبيا واشدها خصوبة ..

أما العاصمة بوجوتا Bogota وتعدادها حوالى مليونين ونصف فتقع أعلى جبال الانديز وسط الجمهورية تقريبا . ومنذ القديم اسميت بوجوتا "أثينا امريكا اللاتينية" وذلك لما اجتمع بها من عدد كبير من المؤسسات والمعاهد العلمية الكبرى حتى ان بها وحدها خمس جامعات بعضها يرجع إلى تأسيس بوجوتا سنة ١٧١٧ ثم إلى عهد الاستقلال ١٨٣٠ . والمدينة القديمة شوارعها ضيقة مرصوفة بالحجارة السوداء مثل مدن أوروبا واسبانيا قديما ، ومنازلها تمثل الطراز الأسبانى القديم Colonial Spanish المنتشر فى أغلب مدن أمريكا اللاتينية منذ الفتح الأسبانى فى القرن السادس عشر ، أما المدينة الحديثة فشوارعها عريضة واسعة ومنازلها وحدائقها جميلة التنسيق وبها أحياء راقية تضاهى مدن أوروبا الغربية ومنها احياء .. Carrera Septima - Avenida Chila Antiguo Country - Soledad - Santa Anna فضلا عن وسط البلد Avenida Jimenez de Quesada وبها نواد رياضية راقية

ومطاعم ودور سينما جيدة وباختصار فهى مدينة حديثة لكن اجمل منها فى تقديرى مدينة مدين (المدائن) Medellin فجوها أكثر اعتدالا وتبدى مظاهر الاصالة القديمة والعز التليد وبها تقيم عائلات اسبانية اقطاعية قديمة حتى لقد تساءلنا زوجتى وأنا لماذا لم يجعلوها العاصمة بدلا من بوجوتا ؟ خاصة ان مدين جوها "اسبانى" اكثر فى حين ان بوجوتا يخيم عليها كآبة أو حزن الشعب الهندى الاحمر سكان الجبال العالية الباردة .. هذا إلى جانب أن مدين وهى الآن المدينة الثانية وتعدادها مليون أو أكثر فتقع على التلال Nautibarra على حدود سهل الماجدالينا حوالى ٢٠٠ كيلو متر شمال غربى بوجوتا وهى عاصمة البن وصناعات المنسوجات (والمخدرات) والعائلات الاسبانية الأصل القوية بعصبياتها ونفوذها الاقتصادى والاقطاعى وجوها أكثر اعتدالا من بوجوتا . أما المدينة التالية Cali فتقع ثلاثمائة كيلو متر جنوب غربى بوجوتا فى وادى الكاوكا وتشتهر بزراعة القطن وقصب السكر والارز خاصة ان الجو السائد أميل إلى الحرارة وتكثر هناك زهور الاوركيدية الشهيرة وبها ناد اجتماعى جميل . أما المنطقة الساحلية فتحتلها مدن بازانكيلا وقرطاجنة وسانتا مارتا على البحر الكاريبى فى المنطقة المدارية الحارة . ومدينة بوينافنتورا على المحيط الهادى وهى أشد حرارة ورطوبة ويقيم بها

أكثرية من الزنوج . وهناك أيضا مدينة بريرا شمال غربى بوجوتا فى وادى الكاوكا .. وتقيم أغلب الجاليات العربية - لبنانية وسورية وفلسطينية موزعة ما بين هذه المدن المهمة وان كانت توجد عائلات قليلة أيضا فى بعض القرى الصغيرة ومنها Sensilejos التى سيأتى ذكرها ..

ورغم أن تكوين الشعب الكولومبى يعكس الصفة الغالبة على شعوب أمريكا الناطقة بالاسبانية أى أن هناك نسبة قليلة قد تصل إلى عشرة أو خمسة فى المائة من السكان الذين ينحدرون من الأصل الاسبانى الأبيض هم قمة المجتمع طبعا . ونسبة قد تصل إلى خمسين فى المائة من السكان المخلطين Mestizos هم نتيجة اختلاط الأصل الهندى الأحمر بالجنس الاسبانى وهى الطبقة التالية بعد الجنس الأبيض فى الهرم الاجتماعى والباقى أى ٣٥٪ تقريبا هم ما بقى من السكان الهنود الحمر الأصليين الذين لم يختلطوا بالجنس الأبيض ويعيشون منعزلين تماما بالمناطق الجبلية الوعرة عيشه تكاد لا تختلف عن معيشة اسلافهم منذ مئات السنين يمارسون الزراعة البدائية أو التعدين فوق الجبال . كما أن هناك حوالى ٥ - ١٠٪ من السكان ذوى الأصل الزنجى الأسود والمستوردين من افريقيا ويكاد يقتصر وجودهم على المناطق الساحلية المدارية الحارة على البحر الكاريبى ولكن وبخاصة منطقة

بوينا وكافنتورا على ساحل المحيط الهادى ويعيشون على هامش المجتمعات والمدن يزاولون الأعمال اليدوية ..

وبرغم أن غالبية السكان اذن من المختلطين (كما هو حال أغلب دول امريكا اللاتينية فيما عدا كوستاريكا واوروجواى ١٠٠٪ من البيض وشيلى والارجنتين ٩٠٪ من البيض) إلا انك لا تجد تمثالا لقائد تاريخى أو بطل قومى يزين ميدانا عاما أو مكانا عاما إلا لرجال من الجنس الأبيض إما فاتح أو غاز اسبانى وإما بطل من ابطال حرب الاستقلال ضد اسبانيا .. أى أن كلهم من البيض .. ففى بوجوتا لا يوجد إلا تمثال أو قل ان أهم مايزين ميادين بوجوتا هو تمثال Jimenz de Quesada وهو الفاتح الاسبانى الذى هزم آخر ملك من ملوك الهنود الـ Chibcha وأسس المستعمرة الاسبانية سنة ١٥٣٨ والتى اسميت فيما بعد Nueva Granada غرناطة الجديدة ثم اسميت Gran Colombia . حقا ان تمثال سيمون بوليفار بطل استقلال كولومبيا (سنة ١٨١٩) مازال يحتل مكانا هو وعزبة صغيرة لبوليفار فى بوجوتا لكنه كان رجلا أبيض هو الآخر وليس هنديا أحمر . وكذلك الحال فى اغلب امريكا اللاتينية . والاستثناء الظاهر الكبير هو فى المكسيك حيث لاحظت - بعد نقلى إليها من بوجوتا فيما بعد - أن شعب المكسيك هو الشعب اللاتينى الأوحد الذى يفخر بانحداره من أصل الهنود

الحمر وأن تماثيل ملوك وأبطال شعوب الـ Maya azteca من الهنود الحمر هى التى تزين أهم ميادين مدينة المكسيك .. ولا يوجد تمثال لغاز أو لفاتح أبيض بتاتا ..

تشتهر كولومبيا اذن بزراعة البن وتصديره بوفرة وبن كولومبيا يمتاز عن بن البرازيل مثلا أو البن اليمنى أو الحبشى باعتدال الطعم Mildness ويزرع البن فى سفوح الجبال التى تقل عن ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر . وكذلك تشتهر بوفرة المراعى (الاغنام والابقار) على سفوح التلال والجبال حتى ثلاثة ألاف متر فوق سطح البحر . أما على السواحل الحارة فيزرع الأرز وقصب السكر ويوجد القطن فى وديان الانهار ، أما بقية الأهالى ومنهم كثير من الهنود الحمر فيقومون بصناعات التعدين المختلفة وأهم مناجم الزمرد فى العالم يوجد بعضها فى كولومبيا التى تشتهر بزمرد Gachala ، كذلك تقوم صناعات تعدين الفضـــة والذهب . وفى بوجوتا متحف للـــذهب يضم قطعا ذهبية أثـــرية من عهد امبراطوريات الهنود الحمر وبعض المعـــادن الصناعية الأخرى ..

وإذن فكولومبيا بلد غنى زراعيا وتعدينيا .. لكنه كان يمكن أن يكون أكثر غنى وان يكون الشعب أحسن حالا وأفضل معيشة لو كان ساسته قد احسنوا ادارته وحكمه أو لو كانت الظروف أكثر

مواتية . لكن تاريخ هذه المنطقة حافل بالخلافات الحادة وبالعنف الدموى . فبعد حرب الاستقلال , والتى قادها سيمون بوليفار من سنة ١٨١٩ حتى سنة ١٨٣٠ حتى مماته ضد اسبانيا وتكوين دولة جران كولومبيا العظمى التى تكونت من كولومبيا (ومن دول فنزويلا واكوادور وبنما حاليا) تفككت هذه الدولة بمجرد موت بوليفار سنة ١٨٣٠ وانفصلت فنزويلا واكوادور لتكوين دولتين مستقلتين ثم شجعت الولايات المتحدة انفصال بنما عن كولومبيا واستقلالها سنة ١٩٠٣ لكى تفوز واشنطن بامتياز بشق قناة بنما وامتيازات احتلالها وادارتها ..

ثم مالبث أن انقسم حكام كولومبيا الجدد فى القرن التاسع عشر على انفسهم .. ما بين المحافظين ومنهم رجال الكنيسة الكاثوليكية وكانوا يؤمنون بمركزية الحكم ورجعيته وبحقوق الكنيسة الدينية والدنيوية وكان الحزب المحافظ يسمى الحزب الازرق Los Azules وما بين من ناحية أخرى الليبراليين Los Li-brales وقد اسماهم اعداؤهم الحمر Los Rojos وكانوا يفضلون نظاما فيدراليا أكثر مرونة لحكم مناطق الجمهورية المختلفة ، كما كانوا يريدون تحديد نفوذ الكنيسة الرجعية واقلال امتيازاتها السياسية والدنيوية .. ونجح الليبراليون فى اقرار دستور فيدرالى سنة ١٨٦٣ وفى مصادرة املاك الكنيسة سنة ١٨٦١ . ثم توصلوا

إلى اتفاق كونكوردات مع الكنيسة سنة ١٨٨٣ . وإلى دستور موحد سنة ١٨٨٣ ثم لبثت أن اندلعت حرب الألف يوم من ١٨٩٩ إلى سنة ١٨٠٣ والتى انتهت بانفصال بنما وعاد الليبراليون إلى الحكم من سنة ١٩٣٠ - إلى ١٩٤٨ وادخلوا سلسلة من الاصلاحات لكن مقتل الزعيم الليبرالى جايتان سنة ١٩٤٨ ، ادخل البلاد في سلسلة طاحنة من الاغتيالات السياسية والحرب الأهلية فتوصل الحزبان بعد لأى إلى انشاء جبهة وطنية متحدة El Frente Nacional بموجبها اتفق الحزبان على توالى رئاسة الجمهورية ما بين الليبراليين مرة والمحافظين مرة أخرى بالتناوب .. وقد قدر عدد من قتلوا من الجانبين فى الحروب الأهلية بأكثر من عشرين ألف نسمة من ١٩٤٨ - إلى سنة ١٩٥٨ ..

ولعل هذا التاريخ يفسر لنا بعض الشىء ما يحدث حاليا فى كولومبيا من حرب طاحنة بين الحكومة وبين ملوك المخدرات والحركات السياسية اليسارية المتطرفة .

وقد بدأت ظاهرة الحرب الأهلية والعنف الدموى فى كولومبيا منذ أوائل القرن العشرين واستفحلت ما بين سنة ٤٨ - ١٩٥٨ وكانت أصلا حربا أهلية سياسية ما بين الحزبين الكبيرين وانصارهما .. واستمرت حقبة أو أكثر فاعتاد الكثيرون من الطرفين تلك الحياة السهلة أى حياة القتل والحرق والنهب والسلب

.. بدعوى سياسية وبعد أن اعتادوا هذه الحياة أصبحت طريقتهم الوحيدة للحياة لكن دون هدف سياسى حقيقى هذه المرة .. بل انحدر مستوى العنف الدموى من عنف سياسى إلى مجرد اعمال عصابات : سرقة ونهب وقتل وتشريد .. واسماهم المجتمع الكولومبى Los Bandoleros رجال العصابات .. وانتشرت هذه العصابات بكثرة وشجع على قيامها تاريخ العنف فى البلاد ، وكثرة السلاح المتداول ورخص اسعاره وضعف الوازع الدينى رغم نفوذ الكنيسة [1] ووعورة الجبال وقلة عدد المدن والقرى والمزارع فى هذه الجبال الشاسعة الواسعة ، وقلة عدد الطرق السريعة الجيدة الموصلة بين المدن والقرى والمزارع ، فسكان كولومبيا لا يتجاوز عددهم حاليا ٢٩ مليون نسمة ولكنهم كانوا ١٥ - ١٨ مليونا فقط سنة ٤٨ - ٥٨ فى مساحة من الأرض تفوق مساحة القطر

---

(١) هذه ظاهرة اجتماعية محيرة فرغم أن الكنيسة الكاثوليكية فى امريكا اللاتينية كانت شديدة الغنى والقوة والسطوة والنفوذ الاجتماعى والسياسى إلا أنها عجزت عن التوصل إلى أفئدة ونفوس جموع الاهالى سوى ظاهريا وليس حقيقيا فإن نسبة الأولاد غير الشرعيين فى جميع بلاد امريكا اللاتينية من أعلى النسب فى العالم ويمارس هذا اللون من الحياة على الملا وعلى جميع المستويات والطبقات الاجتماعية .. كذلك فالمشهور فى كولومبيا أن رجال العصابات كانوا ينزلون إلى القرى والمدن يقتلون وينهبون سكانها ثم إذا بهم أيام الاحاد يحضرون القداس فى الكنيسة ويعترفون أمام القسيس وكأن شيئا لم يحدث ثم يعودون إلى تكرار اقتراف جرائمهم ثم إلى غسلها بالاعتراف وهكذا ..

المصرى بأكمله أى بواديه وصحاريه .. وهو ما شجع أيضا على زراعة وتجارة المخدرات بوفرة في كولومبيا وتصديرها إلى خارجها .ولم تنته مواجهة الحزبين الرسمية إلا سنة ١٩٥٨ عندما اضطرا للاتفاق سويا لمنع تجدد تدخل الجيش واستيلائه على الحكم كما حدث فى عهد الجنرال روخاس بنيللا Rojas Pinilla قبيل ذلك بقليل واستمر تحالفهما حتى الآن لكن كانت قد تفاقمت الاوضاع الاجتماعية فى البلد وقامت ثورة اجتماعية "ماوية" يسارية متطرفة .

وفى هذا الوقت افتتحنا سفارتنا فى بوجوتا سنة ١٩٥٨ وقدمت أوراق اعتمادى قائما بأعمال السفارة إلى وكيل وزارة الخارجية الكولومبية وتمكنا بهذه الصفة من حضور جلسة تنصيب أول رئيس للجمهورية (ليبرالى) La Transmission del Mando فى عهد الجبهة الوطنية وكان ألبرتو يرأس كامارجو Alberto Llerals Camargs إلا أن الحزبين المتقاتلين كانا قد أضاعا وقتا ثمينا وشتتوا جهودهم فى التناحر بينهما وهو الوقت والجهد الذى كان المفروض أن يخصص للاصلاحات الاجتماعية لتقريب الفوارق ما بين الاقطاعيين وسواد الشعب الفقير ومن هنا فاجأتهم هذه الثورة الاجتماعية الطاحنة الحالية وهم غير

مستعدين لها .. وحاليا يقود حملة هذه الثورة الاجتماعية التى تأخرت عن موعدها كثيرا شباب الجامعات ، وشباب رجال الكنيسة التى بعد أن كانت قديما قد تحالفت مع الرجعيين أصبح شبابها الآن فى كثير من بلاد امريكا اللاتينية حلفاء المصلحين أو الثوار الاجتماعيين .. فضلا عن الفلاحين من الهنود الحمر الذين طال اهمال حقوقهم واغفال مدى قوتهم السكانية كعنصر مؤثر فى مجتمعات امريكا اللاتينية المقبلة ..

واهم حركات الثورة الاجتماعية حاليا فى كولومبيا حركة "ماوية" (١) متعصبة تسمى نفسها El Senders Luminoso أى الدرب المضىء لكنها ليست وحدها كل ما يمثل العنف الدموى فى كولومبيا وان كانت هى قائدة العنف السياسى بها .. اما العنف الدموى الاجتماعى فيرجع سببه حاليا فى كولومبيا إلى ملوك الكوكايين أو "مافيا المخدرات" القوية التى احسنت تنظيم صفوفها وانصارها وتغلغل نفوذها الطبقات الحاكمة من الحزبين فى كولومبيا .. وهى إن شئت استمرار لعمل العصابات التى انشأها وغذاها ووجهها كل من الحزبين الكبيرين فى حروبهما السياسية قديما .. فقد اعتاد المجتمع فى كولومبيا هذه الألوان من العنف المنتظم .. وعلى مدى اجيال طويلة ..

---

(١) نسبة إلى ماوتسى تونج أى أنها يسارية متطرفة .

لكن الواقع أن شعوب امريكا اللاتينية سواء المنحدرة كلها من أصل أسبانى (أو برتغالى فى حالة البرازيل) أو ما اختلط منها بالعنصر الهندى الأحمر المشهور بالهدوء أو برود الأعصاب وخاصة هنود المناطق المرتفعة الباردة أو فى حالات قليلة بالعنصر الزنجى الافريقى ، تميل كلها إلى المرح والرقص والغناء والحياة الاجتماعية الصاخبة .. وقلّ أن تجد مجموعة من شبان وشابات امريكا اللاتينية فى مناسبة اجتماعية إلا وكان حليفهم الطرب والرقص والغناء والتهليل . إن الرقص والغناء يجريان فى دمائهم وهم اصحاب السامبا والرومبا والمامبا والمامبو جامبو والتشاتشا والشيكيشا والميرى كومبيه واخيرا وليس آخرا التانجو التقليدى .. ومن ثَم فإن مدنهم تنخر بالنوادى الاجتماعية والنوادى الليلية وعلب الليل . وما من مناسبة اجتماعية إلا وانقلبت فى النهاية إلى حلبة رقص وغناء وطرب ومرح .. وبوجوتا غنية بنواديها الاجتماعية وعلب الليل ..

لكن كل هذا يجب ألا يخفى ما ينطوى تحته من دماء حارة وأعصاب قد تصبح ثائرة فائرة لأقل سبب .. وما منطقة أخرى فى العالم يمكن أن تجارى أمريكا اللاتينية فى عدد ما قام بها من ثورات مدنية أو عمالية أو عسكرية ضد الأنظمة الحاكمة ، هذا المزيج الغريب من المرح والطرب والفكاهة ومن الاستعداد للعنف

الكامن تحت السطح قد يوجد فى شعوب أخرى غير أمريكا اللاتينية لكنه من أهم ما يميز شعوب امريكا اللاتينية قاطبة .. لكن رغم هذا فإن المرء لا يسعه إلا أن يغرم بالشعوب اللاتينية لما تتميز به من ظرف ومرح وكرم تقليدى ..

بعد وصولى إلى بوجوتا بشهرين أو ثلاثة تقريبا وصلت سيارتى على احدى البواخر محمولة إلى ميناء بارانكيلا أهم موانىء كولومبيا ويقع على ساحل البحر الكاريبى على مسافة أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر من بوجوتا .. ولما كانت الطرق سنة ٥٨ وعرة مقفرة فى جهات كثيرة فقد كان من المعتاد نقل امثال تلك السيارات على طائرات نقل خاصة من بارانكيلا إلى بوجوتا .. وقد طال انتظارى لنقل سيارتى أكثر من شهرين بعد وصولها واخيرا قيل لى صراحة : إن الطائرتين المعدتين لنقل السيارات معطلتان بسبب نقص قطع الغيار .. ولا يعرف بالضبط متى تصل هذ القطع .. ومن ثم فقد قررت زوجتى وأنا أن نتوجه بالطائرة إلى بارانكيلا حيث نتسلم سيارتنا (وكان صديقنا الفلسطينى السيد يوسف دكرت أحد كبار تجار بارانكيلا وأصبح فيما بعد قنصلنا الفخرى قد تسلمها نيابة عنا) ثم نقودها إلى بوجوتا عبر الطريق البرى .. وقد ادهشت هذه الفكرة صديقنا وعائلته . ورغم نصائحهم لنا بخطورة هذه المغامرة واحتمال وقوعنا فى شرك أو

كمين ينصبه رجال العصابات Bandoleros المنتشرون فى غابات وجبال كولومبيا الكثيرة عبر ذلك الطريق المقفر فقد صممنا على الإقدام على هذه المغامرة فلم تكن امامنا وسيلة أخرى فقد مللنا الانتظار . ومع هذا فقد أصر يوسف دكرت على أن يرافقنا اثناء الطريق فى سيارتنا ذاتها أحد رجال بوليس مدينة بارانكيلا حيث تمكن السيد دكرت باتصالاته ونفوذه من اقناع محافظ المدينة بندب أشد رجاله لمرافقتنا ..

وقد جلس رجل البوليس ومعه طبنجته خلفى فى السيارة ، وجلست زوجتى إلى جوارى وتوليت أنا قيادة السيارة من بارانكيلا غربا إلى قرطاجنة ١٠٠ كيلو متر فى طريق ممهد جيد ثم جنوبا وصعودا دائما فى طريق غير ممهد جبلى فى اتجاه مدينة مديين Medellin وأمضينا ليلتنا الأولى فى قرية صغيرة اسمها Sinsele-jos ليس بها فنادق مناسبة واضطررنا للمبيت فى ضيافة عائلة لبنانية تعيش هناك على التجارة ومهنة الفندقة وكما كان المنتظر فقد كانت ظروف المعيشة فى سنسيليخوس بدائية على أحسن تقدير . وفى اليوم التالى استكملنا رحلتنا فى اتجاه مديين وكان هذا الجزء من الرحلة اقساها واخطرها . فسرعان ما وجدنا انفسنا نصعد الجبال فى طريق غير ممهد ومقفر وموحش احيانا كثيرة تحوطنا الغابات الكثيفة من كل جانب ولا يرى مخلوق أو

مزرعة أو قرية على مدى الخمسين كيلو مترا . وكان "فتيس" السيارة يقفز كل حين خارج مكانه إلى "المور" من جراء وعورة الطريق وكثرة المطبات والحجارة أحيانا .. ولو كان قد وقع علينا هجوم من رجال العصابات المسلحين بمدافعهم الرشاشة فى واحد من تلك الأماكن القصية المنعزلة لما كان قد احس بنا أو بفقداننا أحد . وكنت أنظر احيانا فى مرآتى الخلفية لارى ما يفعله رجل البوليس وكم كان غيظى وضيقى حينما كنت اراه نائما أو مغمضا عينيه . ولكن حينئذ تساءلت حتى فى حالة يقظته فماذا كان يفيد مسدسه الصغير حيال اسلحة رجال العصابات .. "والله خير حافظا" ..

المهم وصلنا مديين بسلام الله وانزلنا معنا صديقنا رجل البوليس فى أهم فندق من فنادق مديين أى فندق Nautibara وكان فندقا فخما حقا والمدينة توحى بجميع مظاهر العمران القديم والأصالة فانها مقر العائلات الاقطاعية الكولومبية كما انها بلد صناعى يشتهر بصناعة الأقمشة والملبوسات حتى لقد تساءلنا لماذا لم يجعلوها العاصمة ؟ منذ الفتح الاسبانى لاعتدال مناخها وحسن مناظرها وغناها .. وفى صباح اليوم التالى ودّعنا صديقنا الكولومبى وشكرناه وأهديناه شيئا ما .. وعاد بالطائرة إلى بارانكيلا واستكملنا زوجتى وأنا "صعودنا" إلى بوجوتا ، (مسافة

٤٠٠ كيلو متر فى طريق ممهد مسفلت وأقل خطورة وان كان طويلا متعرجا لتسلق الجبال التى لا نهاية لها ..

وفى بوجوتا وجدت أكثر من مكالمة تليفونية ورسالة فى انتظارنا من يوسف دكرت واصدقائه للاطمئنان على سلامة وصولنا .

كانت مغامرة فريدة حقا .. ولو خُيِّرت اليوم بين ترك سيارتى فى بارانكيلا شهورا كثيرة فى انتظار شحنها بالطائرة وبين العودة إلى سلوك ذلك الطريق بالسيارة فى نفس تلك الظروف القاسية لتركت سيارتى فى بارانكيلا إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .. لكنه كان حماس الشباب ، وحسن الحظ والعناية الالهية التى اوصلتنا إلى بوجوتا عبر ذلك الطريق البرى .. ولكنها كانت تجربة فريدة حقا أتاحت لدبلوماسى اجنبى رؤية ما يخفى عادة على الاجانب فى بلد مثل كولومبيا . انى الآن اكثر فهما لما يحدث فى كولومبيا من نشاط عصابات أو مافيا المخدرات وعدم قدرة الحكومة على مجابهتها بسبب تجربتى المثيرة فى رحلتى هذه والتى جعلتنى أكثر تصورا وفهما لطبوغرافية تلك البلاد الواسعة والوعرة .. وصعوبة التحكم فيها .

كان وصول السفير عباس الشافعى إلى بوجوتا بعد شهور ثلاثة من تقديمى لاوراق اعتمادى .. انما فى تلك الاثناء كنت

بفضل رجالات الجاليات الفلسطينية والسورية واللبنانية الذين اتصلوا بنا عارضين خدماتهم ، قد توصلت إلى استئجار دار فخمة لمكاتب السفارة فى حى من ارقى احياء المدينة وتعاقدنا مع سكرتيرة كولومبية تتحدث الانجليزية إلى جانب الاسبانية وافتتحنا ارشيف السفارة وبدأنا فى تنظيم العمل واجراء الاتصالات انتظارا لوصول السفير .. وبعد وصوله كان اختصاصى يتناول المسائل الاقتصادية والثقافية والصحافية والاتصالات العامة إلى جانب بعض مسائل السياسة الخارجية .. وكان جزءا حيويا من نشاطى فى السفارة يقضى بتوثيق اتصالات السفارة بالجاليات العربية وجمع كلمتها وترشيد جهودها لصالح القضايا العربية . كانت تلك اياما عصيبة ففيها وقعت احداث لبنان سنة ١٩٥٨ مما أدى إلى استغاثة رئيس لبنان بالقوات الامريكية .. وكانت هناك بعض الشكوك لدى جانب من اللبنانيين المقيمين فى المهجر فى نوايا الجمهورية العربية المتحدة تجاه لبنان فى حين كان الحماس والشعور قويا بين السوريين والفلسطينيين فى تأييد اتجاهات ج.ع.م .. وكان دور السفارة يقضى بإزالة مخاوف اللبنانيين ومصادقتهم وتوحيد جهودهم وائتلافهم مع اخوانهم الفلسطينيين والسوريين وذلك لثراء ونفوذ الجالية اللبنانية وقد نجحت السفارة فعلا فى مصادقة سفير لبنان فى بوجوتا فى ذلك الوقت السيد /

نعيم الاميونى وهو سفير مارونى لبنانى عاقل وحكيم ، واستطعنا إلى جانبه مصادقة كبار رجالات الجاليات اللبنانية امثال كارلوس بوسعيد وعائلات جمهورى وبازيل وانسليمو ميجيل إلى جانب الفلسطينيين والسوريين شديدى الحماس أصلا . وأصدرت السفارة بالاتفاق مع سفير لبنان والجاليات العربية مجلة شهرية ناطقة بالاسبانية El Mundo Arabe "العالم العربى" ضمنّاها انباء العالم العربى فضلا عن انباء الجاليات العربية فى كولومبيا والمهجر فكانت وسيلة اتصال طيبة بينهم . وكنت اتنقل ما بين بارانكيلا وقرطاجنة وسانتا مارتا وكالى وبيريرا معاقل الجاليات العربية لاتمام تلك المهام . وتم تعيين يوسف دكرت الفلسطينى قنصلا فخريا فى بارانكيلا ، وفارس غزلان الفلسطينى أيضا قنصلا فخريا فى كالى والغندور السورى قنصلا فخريا فى بيريرا وهكذا ..

ورغم ثراء بعض افراد الجاليات العربية ثراء عريضا امثال انسيلمو ميجيل وكارلوس بوسعيد وجبور ودكرت وجمهورى وباسيل وملكيتهم لبعض المصانع أو الضياع والمنازل الجميلة أو الفاخرة فلم يعمل احدهم بالسياسة بل كان همهم الأكبر والوحيد التجارة أو الصناعة الصغيرة صناعة الملابس والأقمشة .. وذلك عكس بعض كبار الشخصيات العربية فى شيلى والأرجنتين -

ولعل الاستثناء الظاهر الوحيد فى تلك السنوات كان خوليوسيزار طورباى أيالا المنتمى إلى الحزب الليبرالى والذى صار وزيرا للخارجية فى كولومبيا فى تلك السنوات .. ثم سفيرا لبلاده فى لندن وهكذا . وكان لبنانى الأصل .

وقد لاحظت ، كما لاحظ غيرى من الدبلوماسيين العرب الذين اتيحت لهم فرصة العمل فى دول أمريكا اللاتينية أن هّم المهاجرين العرب فى أمريكا اللاتينية ، حيث يطلق عليهم صفة Los Turcos (أى الاتراك لأن موجات الهجرة الواسعة بينهم إلى امريكا اللاتينية تمت وقت ان كانت لبنان وسوريا وفلسطين ولايات عثمانية فكانوا يسافرون على جوازات سفر تركية Turcos) لاحظت كما لاحظ غيرى أن همهم الأوحد كان التجارة .. وقد نجحوا فيها واصابوا قدرا واسعا من حسن الحظ بفضل اجتهادهم ومثابرتهم وتحملهم الكثير من المشاق .. ومن هنا فإن السلطات المحلية كانت ترحب بهم ومن ناحية اخرى فإن هؤلاء المهاجرين العرب سرعان ما تآلفوا وتعاونوا وتشاركوا مع فئة أخرى ، ناجحة وماهرة هى الأخرى من المهاجرين الاجانب ، ألا وهى اليهود وظل تعاونهم ومشاركتهم بعضهم البعض حتى تلك الحقبة التى عشت فيها فى كولومبيا دون أن تتدخل السياسة للتفرقة بينهم .. بل إن العرب كانوا يثقون فى اليهود - كشركاء شرفاء ، كما كان اليهود يرون

فى التاجر العربى اشرف شريك ، تربطه كلمته دونما حاجة إلى وثيقة مكتوبة !! ولم ير هذا الفريق أو ذاك أن يدخل الأمور السياسية فيما بينهما حتى لا تفسد علاقات كان الطرفان يحرصان على استمرارها ..

ظللت فى كولومبيا سنة ونصف سنة تقريبا اعانى من جراء الارتفاع الشديد .. كنت اعانى الارق واستمرار الصداع احيانا كثيرة وصعوبة التنفس احيانا .. وقد ترددت على الاطباء الذين اشاروا علىّ بضرورة استئصال اللوزتين . وقد تم ذلك فعلا فى أحد مستشفيات بوجوتا [1] لكن لم تتحسن حالتى كثيرا بعد العملية .. ومن هنا طلبت إلى الوزارة نقلى من كولومبيا . واثباتا لحسن نيتى أكدت على انى لا اتطلع إلى النقل إلى عاصمة كبرى وإنما أود النقل لاسباب صحية وأفضل النقل إلى عاصمة أخرى قريبة فى امريكا اللاتينية ذاتها .. على أن تكون أقل ارتفاعا من بوجوتا .. حيث يتسنى لى استكمال دراستى للمنطقة واللغة الاسبانية . وكنت فى تلك الاثناء قد رقيت من سكرتير ثان إلى سكرتير أول .. وفى يوليو ٥٩ صدر قرار نقلى إلى مدينة المكسيك

---

(١) ليلة اجراء العملية فى المستشفى جاءنى أحد القسس الكاثوليك يعرض علىّ أن اعترف له قبل العملية كما هو متبع لدى الكاثوليك .. وقد اعتذرت له بلطف وشكرته حتى لا اجرح شعوره ..

عاصمة جمهورية المكسيك .. فرحت كثيرا لهذا النبأ كما هنأنى أصدقائى الكولومبيون على ذلك فقد كانوا ينظرون إلى المكسيك نظرة احترام واعجاب وحسد لتقدمها الصناعى والعمرانى والاقتصادى والحضارى .. كما ان صناعة السينما فى المكسيك تغمر كل اسواق امريكا اللاتينية .. وأفضل الأفلام التى تعرض فيها إما مكسيكية أو ارجنتينية ..

وهكذا وصلنا إلى مدينة المكسيك فى يوليو ١٩٥٩.



المكسيك : بلد البراكين والهزات الأرضية .. والسياسية .. لكن أيضا بلد الجمال والدماء الحارة والأكل الحار ..

تقع المكسيك أقصى شمال أمريكا الوسطى ، ما بين خطى عرض ١٨ ، ٣٠ شمالا ، ويقطعها مدار السرطان فى وسطها تماما أى أنها تقع فى المنطقة المدارية والمفروض أن يكون جوها حارا رطبا .. وهذا فعلا حال المنطقتين الساحليتين على خليج المسكيك (المحيط الأطلسى) وعلى المحيط الهادى والمناطق السهلية المنخفضة .. لكن اغلب المكسيك مناطق جبلية مرتفعة أو هضاب مرتفعة مما جعل مناخ تلك المناطق لطيفا معتدلا على مدار السنة ، وحيث يعيش أغلب سكان المكسيك البالغ عددهم حاليا سبعة

وسبعين مليونا (يتزايدون بنسبة ٣٪ سنويا) . وتحد الولايات المتحدة المكسيك شمالا ويحدها جنوبا جمهورية جواتيمالا وبليس اى هندوراس البريطانية وخليج المكسيك شرقا والمحيط الهادى غربا ..

وتأتى المكسيك كثانية دول أمريكا اللاتينية بعد البرازيل من حيث تعداد السكان ويأتى ترتيبها الثالث من حيث اتساع الرقعة بعد البرازيل والارجنتين .. ومساحة المكسيك ثلاثة أمثال مساحة فرنسا ، وضعف مساحة القطر المصرى بأكمله تقريبا وتمتد المكسيك مما يوازى الخرطوم إلى الاسكندرية . وشمال المكسيك جاف قارى بسبب قلة الأمطار ، أما جنوبها فمدارى رطب - فيما عدا المرتفعات كثيرة الامطار التى تغطيها الغابات - فى كثير من اجزائه . وتتميز رقعة المكسيك بوفرة البراكين المرتفعة الخامدة (يوجد اثنان منها قريبان من العاصمة وبعضها يتحرك بين الحين والآخر) كما تتميز بحدوث زلازل وهزات أرضية كثيرة ، أما فى العاصمة مدينة المكسيك فالملاحظ وقوع زلزال كبير مرة كل عشر سنوات تقريبا بصفة منتظمة مما يدل على أن المنطقة التى بنيت عليها العاصمة لم تستقر قشرتها الارضية تماما بعد .. والواقع أن العاصمة بنيت فوق منطقة رخوة كانت مغطاة بالمستنقعات والبحيرات الضحلة التى جففت صناعيا أو طبيعيا لكن مازال باطنها رخواً .. وهناك حدائق وبحيرات سوشيميلكو Xochimilco

الجميلة القريبة من العاصمة التى يزورها آلاف السياح سنويا ، من مكسيكيين واجانب للاستمتاع بجمالها وبركوب الجندولات فوق مياهها والاستماع إلى غناء "المارياتشى" (فرق غناء وموسيقى مكسيكية فولكلورية شهيرة) Los Mariachis كما ان سراى الفنون الجميلة Las Bellas Artes في وسط العاصمة تغوص بمقدار سنتيمترين سنويا من وفرة ثقلها لما ادخل فيها من رخام كثير .. وهى من مشاهد مدينة المكسيك الجميلة المتعددة ..

والمكسيك من أكثر دول امريكا اللاتينية تقدما صناعيا واجتماعيا وحضاريا . كما انها من أغناها فيعمل ٤٠٪ من القوى العاملة فى الزراعة و٢٠٪ فى الصناعة ، ويبلغ اجمالى الناتج القومى سنة ٨٢ / ١٦٢ بليون دولار ومتوسط دخل الفرد سنة ١٩٨٠ ألف وثمانمائة دولار سنويا تقدر حاليا سنة ١٩٩٣ باكثر من ٣٠٠٠ دولار سنويا (متوسط دخل الفرد فى مصر ٦٥٠ دولارا سنويا) وتقدر صادرات المكسيك سنه ١٩٨٤ بـ ٢٥ بليون دولار بما فيها صادراتها من البترول - اغلبها ٥٥٪ إلى الولايات المتحدة وإلى اسبانيا ١٠٪ - أما وارداتها فى سنة ٨٤ فقدرت باثنى عشر بليون دولار اغلبها ٦٤٪ من الولايات المتحدة و٥٪ من كل من اليابان والمانيا الغربية - أما ميزانية الدولة السنوية سنة ٨١ فكانت ٩٣ بليون دولار وبلغت قيمة الدخل نفس قيمة مصروفات الدولة ويبلغ عدد السيارات الخاصة المستعملة فى

المكســيك ٥,٢ مليون سيارة و٢مليون سيارة تجارية ويلغ عدد السيارات المصنوعة محليا فى المكسيك سنة ٨١ / ٣٥٧ ألف سيارة خاصة و١٧١ ألف سيارة تجارية وعدد اجهزة التليفزيون فى المكسيك ٨ ملايين جهاز سنة ٨٣ انتج منها محليا ١,٥ مليون جهاز سنة ١٩٨٠ وهناك أكثر من ستة ملايين جهاز تليفون بالبلاد. أما متوسط عمر المكسيكى المنتظر بعد ولادته فهو ٦٢ سنة للذكور و٦٧ سنة للاناث وتبلغ نسبة الأمية ٢٥٪ سنة ١٩٨٣ . والمكسيك من كبريات الدول مصدرة البترول فى العالم وعندها أكبر مخزون من البترول فى العالم ٧٢ بليون برميل وأصبح بدءا من الستينات والسبعينات اهم صادرات المكسيك ويليه الفضة والنحاس والحديد والزنك ، كما انها تنتج ٧ ملايين طن من الفولاذ سنويا والكيماويات والأدوات الكهربائية والكاوتشوك لكن المكسيك ايضا بلد زراعى ينتج الموالح وقصب السكر والبن والدخان والقطن ، وتصدر منها كلها كميات كبيرة .. أما انتاج الذرة وانتاج المراعى، رعى الأغنام والابقار فكلها للاستهلاك المحلى ومساحة الأراضى القابلة للزراعة عشرون فى المائة من مساحة المكسيك ويصعب على الحكومات المتعاقبة فى المكسيك وقف زحف أهل الريف إلى العاصمة ومراكز العمران الأخرى سعيا وراء الأجور الأوفر فى الصناعة وخدمات السياحة ..

وهكذا فإن ستين فى المائة من المكسيكيين يقيمون حاليا فى المدن (هناك أكثر من خمسين مدينة فى المكسيك تعداد كل منها لا يقل عن المائة ألف) ولا يقيم في الريف سوى خمسة وعشرين مليون مكسيكى من جملة الشعب البالغ سبعة وسبعين مليونا .. وهو ما قد يضر بالزراعة .. ومما جعل مدينة المكسيك أكثر مدن العالم تعدادا (حوالى عشرين مليون نسمة تزداد سريعا) .

كذلك هناك ظاهرة أخرى واضحة وهى هجرة كثير من المكسيكيين إلى الولايات المتحدة ، أكثرهم يدخلون خلسة بعد أن يسبحوا عبر نهر "ريوجراندى" الذى يفصل تكساس عن المكسيك ويسميهم الأمريكيون Wetbacks أى "مبلول الظهر" نتيجة لسباحة هذا النهر خلسة ، ويقيم فى الولايات المتحدة أكثر من ثلاثة ملايين مكسيكى فيما عدا النازحين الهاربين غير الشرعيين وقد اضطرت الولايات المتحدة إلى اصدار قانون سنة ١٩٨٨ بالعفو عن هؤلاء المكسيكيين المهاجرين غير الشرعيين إذا ما أعلنوا عن وجودهم وصححوا وضعهم ليصبحوا مواطنين مسموحا لهم بالبقاء فى أمريكا حاليا ، ورغم هذا تشكو المكسيك من ارتفاع نسبة البطالة ونصف البطالة بسبب كساد صناعة البترول عالميا ورغم نشاط السياحة الوفير فى المكسيك .. فالمكسيك ، بسبب قربها أو بالأحرى ملاصقتها للولايات المتحدة وقربها من كندا ، وطيب

مناخها فى الأماكن المرتفعة على مدار السنة ، ورخص تكاليف المعيشة نسبيا عن امريكا اصبحت قبلة السائحين الأمريكيين والكنديين طوال العام ومن جاور السعيد يسعد وهو وجه واحد فقط للعملة (١) .. وأصبحت صناعة السياحة من أهم موارد الدولة .

ولنفس السبب ، أى لملائمة طقسها للمعيشة ، كانت المكسيك مرتعا تاريخيا لجماعات الصيد وجمع الثمار لدى الإنسان الأول منذ عشرة آلاف سنة ، ثم قامت أول حضارة تاريخية بها Tehua-can خمسة آلاف إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وعرف عن هذه الحضارة زراعة واستعمال الذرة ربما لأول مرة فى تاريخ العالم .. وهناك آثار لقرى شعوب المايا Los Mayas التى قامت على زراعة الذرة ، ثم وجدت بعد ذلك حضارة الأولميك Olmecs ثم حضارة Teotihuacan ثم حضارة Zapotecs ثم تلا ذلك غزو محاربى الـ Chichimecs للمايا وانتصارهم عليهم ثم قيام حضارة Toltecs فى مدينة Tule ثم انقراضها ، وقيام حضارة Mixtecs ومنها أخذ اسم المكسيك الحالى .. ثم عاد شعب المايا للازدهار لثالث مرة سنة ألف بعد الميلاد إلى ألف وخمسمائة بعد الميلاد ثم عودة الـ Chichimec لغزو المايا مرة ثالثة وعن الاخيرين تفرع شعب الازتيك

---

(١) الوجه الآخر للعملة هو : ومن جاور الحداد اكتوى بناره مما سيتبين لاحقا ..

Aztecs الذى انشأ مدينة Tenotchilan مكان مدينة المكسيك الحالى سنة ١٣٢٥ - ١٣٤٥ بعد الميلاد .. وآخر ملوك المكسيك قبل الغزو الاسبانى كان من الازتيك واهم شعوب المكسيك القديمة اذن هم المايا والمكسيك والازتيك بصفة عامة .. وكلها من الشعوب الهندية الحمراء التى اقامت الحضارات . لكن هناك شعوبا هندية أقل حضارة وأكثر تأخرا تلك التى عاشت فى غابات المناطق المدارية الساحلية الحارة الرطبة غير المشجعة لقيام الحضارات .

ومن الطريف أن شعوب المايا والأزتيك تناقلت اسطورة معينة بعينها لمئات السنين كانت تقضى بأن تلك الحضارات سوف تزول عندما يخرج من المحيط ويطأ شواطئ المكسيك آلهة بيضاء اللون ! فلما نزل إلى شواطئ المكسيك هرنان كورتز Hernan Cortes القائد الاسبانى الأبيض ذو اللحية الشقراء ومعه ستمائة (فقط) من الفرسان البيض ببنادقهم وبخيولهم التى لم تكن مألوفة للأزتيك سنة ١٥١٩ كان الفزع والهلع بين جيوش الهنود الحمر الكثيفة المتراصة حليفا لكورتز فى تحقيق انتصارات سريعة سهلة جدا .. حتى لقد تمكن ستمائة فارس اسبانى، أو بالأحرى مابقى منهم بعد فتك الملاريا بالكثيرين منهم، من إزالة امبراطوريات المايا والازتيك التى عاشت آلاف السنين وفوق مساحة مثل مصر مرتين. فما كانت سنة ١٥٢١ إلا وقد دانت جميع انحاء المكسيك للاسبان،

وأسس كورتيز دولة «اسبانيا الجديدة» وأصبح نائبا للملك حاكما عليها يمثل التاج الأسبانى، أما شعوب المايا والازتيك، أما المكسيكيون الحقيقيون فقد ابيدوا بالآلاف أو قتلوا بفعل أعمال السخرة التى فرضها الأسبان البيض، أو بسبب فتك الأمراض التى حملها الرجل الأبيض معه من أوروبا ولم تكن معروفة فى المكسيك بعد. ومما يذكر ان كورتيز وعد آخر ملوك الازتيك بالعفو عنه إذا ما سلم كورتيز حجرة كاملة مملوءة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.. فلما جمع الشعب له ماأراد وسلمه إلى كورتيز الذى لم يعف عنه بل قتله شر قتلة .وما أتى القرن السابع عشر والثامن عشر إلا وقد تمكنت الكنيسة الكاثوليكية الأسبانية من فرض تحول الهنود الحمر الى الكاثوليكية بفعل محاكم التفتيش La Inquisicion [1] ونشاط الأسبان الجزويت والمبشرين الأسبان. وتحولت المكسيك إلى منجم كبير ومصنع كبير للفضة والذهب لتصديرهما إلى أسبانيا، وقد قيل فى هذا الصدد إن كمية الفضة أو الذهب التى خرجت من أمريكا اللاتينية لأسبانيا تحت حكم الأسبان كانت تكفى لاقامة جسر عائم عبر الأطلسى يوصل مابين أسبانيا وأمريكا اللاتينية ..

---

(١) مثلما فعلت محاكم التفتيش فى أسبانيا ذاتها ضد العرب المسلمين وضد اليهود بعد زوال الحكم العربى فى أسبانيا .

لكن من صفات الأسبان أو حسناتهم انهم اختلطوا وتزاوجوا مع الشعوب الأصلية حتى لقد أصبح غالبية المكسيكيين أو بالأحرى ٥٥٪ منهم Mestizos أى مخلطين نتيجة اختلاط الجنس الأبيض بالجنس الهندى الأحمر. ولا يتعدى عدد تلك الطبقة البيضاء التى لم تختلط بالجنس الهندى الأحمر في المكسيك العشرة بالمائة. ويوجد تسعة وعشرون بالمائة من الهنود الحمر الخالصين وخمسة بالمائة من سلالات الجنس الأفريقى الأسود وبخاصة على سواحل المحيط الاطلسى وخليج المكسيك.. وعكس ماحدث فى بلاد أخرى فى أمريكا اللاتينية فإن المخلطين -Mesti zos فى المكسيك مشاركون وبشدة فى الحياة العامة الاجتماعية والسياسية وكان لهم دور متميز فى جميع حركات الثورة ضد أسبانيا وحروب الاستقلال وجميع الأنشطة السياسية والاجتماعية الأخرى ووصل بعضهم إلى رئاسة الجمهورية. ولعل هذا كان سببا فى افتخار المكسيكيين بأصلهم المختلط أكثر من أى من شعوب أمريكا اللاتينية الأخرى وبتخليدهم لذكرى حضارات المايا والازتيك القديمة واحترامهم لذكرى ملوكهم (الهنود) وتخصيص أهم الميادين فى المدن الكبرى لتماثيلهم وكما أسلفت لا يوجد تمثال واحد لكورتيز أو لغيره من الأسبان والغزاة فى المكسيك ..

أما تاريخ المكسيك الحديث فيعود إلى ١٨١٠/٩/١٦ حينما

نادى هيدالجو Hidalgo وكان قسا هنديا أحمر فى مدينة دولوريس الصغيرة فى شمال المكسيك نادى لأول مرة بالاستقلال عن أسبانيا.. وتحتفل المكسيك سنويا إلى اليوم بما تسميه «صرخة دولوريس» أو «صرخة هيدالجو El أو"Grito de Hidalgo "Grito de Dolores" فى يوم الاستقلال ١٦ سبتمبر من كل عام. وتبعه القس موريلوس Morelos سنة ١٨١٢ أى بعد اغتيال هيدالجو فقام الشعب الهندى الأحمر الفقير بالثورة ضد الأسبان والكريول Cre'oles أى المستوطنين الأسبان وذلك بمساعدة الجنرال ايتوربيدى. ونجحت الثورة وأعلن استقلال المكسيك سنة ١٨٢٠ وتلا ذلك فترة سنتين قامت فيها ثم اندثرت امبراطورية ايتوربيدى المكسيكية العرجاء ثم انتهت باعلان الجمهورية وتولى الجنرال سانتا أنا رئاساتها سنة ١٨٢٤ - ١٨٥٥. وهنا بدأت الهزات السياسية ترج أركان المكسيك.. فكما حدث فى كولومبيا انقسم الشعب إلى فريقين، فريق محافظ محبذ لقيام حكومة مركزية شديدة وآخر محبذ لقيام حكومة فيدرالية ليبرالية. وانتهز الأمريكيون الشماليون فترة الشقاق والفوضى هذه ليتمكنوا من سلخ تكساس عن المكسيك وأصبحت ولاية أمريكية مستقلة، ثم قامت الحرب بين المكسيك والولايات المتحدة من سنة ٤٦ - ١٨٤٨ تمكنت الولايات المتحدة فيها من ضم كاليفورنيا ونيومكسيكو واريزونا (وتبع ذلك فى فترة أخرى لفلوريدا ايضا!! قلنا فيما سبق

أن من جاور السعيد يسعد : والوجه الآخر للعملة هو ومن جاور الحداد اكتوى بناره!! .

تلت هذه الهزات السياسية حرب أهلية مكسيكية طاحنة استمرت من ١٨٥٨ - ١٨٦١ ما بين الليبراليين الفيدراليين والمركزيين الرجعيين. وفي عهد رئيس الجمهورية الليبرالي بنيتو خواريز Juarez (وهو ايضا من أصل هندى أحمر) تدخلت فرنسا مباشرة في المكسيك مابين سنوات ١٨٦٢ - ١٨٦٧ فاقامت امبراطورية كاثوليكية رجعية بزعامة مكسيميليان الأمير النمساوى ربيب فرنسا، وقد تم هذا بتحالف فرنسا (نابليون الثالث) وأسبانيا وبريطانيا فقد أيد ثلاثتها قيام تلك الامبراطورية اليمينية الرجعية في المكسيك على حدود الولايات المتحدة الجنوبية لمعادلة تأثير قيام دولة ليبرالية فتية في الولايات المتحدة (بعد حرب الشمال والجنوب) رأت فيها الدول الأوروبية العظمى الثلاث خطرا عليها. لكن فتر حماس بريطانيا وأسبانيا لهذه الامبراطورية المكسيكية المكلفة وبالتالي لم يستطع نابليون الثالث وحده وبخاصة ازاء ضغوط الولايات المتحدة المتزايدة، استمرار تأييده المادى والعسكرى لمكسيميليان فهزمته قوات الثوار المكسيكية وأعدم بأمر خواريز سنة ١٨٦٧ .

ويذكر التاريخ أن الامبراطور نابليون الثالث زوج الامبراطورة أوجيني التي حضرت افتتاح قنال السويس في مصر إلى جانب الخديو اسماعيل حاول الاستعانة بجميع حلفائه واصدقائه في العالم لشد ازر مكسيميليان حتى أن الخديو اسماعيل وافق على إرسال كتيبة مصرية اشتركت الى جانب قوات مكسيميليان والقوات الفرنسية في حربهم ضد الثوار. ولكن كان مصير تلك الفرقة المصرية نفس مصير مكسيميليان ولحسن الحظ فقد نسي المكسيكيون هذه الحادثة كما نساها أغلب المؤرخين ..

وبعودة الجمهورية تحت خواريز من جديد عادت الزلازل السياسية والفوضى والحرب الأهلية فترة طويلة حتى سنة ١٨٧٦ حين استولى على الحكم الجنرال بورفيريو دياز وظل متربعا على الرئاسة حتى سنة ١٩١١ وأهم إنجازاته تحقيق السلام والاستقرار وتحديث الاقتصاد واجتذاب الاستثمارات الأجنبية وقد حكم البلاد بيد حديدية .

– الثورة المكسيكية أول ثورة اشتراكية في العالم :

قامت ثورة عسكرية ضد دياز اطاحت به وولت محله فرانسيسكو ماديرو سنة ١٩١١ رئيسا للجمهورية وكان استاذا (مدرسا) متعلما ذكيا وكان مشهورا بالاعتدال والتسامح عكس دياز لكنه كان ضعيفا مترددا فلم يلبث أن اغتاله الجنرال هويرتا

سنة ١٩١٧ تاركا البلاد فى خضم من النزاعات والشد والجذب مابين التيارات المختلفة داخلية وخارجية (أمريكية شمالية).. ومايؤثر عن ماديرو رثاؤه لحال المكسيك بقوله:

«مسكينة هذه المكسيك، لشد ماهى قريبة من الولايات المتحدة، ولشد ماهى بعيدة عن ربنا سبحانه وتعالى» .

Pobre de mexico! Tan cerca de los Estados unidos tan lejos de Dios!!

وقد حاولت الولايات المتحدة فى عهد ماديرو انزال درس تأديبى بالمكسيك فارسلت اسطولها الذى امطر مدينة فيراكروز بقنابله.. ووصلت قوات المشاة الأمريكية إلى مدينة المكسيك وحاصرت قصر تشابولتيبك حيث استمات «اطفال» وفتيان الكلية العكسرية المكسيكية فى الدفاع عنه. ويحتفل المكسيكيون بهذه الذكرى ويسمونها los Ninos Heroes «الاطفال الابطال» كما تدخلت قوات أمريكية فى شمال المكسيك مابين سنة ١٩١٤, ١٩١٧ ضد قوات الجنرال هويرتا مما أوقع المكسيك فى فوضى ناشبة وحرب أهلية مدمرة فقد قامت فى تلك الاثناء ثورة بانشوفيلا Pan-chovilla وكان أقرب شىء الى روبن هود مكسيكى فكان آفة سكان الحدود الامريكيين.. وقد استطاع الجنرالان كارانزا واوبريجون القضاء على ثورة بانشوفيلا Panchovilla سنة ١٩١٥

بعد عناء كبير لكن قامت ايضا ثورة امليانو زاباتا في جنوب المكسيك Zapata وكان فلاحا هنديا ونادت ثورته بالحرية وتوزيع الأراضي على الفلاحين كان شعارها Tierra y libcrtad. الأرض والحرية وقد قضى عليها ايضا الجنرال كاراترا الذى استولى اخيرا على الحكم وفرض دستورا اشتراكيا سنة ١٩١٧ – تضمن توزيع الأراضى على الهنود وإنشاء مزارع جماعية حكومية.. وفي سنة ١٩٢٠ اغتاله الجنرال اوبريجون وظل في الحكم حتى سنة ١٩٢٨. وخلفه جنرال آخر الياس كاييس الذى اضطهد الكنيسة وصادر املاكها وقلم اظافرها مما أدى إلى قيام ثورة المسيحيين الفاشلة سنة ١٩٢٦ – ١٩٢٩.. ومازالت المكسيك إلى اليوم دولة علمانية ليس لها دين رسمي ولا يوجد للكنيسة أى دور رسمى بها..

وأخيرا وصل الجنرال لازارو كارديناس الى الحكم سنة ١٩٣٤–١٩٤٠ فوسع من نطاق وآفاق الإصلاح الزراعى بتوزيع مزيد من أراضى الدولة على الفلاحين الهنود فى جمعيات زراعية جماعية وحكومية Ejidos كما أمم صناعة البترول وكانت فى أيدى شركات أمريكية شمالية وتبعه سلسلة من الرؤساء المصلحين المدنيين وفى عهدهم ادخلت المكسيك انظمة الأمن الاجتماعى واسعة النطاق وقوانين حماية حقوق العمال وتحديد نسب أرباح

للعمال من الشركات التى يعملون فيها، كما أصلحوا نظام التعليم.. وأهم هؤلاء أفيلاكاماشو الذى زاد سرعة تصنيع البلاد - ثم ميجيل اليمان ثم رويس كورتينز ثم لوبيز ماتيوس ٥٨ - ١٩٦٤ ثم دياز اورداس ثم لويس اتشارفاريا ٧٠-١٩٧٦ والأخير كان ديموقراطيا مصلحا وهو أول من نادى بالنظام الاقتصادى العالمى الجديد وقد قام بتوزيع كميات اضافية من الأراضى التى لا يزرعها اصحابها الى الهنود.. لكن مالبث خلفاؤه أن ألغوا قراراته تحت ضغط اصحاب الأراضى ثم تبعه لوبيز بورتللو ٧٦-١٩٨٢ وفى عهده اكتشف مزيد من آبار البترول بوفرة كبيرة فزادت الدولة من رقعة انفاقها ومشاريعها زيادة ادت الى اتساع حجم ديون المسكيك الخارجية الحالية بعد حدوث ازمة اسعار البترول فبلغ حجم تلك الديون ستين بليونا من الدولارات.. وقد عانت المكسيك من جراء ازمة الديون هذه إلى جانب آثار البطالة المتفشية فى عهد رئيسها السابق (المدنى) كارلوس ســـاليناس دى جورتاى وكان هذا أحد أسباب سخط الطبقات العاملة والفقيرة رغم تجميد الأسعار وتأميم البنوك الخاصة .

ويلاحظ أن «الجنرالات» تعاقبوا رياسة الجمهورية فى المكسيك نتيجة حركات عسكرية ثورية Putch لمدة قرن كامل من ١٨٢٤ - الى ١٩٤٠ ماعدا فترات قصيرة جدا. ثم بدأ عهد الرؤساء المدنيين

من ١٩٤٠ للآن.. الا أنه من المعروف بالمثل أن الحزب الحاكم فى المكسيك Partido Revolucionario Institucionol أى الحـــزب الثورى التأسيسى احتكر الحكم لأكثر من نصف قرن أى منذ ١٩٢٩ ولم يسمح لأى حزب آخر أو تنظيم أخر بالمشاركة السياسية سواء كان يتبادل بالحكم أو بالمشاركة فيه.. حتى أن المعارضة ضدا P.R.i ظلت محل كبت وضغوط وارهاب الا منذ سنوات قليلة حين جرؤ حزب PAN الليبرالى على رفع صوته المعارض.. وفى الانتخابات الأخيرة سنة ١٩٨٨ PAN نال نسبة كبيرة جدا من الأصوات وبخاصة فى المدن كادت تفوق النسبة التى فاز بها الحزب الحاكم PRi تحت رياسة كارلوس ساليناس دى جورتارى وقد اتهم حزب واحزاب المعارضة الأخرى الحزب الحاكم بالغش والخداع وتزوير نتيجة الانتخاب وهذه أول مرة فى تاريخ استقلال المكسيك تصل فيها المعارضة الى مثل هذه النسبة من أصوات الجماهير والى هذا القدر من التحدى الصريح فى حملتها ضد الحزب الحاكم.. كذلك يلاحظ أن الحزب الحاكم كان دائما يرشح خليفة رئيس الجمهورية المنتهية مدة رئاسته. وعادة كان مرشح الحزب الحاكم هو وزير الداخلية فى وزارة الرئيس السابق أو أمين عام التنظيم الداخلى للحزب.. وكان مرشح الحزب الـ PRi يصل دائما الى رئاسة الجمهورية وبصفة أوتوماتيكية وذلك

نتيجة لحسن تنظيم الحزب وسيطرته التامة على أغلب الولايات منذ ١٩٢٩ بسبب نفوذه على المزارع الحكومية الجماعية Ejidos والمصانع الحكومية وبفضل نفوذه الاقتصادى المعروف. هذا والمعروف أن دستور المكسيك يقسمها إلى ٣١ ولاية فيدرالية بالاضافة الى «المنطقة الفيدرالية» المركزية أى العاصمة مدينة المكسيك.. ولكن كان تصويت مدينة المكسيك الى جانب الحزب المعارض PAN في حين جاءت أغلبية الأصوات التى نالها الحزب الحاكم PRi من الولايات الريفية .

لكن يبدو من نتيجة الانتخابات الرئاسية الأخيرة سنة ١٩٨٨ أن اشراقة شمس الديموقراطية الحقيقية فى المسكيك على الأبواب، ومن الواضح أن الرأى العام المكسيكى لم يعد يقبل سيطرة وهيمنة حزب واحد دائما بل سيقول كلمته فى الانتخابات القادمة .

رأينا كيف أن شعب المكسيك وقع تحت صنوف الارهاب والتقتيل والتشريد منذ الفتح الأسبانى سنة ١٨١٩ - ١٨٢٠ ثم تحت محاكم التفتيش الرهيبة وتحت سيطرة الغزاة البيض حتى مطلع ثورة الاستقلال سنة ١٨١٠ ولم يجىء الاستقلال بالسلام والوئام المنشودين من شعب المكسيك بل تبعته حروب أهلية كثيرة وخارجية ايضا ضد التوسع الأمريكى الشمالى ثم ضد الغزو

الفرنسي النمساوى الذى حاول فرض امبراطورية مكسيميليان عليه ثم حروبه ضد الولايات المتحدة مرة ثانية ثم الحروب الأهلية مرة ومرات ثم وقع تحت ديكتاتورية عسكرية ثم تحت سيطرة وهيمنة الحزب الثورى التأسيسى منذ ١٩٢٩ وحتى الآن ..

وقد سالت الدماء انهارا فى المكسيك واشترى الشعب المكسيكي حريته السياسية وحرياته وحقوقه الاجتماعية بثمن غال فادح.. ورغم هذا كله أو بسبب هذا كله نجد أن الشعب المكسيكى أصر وأكد على طبيعته السخية المرحة ومازال على حبه للمرح والفكاهة والغناء والرقص حتى عندما كان يئن ويتوجع تحت سيطرة الغزاة والجبابرة. وأغلب الاغنيات المكسيكية ذات طابع حزين ومشتاق Nostalgic وان كانت هناك أغان فولكلورية جماعية مرحة وسريعة الايقاع. واشتهرت اثناء ثورات المكسيك من أجل الاستقلال أغنية كان يتغنى بها الفلاحون فى طريقهم على الاقدام عبر مئات الكيلو مترات .

«ايتها الصرصارة ايتها الصرصارة [١]، لم اعد قادرا على المشى»

(١) الصرصارة (لاكوكاراتشا) زعيمة مكسيكية اشتركت فى حروب التحرير رغم انها خرجت من بيئة ريفية فقيرة .

cha!La Cucaracha ! la cucara Ya no puedo caminar !

ومثل اغنية إنى اغنى لأنى اشعر بتعاسة شديدة

Estoy Cautando porque estoy tan infeliz !

ولعل أهم أغنية كانت تتمشى مع تلك المناسبات كما لعلها أشهر أغانى فترة الثورة والحروب الأهلية أغنية السماء الصغيرة الجميلة Cielits hinds والتى تناشد المكسيكى أن يستمر فى الغناء حتى فى أشد أوقاته حزنا Canta -y-no llores! porque cantando se allegran cielito lindo los corazones

أى غنـــــــى

لاتبكى! لأن الغناء يدخل المرح على القلوب ايتها السماء الصغيرة. والأغنية المكسيكية من أجمل أغانى أمريكا اللاتينية وأقربها إلى الوصول للقلوب حتى وإن حملت فى طياتها شيئا من الحزن والشوق والحنين.. مثال ذلك أغنية Malagena Salerosa!

وكما أن صناعة السينما المكسيكية هى بحق صاحبة الهيمنة والسيطرة على السوق اللاتينية، [1] كما ونوعا.. فان وضع المكسيك فى أمريكا اللاتينية أقرب إلى وضع مصر فى العالم العربى من ناحية سيطرة وتغلب السينما المصرية والغناء والطرب، بل روح المرح والفكاهة..

---

(١) الأفلام المكسيكية والارجنتينية تسيطر على كل أسواق امريكا اللاتينية الناطقة بالأسبانية .

لكن المقارنة بين المكسيك ومصر قد لا تقف عند حد السينما والغناء والمرح والفكاهة بل قد تذهب الى أبعد وأعمق من هذا بكثير.. فالمكسيك تمتد على نفس خطوط العرض التى تقع مصر عليها وكل من مصر والمكسيك ايضا تشتهر بزراعة القطن طويل التيلة (وإن وجدت هذه الزراعة فى بلاد قليلة اخرى غيرها) كما أن الشعبين المصرى والمكسيكى طبقهما المفضل لرجل الشارع هو الفول المدمس! والشعبان هما نتيجة اختلاط الغزاة والفاتحين مع الشعوب الأصلية (العرب مع اقباط مصر والصعايدة والنوبيين، والأسبان مع المايا والازتيك). وقد حمل الغزاة الى كل من البلدين لغتهم وديانتهم فاصبحتا لغة ودين مصر (الاسلام والعربية) والمكسيك (الكاثوليكية والأسبانية). ومصر والمكسيك هما أكثر شعوب منطقتيهما تقدما صناعيا واشعاعا ثقافيا وحضاريا لكن لم تنس مصر ولا المكسيك الافتخار والمباهاة بماضيهما التاريخى المجيد قبل حلول الفاتحين العرب والأسبان.. مصر الفرعونية، والمكسيك المايا والازتيك، أكثر من شعوب المنطقتين بصفة عامة ..

ومن المدهش أيضا أن حضارة الازتيك والمايا فى المكسيك هى الوحيدة فى أمريكا اللاتينية التى خلّفت الاهرامات Teotihuacan وغيرها.. فهناك أكثر من أربع أو خمس مناطق أهرامات شهيرة فى المكسيك وهى أهرام مدرجة مثل هرم سقارة لكن الدرجات أقل

ارتفاعا .. ومصر هى الوحيدة فى العالم العربى وشمال افريقيا التى خلفت حضارتها القديمة اهراما بالمثل.. بل إن المايا والأزتيك قد عبدوا الشمس مثلما عبدها قدماء المصريين!! والفارق بين الحضارتين أن المصـــريين القدماء لم يؤمنوا بتقـــديم القرابين ولا الضحايا البشرية فى حين كان ذلك جزءا من ديانات شعوب المكسيك القديمة .

وقد أدرك كثير من المفكرين المكسيكيين (وغيرهم) اوجه التشابه بين مصر والمكسيك فبدأوا يتساءلون عما اذا لم تكن حضارتا المايا والازتيك وريثتين لحضارة مصر القديمة أو فرعا لها حملها مهاجرون مصريون قدماء عبروا الاطلسى واستقروا بها فى المكسيك وأمريكا الجنوبية (١) وقد أثبتت الرحـالة تـور هايـردال (٢) العالم والمكتشف والمغامر النرويجى صدق نظرية احتمال عبور قدماء المصريين بزوارق كبيرة صنعت من نبات البردى وحزمت كلها جيدا بأن تمكن هو نفسه من عبور الأطلسى على مركب البردى مثل الذى كان ينتج فى مصر وبعض بلاد أفريقيا وقد وجدت أنواع من نبات البردى فى المكسيك وقرب بحيرة تيتيكاكا

---

(١) اقرأ chariots of the gods + The Secrets of the greaPy-ramid of guiza + The Raa Expedittion .

(٢) (2) Thor Hyerdhal the Raa Expedition .

فى بوليفيا حيث مازال الهنود الحمر يستعملون زوارق من نبات البردى المزروع حول البحيرة) حاليا فى صيد الأســـماك !

هذا والمكسيك من أجمل بلاد الدنيا قاطبة من حيث جمال الطبيعة وجمال الجو وبخاصة فوق الهضاب المرتفعة مثلما حال مدينة المكسيك ذات الربيع الدائم ويتفاوت ارتفاع جبال وهضاب المكسيك من ٢٠٠ الى ٣٠٠٠ متر فوق سطح البحر.. أما مدينة المكسيك فهى ترتفع أكثر من سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر (أقل من ارتفاع بوجوتا اكثر من الف قدم) وشمسها مشرقة أغلب الأحيان حتى فى موسم الأمطار.. فجوها لطيف منعش، يميل الى جو الربيع طوال العام مما يجعلها مركزا سياحيا ممتازا وبخاصة بسبب توافر أسباب السياحة الأخرى من فنادق كثيرة متفاوتة الطبقات الى تاريخ وحضارة قديمين والى الصناعات اليدوية المكسيكية الجميلة ..

فمدينة المكسيك تضارع ابهى مدن أوروبا فهى مدينة ذات اصالة وتاريخ وحضارة مستمرة.. والزائر لديه الكثير بل الكثير جدا الذى يملأ وقت فراغه ويجذبه إلى المشاهدة. حتى مصارعة الثيران.. موجودة أيضا.. فهناك حى قصر الفنون الجميلة las Bellas Artes وهى مدخل المدينة القديمة ثم شارع ماديرو الموصل من الفنون الجميلة إلى الميـدان الرئيسى El Zocalo مقر قصـــر

الرياسة ومقر الحكم وهى سراى جميلة تاريخية. وطريق ماديرو هذا مرصع ذات اليمين وذات اليسار بتجار الفضة والمصنوعات الفضية التى تشتهر المكسيك بجودتها. وقرب سراى الفنون الجميلة يوجد برج أمريكا اللاتينية وهو أقدم ناطحة سحاب فى أمريكا اللاتينية ويرتفع إلى ٤٩ طابقا بنى بطريقة حديثة لمقاومة الزلازل مثله فى ذلك مثل عدد كبير آخر من ناطحات السحاب والفنادق المرتفعة. ويوجد بوسط المدينة محلات El palacio de Hierro السراى الحديدية «وهو أكبر متاجر المدينة الضخمة ومن الناحية الأخرى من قصر الفنون الجميلة يبدأ طريق لاريفورما Avenida la Reforma وهو مايماثل الشانزلزيه فى باريس حسنا وبهاء وبه المتاجر الصغيرة الفخمة Boutiques ويمتد عشرات الكيلومترات عبر عدة ميادين جميلة بعضها حمل تماثيل ملوك الازتيك أو المايا مثل ميدان El Angel ويوجد قريبا منه حى تجارى انيق La zona Rosa حول شوارع Niza و Geneva Hamburgo etc. حيث توجد سلسلة من المتاجر الانيقة الصغيرة والفنادق والمطاعم الفاخرة.. أما طريق الثوار Avenida de los Insurgentes فيمر قاطعا لاريفورما ويمتد طوله الى خمسين كيلو مترا من أول المدينة إلى آخرها وبه أحياء سكنية فاخرة كما تحفه المتاجر والمطاعم الأنيقة. وفى نهاية طريق الثوار يصل بنا الى حى

جديد فاخر اسمه El Pedregal به فيلات انيقة حيث صنعت كلها من حجارة البازلت واللافا البركانية.. وهناك قريبا منه يوجد حى جامعة المكسيك ومكتبتها الشهيرة La Bibliotequa المغطاة بالموزاييك ويزينها من الخارج لوحات فنية كبيرة جدا من الموزايكو من صنع كبار رسامى المكسيك.. وبالمكسيك الحديثة خمسة أو ستة من أشهر رسامى العالم مقدرة وشهرة..

أما طريق لاريفورما فيستكمل صعوده نحو قصر تشابولتيبيك El Castillo de Chapultepec الشهير الذى سكنه الامبراطور مكسيميليان وهو يستحق الزيارة هو الآخر.. وقريبا منه توجد سلسلة محلات Sanborns الشهيرة المملوكة لشركة امريكية شمالية وهى تحوى مطاعم جميلة يكثر اقبال السياح عليها، لما تحويه ايضا من متاجر تحف وعاديات وصناعات المكسيك اليدوية من النحاس والفضة والأقمشة المكسيكية ذات Mother of pearl النقوش المكسيكية التى تشتهر بصناعتها المكسيك - وقريبا من قصر تشبولتيبيك ومن فندق الـ Camino Real يوجد متحف الانثربولوجيا المكسيكي الشهير وقد تم تجديده فى منظره الجديد منذ حوالى عشرين عاما.. وتستغرق زيارته السريعة حوالى الساعتين على الأقل لكنها زيارة واجبة بقدر ماهى مفيدة وطريفة، ثم هناك حى Polanco السكنى الراقى وبه ايضا متاجر انيقة،

وحى «الغابة» El Bosque الهادىء الجميل ثم يصعد بك طريق الريفورما إلى الحى السكنى الأرقى «المرتفعات» Las lomas حيث تكثر السفارات الاجنبية والفيلات الفاخرة حـول شـوارع

LaSierra Madre- Sierra Nevada- Sierra Mojada etc.
Reforma-

وهكذا بأسماء الجبال المحيطة. وعلى بعد عشرين كيلو مترا من مدينة المكسيك ويصلها بها طريق سريع (اوتوستراد) توجد المدينة التابعة Ciudad Satellite وهى مدينة حديثة جدا بها عمارات مرتفعة حديثة ومتاجر كثيرة ومراكز تجارية جميلة راقية، اضطرت المكسيك لبنائها لتخفيف الضغط السكانى الهائل المتزايد باستمرار حيث بلغ عدد سكان مدينة المكسيك الكبرى عشرين مليون نسمة .

ولا يفوت الزائر أن يزور الحدائق العائمة فى Xochimilco القريبة من مدينة المكسيك حيث يمكنه النزهة في احد الجندولات الكثيرة الرائحة والغادية مع الاستمتاع بموسيقى المارياتشى الشهيرة الفولكلورية المكسيكية.. Los Mariachis

وفى أحد أحياء مدينة المكسيك القديمة Plaza Garibaldi يوجد أكبر تجمع لفرق الماريتشى حيث يمكن للمرء استئجار إحداها

ابتداء من عازفين اثنين الى عشرين عازفا ومطربا يرتدون كلهم الزى المكسيكى التقليدى أى بذلة سوداء مزركشة محلاة بالفضة فوق قميص أبيض «ذى كرانيش» وفوق الرأس القبعة المكسيكية السوداء الكبيرة التقليدية ولا توجد حفلة كبيرة فى المكسيك إلا وأحياها فريق من الماريانشى . ولعلها عادة أوروبية قديمة حملها الأسبان معهم إلى العالم الجديد .. ففى أسبانيا القديمة وغيرها من بلدان أوروبا كان المحب يستأجر فريقا موسيقيا صغيرا يغنى تحت شباك معشوقته بدلا من المحب نفسه الذى قد لا يجيد الغناء أو يتحرج من الغناء .. Serenading ويبث المحب محبوبته الشوق والمحبة على لسان هذا الفريق كما يحدث فى المكسيك على لسان الماريانشى . ولعل المكسيك أكثر بلاد امريكا اللاتينية تمسكا بتلك الظاهرة الأسبانية أى الغناء تحت نافذة المعشوقة .. وكذلك حب مصارعة الثيران .. أما أهم أغانى الماريانشى فى هذه المناسبات فهى Las Mananitas أغانى أو "اهازيج الصباح" حيث يغنى الماريانشى فى آخر الليل أو مع اشراق شمس الصباح تحت شباك محبوبته ..

ما أجمل هذا الصباح Que linda esta la manana الذى آتى فيه اليك لتحيتك ! !! En que veingo saludarte

ولا تخلو زيارة إلى مدينة المكسيك من زيارة إلى

حى Lagunia وهو أقرب إلى Narché aux Puces فى باريس حيث يمكن استرداد أو اعادة شراء المسروقات أو العثور على بعض العاديات "اللقطة" .

وعلى مقربة من مدينة المكسيك أيضا غابات نزهة وأماكن للوجبات الخلوية وسط أشجار قديمة باسقة وفى جو نقى هادئ واسمها غابة أو صحراء الأسود !! لكنها ليست غابة وليس بها أسود وإنما هى بقعة ساحرة كثيرة الأشجار والمياه فوق مرتفع ليس ببعيد عن العاصمة ..

أما خارج مدينة المكسيك فان السائح أو الزائر لديه أكثر من سبب للحيرة وصعوبة الاختيار لكثرة مايمكنه رؤيته.. فمن المدن التاريخية المحيطة Tula-Puebla- Taxco وكلها تشتهر بمناجم أو بصناعات الفضة والنحاس والمصنوعات اليدوية الجميلة، ومدينة جواد يلاخارا (١) Guadelajara الأسبانية الطابع هى المدينة الثانية فى المكسيك وتعدادها ثلاثة ملايين، اقل ارتفاعا من مدينة المكسيك وأكثر تاريخا، وعلى مسيرة سبعين كيلو مترا بالطرق السريعة الحديثة (اوتوستراد) وعلى ارتفاع خمسة آلاف قدم أى أنها أقل ارتفاعا من المكسيك بالفى قدم توجد مدينة كويرنافاكا

---

(١) جواديلاخارا اسم مدينة فى اسبانيا ايضا وهو اسم مشتق من العربية (وادى الحجارة).

Quernavaca الحالمة النائمة فجوها أكثر دفئا من مدينة المكسيك لأنها أقل ارتفاعا، وشمسها أكثر حرارة وكانت تجمع حكام وسادة المكسيك وقت فراغهم وبنوا فيها فيلاتهم الفاخرة ذات الحدائق الغناء وحمامات السباحة وما إلى ذلك.. وبها قصر قديم لماكسيميليان بالطبع.. لكنها اليوم قبلة الامريكيين «الشماليين las Gringos الذين يقطنون كويرنافاكا باستمرار بعد تقاعدهم.. فالجو رائع طوال العام والحياة رغدة مريحة هانئة أما التكاليف فنصف تكاليف الولايات المتحدة أو أقل والخدم والحشم متوافرون بكثرة لا توجد فى الولايات المتحدة طبعا.. كما أن للأمريكى فى المكسيك احترامه.. ربما أكثر من بلده..

وبهذه المدينة كويرنافاكا توجد عدة فنادق (مطاعم ذات حدائق غناء) لخدمة الأمريكيين والسياح العابرين وسادة وأغنياء المكسيكيين.. مثل La jacanande - Villa Hermosa - las Mananitos وهكذا.. ويقدم فيها أطيب ألوان الطعام المكسيكى والأوروبى فى جو شاعرى خيالى رائع.. وسط الحدائق الغناء على مدار العام.. فالجو هنا ربيع دائم .

أما المصايف ذات البلاجات الفاخرة والرمال الناعمة فالمكسيك غنية بها هى الأخرى وطوال العام ايضا بسبب حرارة اجواء الساحل المدارية وإلى جانب اكابولكو ذات الجمال والشهرة

الذائعين قامت مصايف Puesto Vallarta وكانكون Cancu'n على ساحل المحيط الهادى والأطلسى على التوالى .. وفى اتجاه ميناء فيراكروز على الأطلسى وهو الميناء المكسيكي الأول توجد مدينة Fortin de las Flores «فورتين الأزهار» وهى أى المدينة مزدهرة رائعة فى جو خيالى من الزهور والرياحين المزدهرة طوال العام أيضا ..

أما عن البحيرات فهناك أيضـــا منها الكثيــر ، أهمهــا Tequestengo ولا تبعد عن المكسيك سوى مائة وبضعة كيلومترات وبها فنادق ومطاعم شهيرة حول بحيرة مياهها خضراء جميلة حقا – وهناك الأهرامات فى تيوتيواكان Jeoteuacan وغيرها من المناطق وتستحق الزيارة لاشك هى الأخرى .. مما لا يترك للزائر أو السائح وقتا للتفكير فى شىء آخر سوى السياحة وشراء التحف المكسيكية والذكريات كل هذا مع المرح والطرب .. وهو طبع الشعب المكسيكى ورغم ما فى قلبه من ذكريات وآلام ، وبرغم الهزات الأرضية والسياسية المتعاقبة ورغم ما فى نفسه من حزن دفين قديم .

وعلاقة المكسيك بالولايات المتحدة قديمة ومعقدة تنطبق عليها التســمية الشائعة بانها علاقة «حب وكـــراهية» فى آن واحـــــد love - hate relati onship، كما ينطبق عليها المثلان العربيان

الشائعان أيضا «من جاور الحداد اكتوى بناره» و «ومن جاور السعيد يسعد» .

فقد سلخت الولايات المتحدة عن المكسيك مقاطعات شاسعة بما عليها من سكان في تكساس في الربع الأول من القرن التاسع عشر Texas وكاليفورنيا ونيومكسيكو واريزونا وفلوريدا ١٨٤٦ - ١٨٤٨.

وأرسلت جيوشها داخل حدود المكسيك الشمالية فى غارات تأديبية ضد الثائر بانشوفيلا سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ كما أمطر الأسطول مدينة فيراكروز بقنابله ثم وصل مشاة البحرية الأمريكية إلى قلب العاصمة مكسيكو واستولوا على قصر تشابولتبيك سنة ١٩١٢ فى مذبحة «الأطفال الأبطال» Ninos Heroes الشهيرة سالفة الذكر ..

وتكررت مظاهر تدخل الولايات المتحدة فى شئون المكسيك الداخلية بل وفى شئون دول أمريكا اللاتينية بصفة عامة ، سياسيا واقتصاديا وظهرت آثار تغلغل وسيطرة رءوس الأموال الأمريكية على مقدرات البلاد فى أحوال كثيرة .. ولعل كل هذا ، إلى جانب جوار المكسيك الشديد إلى الولايات المتحدة هو ما حدا بالرئيس الفيلسوف ماديرو أن يصف الموقف فى بوتقة موجزة حين قال «مسكينة حقا هذه المكسيك ، لشد ما هى قريبة من الولايات

المتحدة ولشد ما هى بعيدة عن ربنا » . كما كان لكل ذلك لشد أثره الواضح فى تنمية رد الفعل العملى والمنتظر حدوثه لدى المكسيكيين فى صورة بروز وتقوية مظاهر الوطنية والاستقلالية المكسيكية فى كل مناسبة ممكنة لاثبات استقلال المكسيك فى الرأى وعدم انقيادها أو تبعيتها تبعية عمياء لاراء ومواقف الولايات المتحدة ..

ومن هنا ، بادىء ذى بدء ، يلقب المكسيكيون الأمريكيين الشماليين بتسمية Gringos وهى تعادل تسمية البريطانيين للأمريكيين باسم «يانكى Yankees» أى أن التسميتين لايقصد بهما المدح وإنما هما أقرب إلى القدح والاحتقار .. وقد جاءت تسمية Gringos أغلب الظن من الأغنية التى كان يتغنى بها مشاة الأسطول الأمريكى سنة ١٨١٢ فى مسيرتهم من فيراكروز إلى مدينة المكسيك لإنزال العقاب بحكوماتها وكانوا يرددون هذه الأغنية أثناء زحفهم Green grow my pastures (أى أن السهول تمتد أمامى مواتية ، بمعنى أن النجاح حليفى ولذلك فان ذكرى هذه التسمية مؤلمة ولاشك للمكسيكيين .

ولا نعدو الحقيقة حين نقول : إن الحكومات المكسيكية المتعاقبة كانت تحاول دائما إثبات استقلالها بالرأى المختلف عن أراء واشنطن فى شتى المناسبات .. فكانت تعلن استياءها العلنى

لتدخلات واشنطن فى شئون دول أمريكا الجنوبية قاطبة ، مثال ذلك غزو أمريكا لجرانادا سنة ٨٣ وتدخلاتها فى بنما وفى نيكاراجوا ومن قبل ذلك محاولاتها غزو كوبا سنة ٦٠ فى حادثة خليج الخنازير الشهيرة .. ولعل المكسيك كانت الوحيدة من الدول فى أمريكا اللاتينية أو على رأس تلك الفئة القليلة منها التى رفضت الرضوخ لرأى واشنطن بقطع علاقات دول القارة الأمريكية مع نظام فيدل كاسترو .. وظلت المكسيك الوسيلة الوحيدة للاتصالات الجوية لكل من أراد زيارة كوبا من الأمريكتين ولم تقطع معها أبدا مبادلاتها التجارية ولا علاقاتها الدبلوماسية فى الوقت الذى سايرت فيه عواصم لاتينية كثيرة موقف واشنطن المعادى لكوبا .

ولطالما أيدت المكسيك وتعاطفت مع الدول والحركات اليسارية فى العالم - عكس مواقف واشنطن بالطبع كما طالما أعلنت المكسيك عن عدم رضائها عن الدول اليمينية ذات الأنظمة الرجعية ومنها نظام فرانكو فى أسبانيا نفسها .. ولم تتحسن العلاقات المكسيكية وأسبانيا إلا بزوال حكم فرانكو .

ولا تقف مظاهر الوطنية المكسيكية عند هذا الحد بل إنها تخللت جميع مظاهر الحياة اليومية فى المكسيك حيث يطالعك شعار«صنع فى المكسيك بأيدى مكسـيكية وليس هناك ما

como Hecho in mexico por mexicanos"- يمـــاثل المكسيك mexico no hay dos

وقد وافقت المكسيك على اقامة العلاقات الدبلوماسية مع مصر سنة ١٩٥٨ بمجرد طلب القاهرة ذلك في حين ان انظمة يمينية مختلفة فى أمريكا اللاتينية ومنها نظام حكم بيرو (وعاصمتها ليما) رفض اقتراح اقامة العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الرئيس عبد الناصر خشية انتشار الاشتراكية فى بيرو - ولم توافق بيرو على تبادل التمثيل الدبلوماسى مع مصر الا بسقوط نظام بيرو الرجعي .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن المكسيك مثلها فى ذلك مثل جميع بلاد امريكا اللاتينية بل دول العالم الثالث اجمع، تحمل كثيرا من مظاهر الاعجاب والاحترام الكبير لتقدم الولايات المتحدة الهائل صناعيا واقتصاديا وعمرانيا، كما تحاول قدر جهودها المحدودة تقليد ومضاهاة هذه الظاهرة الأمريكية الفذة.. ويبدى المجتمع المكسيكى الكثير جدا من صور التأثر الواضح بطريقة الحياة الأمريكية وطرق ادارة الأعمال الأمريكية ولا غرو فان المكسيك ايضا بلا شك هى اكثر بلدان امريكا اللاتينية استقبالا لاكبر عدد من المواطنين الامريكيين المقيمين اقامة دائمة بالمكسيك أو الزائرين والسائحين لها على مدار العام.. مما يستتبعه من محاولة ارضائهم واجتذاب اموالهم واستثماراتهم الى المكسيك .

أما من ناحية الولايات المتحدة فقد طرأ التحسن على سياستها ودبلوماسيتها تجاه أمريكا اللاتينية على مراحل عكست هى الأخرى التطور الذى طرأ على درجة نضج أو عدم النضج فى تلك السياسة فقد بدأت مثلما أشرنا فى مطلع القرن التاسع عشر بالعدوان الصريح وانتزاع مقاطعات شاسعة من المكسيك ثم تبع ذلك دبلوماسية العصا الغليظة Big stick التى حملها تيودور روزفلت تجاه أمريكا اللاتينية تنفيذا للرأى القائل بأن هذه الدول لا تحترم إلا القوة ومظاهر القوة..

وكان غزو أمريكا لكوبا واحتلالها لها بعد طرد أسبانيا منها سنة ١٨٩٨ وكذا تدخلاتها فى الجمهورية الدومنيكية وبنما منذ سنة ١٩٠٣ وضغوطها للحصول على امتيازات اقتصادية ومالية لرءوس الأموال الأمريكية فى جمهوريات البن والموز وفى شيلى وغيرها.. إلى أن تحسنت دبلوماسية أمريكا رويدا باتخاذها ماأسمته دبلوماسية العصا والجزرة، تلوح بالجزرة تارة وبالعصا تارة أخرى لضمان نوال أهدافها فى القارة اللاتينية ..

وجاء تأميم المكسيك لشركات البترول الأمريكية فى المكسيك سنة ٣٩ - ١٩٤٠ وأوروبا على شفا دخول الحرب العالمية الثانية وأمريكا تستعد هى الأخرى لايجاد الأسباب والمبررات لانضمامها لبريطانيا وفرنسا فى حربهما ضد المحور فاضطرت واشنطن الى

قبول الأمر الواقع ولم تعمد الى وسائل الضغط المكشوف أو التدخل الصريح فى شئون المكسيك فى تلك الآونة الدقيقة. وبعد انتهاء الحرب بدأت أمريكا دبلوماسية جديدة تجاه القارة اللاتينية هى دبلوماسية حسن الجوار Good Neighbour liness التى عززها كيندى بعد فشل اعتداء أمريكا على كوبا فى خليج الخنازير.. لكن هذا لا يعنى زوال احتمال الانتكاسات والعودة الى سياسة العصا والجزرة أو العصا الغليظة بين الحين والآخر إذا قدرت واشنطن انه لاسبيل الا للعصا لضمان مصالحها فى أمريكا اللاتينية: وأمثلة ذلك كثيرة: تدخلها لاسقاط الرئيس اربينز الاشتراكى سنة ١٩٥٤ فى جواتيمالا، تدخلها فى كوبا سنة ٦٠ تدخلها لاسقاط رئيس بنما سنة ٨٩ تدخلها فى نيكاراجوا سنة ٨٤ وضع ألغام فى موانىء نيكاراجو، ومساعدتها الثوار ضد الحكومة علانية ٨٨-٨٩، غزوها لجرينادا سنة ٨٣ لاسقاط حكومة اشتراكية أو «شيوعية» وهكذا ..

.. ولا تخفى المكسيك عدم رضائها عن تلك النكسات والردات. لكن الولايات المتحدة تستورد ٥٥٪ من كل صادرات المكسيك كما أن المكسيك تستورد ٦٤٪ من وارداتها أو أكثر من الولايات المتحدة، وتجنى المكسيك ثلاثة بلايين دولار سنويا على أقل تقدير من السائحين الأمريكين.. ناهيك بمساعدات الولايات المتحدة

للمكسيك سنة ٨٨-١٩٨٩ لدى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والدائنين من أجل إعادة جدولة ديون المكسيك الخارجية ومنحها تسهيلات ائتمانية واجرائية لتسهيل سدادها ديونها.. ولا عجب فإنه لمن الأهمية بمكان لواشنطن ان توجد حكومة مستقرة ومجتمعا استهلاكيا نشطاً ومستقراً على حدودها الجنوبية مثلما هو مهم للمكسيك أن تجمعها والولايات المتحدة علاقات طيبة .

كان السائد أن أهم دول ثلاث فى أمريكا اللاتينية هى دول الـ A.B.C أى الارجنتين والبرازيل وشيلى.. لكن العواصف والأنواء السياسية والاجتماعية عطلت تقدم هذه الدول الثلاث اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا فى حين أن طول مدة استقرار نظام الحكم فى المكسيك (بغض النظر عن عدم ديموقراطية الحكم فى الماضى) جعلت المكسيك تتقدم الى الصدارة واصبحت أهم أو واحدة من أهم دولتين فى أمريكا اللاتينية صناعيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . اذن فقد اصبح قادة امريكا اللاتينية حاليا : M.A.B.C المكسيك والارجنتين والبرازيل وشيلى ..

وفى الستينات نشطت الدبلوماسية المكسيكية بعد ازمة الصواريخ الذرية الروسية فى كوبا، نشطت الى التبشير بمعاهدة

تتعهد الدول الأمريكية بمقتضاها بعدم انتاج أو تخزين أو نقل الأسلحة الذرية ووسائل إيصالها على أرضها وفي فبراير ١٩٦٧ وقعت ٢١ دولة امريكية لاتينية (ماعدا كوبا وجوايانا) معاهدة تلاتلكو في المكسيك وصدقت عليها بعد ذلك كل الدول الموقعة ما عدا البرازيل والارجنتين والمظنون أن هاتين الدولتين جادتان في برامج ذرية متقدمة وان كانتا تنفيان أنها لأى غرض آخر سوى الاغراض السلمية (١) .

والتسابق السياسي والصناعي مابين البرازيل والارجنتين على زعامة القارة اللاتينية قديم ومستمر.. ووصل أحيانا إلى حد المواجهة العسكرية في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين وقد ارادت المكسيك ان تبعد عن امريكا اللاتينية شبح السباق الذرى والحرب الذرية وامكانية تكرار ازمة الصواريخ الكوبية، وايدها في هذا المسعى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. ومعاهدة تلاتلكو من بنات افكار خبير نزع السلاح المكسيكي السفير كارلوس جارسيا رويليز. *لكن مازال على الجميع اقناع البرازيل* والارجنتين بتنفيذها وهما أهم دولتين في القارة اللاتينية من حيث تسابق التجارب الذرية فلهما فيها أبحاث متقدمة .

---

(١) في وسط سنة ١٩٩٠ ابدت البرازيل والارجنتين بعض مظاهر الرغبة في تنفيذ معاهدة تلاتلكو .

وصلنا اذن المكسيك في سبتمبر أو أكتوبر ١٩٥٩ بالطائرة من بوجوتا وكنت قد رقيت سكرتيرا أول للسفارة. وكان في نيتنا زيارة هافانا كوبا قبل توجهنا من المكسيك لكنا اضطررنا لالغاء هذه الزيارة في آخر لحظة بسبب أحداث وقعت في كوبا نتيجة نشاط الثوار الذين تدعمهم الولايات المتحدة ضد فيديل كاسترو .

كان الزميل والصديق الاستاذ محمد ابراهيم كامل (وزير الخارجية فيما بعد) قائما بأعمال سفارتنا في المكسيك عند وصولي وكان يعاونه دبلوماسيان آخران هما الاستاذان (السفيران فيما بعد) مصطفى العرابي وجابر ابراهيم صبرة، وقد احتفى بنا ثلاثتهم وعائلاتهم الكريمة، وظل معنا الاستاذ محمد ابراهيم كامل عدة شهور إلى أن نقل قنصلا عاما لنا في مونتريال بوصول سفيرنا المعين حديثا في المكسيك في ظل الوحدة وكان السفير (السوري) انور حاتم .

أما الصديق مصطفى العرابي فقد دعانا مرة إلى الغداء في منزله وقدم لنا عدة أصناف كلها مكسيكية الصنع (اشتراها من الخارج) وجلس يرقبني وأنا اختبر الاطباق المكسيكية.. وقد وجدتها كلها شهية بل شهية جدا فيما عدا انها كانت حريفة وأحيانا حريفة جدا (حراقة : لاذعة) إذ يدخلها أنواع من الفلفل الأحمر وغيره من التوابل اللاذعة لكني مضيت آكلها بشهية فاني

اتحمل الاكل اللاذع بشجاعة بل ولذة أحيانا وجلس الزميل العرابى يرقبنى بمكر وهو ينتظر بين لحظة وأخرى أن أصرخ من الألم أو أن أقفز من مقعدى من فرط ما أكلت من توابل لكن شيئا من هذا لم يحدث وخيبت أمل صديقى فى التشفى بى !

أما أنواع الأطباق المكسيكية الشهية التى أعجبت بها فهى صدور الفراخ بصلصة لاذعة بنية اللون مثل الشيكولاتة Pollo con salsa de guaquamole ، سلاطة خضراء من الافوكادو ناعمة ولاذعة وشهية ايضا Ensalada de Aguaquate ونوع من البوريك اسمه Empanades وخبز رقيق كأرق أنواع الخبز الشامى مصنوع من دقيق الذرة لايزيد سمكه على ٢-٣ ملليمترات وقطره ١٠ سنتيمترات اسمه تورتيللا Tortilla وآخر محمر بالزيت اسمه Tacos ويستخدم هو والتاكوس كغموس أو ساندويتش للسلاطات ولكن بصفة خاصة لنوع من الفول المدمس المصفى (البوريه) اسمه Frijoles يضاف اليه بكثرة مسحوق أو عصير الثوم.. والأرز طبعا يؤكل فى كل أمريكا اللاتينية.. وطبق رجل الشارع المكسيكى هو الفول المصفى مع الخبز أو التاكوس وكذا الامبانا داس للمقتدرين.. والواقع انها كلها لاذعة حريفة. لكن هذا لا يعنى أنه لا توجد أطباق مكسيكية غير لاذعة.. لانها موجودة وبكثرة فى فنادق السياح والمطاعم الكبرى التى يؤمها الأجانب.. وتقدم جميع الأصناف العالمية .

ويسفر الصديق محمد كامل الى مونتريال وصل بدلا منه المستشار (السفير فيما بعد) عباس حلمي صدقي.. وكنا نخرج ثلاثتنا مع الصديق العرابي وعائلاتنا في رحلات ايام السبت أو الأحد خارج مدينة المكسيك للاستمتاع بمحاسن هذا البلد الجميل.. وفي إحدى المرات قضينا اياما طويلة في أكابولكو على شاطيء الباسيفيك وصحبنا معنا والدة زوجتي التي كانت في زيارتنا. وقد زار المكسيك سنة ٦٠ الاستاذ حسين ذو الفقار صبري نائب وزير الخارجية في ذلك الوقت على رأس وفد رسمي في جولة رسمية له في أمريكا اللاتينية.. وكان معه مدير مكتبه المستشار في ذلك الوقت (السفير فيما بعد) جمال شعير.. وقد دعوت الوفد للعشاء ذات ليلة في شقتي بمدينة المكسيك في حي بولانكو.. وكنا قد وفقنا الى شقة فاخرة حقا (دور كامل بفراندات حوله كله) تتكون من صالون كبير وحجرة سفره و٣ حجرات نوم وحمامين وجناح كامل للخادمة ..

ولهذه الشقة قصة غريبة.. فقد صمم وكيل أعمال صاحبة العمارة على أن اسدد ايجار الشقة (خالية) مقدما لمدة اثنى عشر شهرا .. وكانت العمارة جديدة لم تسكن بعد. وقد وافق بعد جهد على قبول المقدم لستة شهور فقط. وتبين لي ولصاحبة العمارة فيما بعد أنه اخذ كل مقدمات الايجار وهرب الى الخارج.. لكن كان

معى ايصالات السداد وكان وكيل اعمالها يحمل توكيلا رسميا من صاحبة العمارة ولم يكن أمام المسكينة سوى قبول الخسارة.. أما أنا فحمدت الله على أنى لم اسدد سوى ستة شهور مقدما فقط فقد تم نقلى سريعا بعد ذلك. وكانت والدة زوجتى قد أتت لزيارتنا وكان التفاهم بينها وبين الخادمة المكسيكية «ارنستينا» مستحيلا بل يسبب أحيانا مواقف مضحكة.. وكان علىّ وعلى زوجتى مهمة الترجمة بينهما وقد طلب بعض أعضاء الوفد المرافق لحسين صبرى عشاء مصريا فأعددنا لهم ماستطعنا من أطباق مصرية إلى جانب الاطباق المكسيكية.. وفى اثناء العشاء أسر الىّ الصديق جمال شعير انه كان قد تم نقلى من بوجوتا بسرعة بناء على طلبى لأسباب صحية ولم يكن هناك سوى المكسيك لتلبية رغبتى فى ذلك الوقت إلا أنه تقرر نقلى قريبا إلى البعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك وأن الحركة ستصدر قريبا فاستعد لها !! لم يكن قد مضى علينا أربعة شهور تقريبا فى المكسيك فلما أبديت دهشتى الشديدة لهذا الخبر سألنى الصديق جمال شعير عما إذا كنت أفضل البقاء فى المكسيك بدلا من الانتقال الى الأمم المتحدة ؟! وفى الواقع كان الاختيار أمامى صعبا .. فالمكسيك جنة الله فى أرضه.. البلد جميلة والمدينة ساحرة والجو ربيع دائم والسكن الذى وفقنا اليه أكثر من فخم ومريح ولم يكن قد استقر بنا

المقام بعد.. فماذا يود المرء أكثر من ذلك ؟! إلا أنه من جانب أخر فان العمل في موقع مثل بعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة، وفي مدينة مثل نيويورك تجربة غنية ومفيدة لمن شاء صعود السلم ولمن كان عنده الاستعداد الكافي من صغار الدبلوماسيين وهي تجربة لا يمكن رفضها.. ومن هنا فقد أجبته بأن كل مايأتي به الله طيب وحسن وأني اترك الأمر للوزارة إذا شاءت نقلتني وان شاءت ابقتني في المكسيك ..

ولم تمض شهور قليلة الا وجاءني أمر الوزارة بتنفيذ نقلي سكرتيرا أول في البعثة الدائمة في نيويورك وكانت الشهور الستة التي سددتها مقدما الى وكيل أعمال صاحبة الشقة قد انتهت والحمد لله وقد تركنا المكسيك بعد اقامتنا بها مدة لم تزد على عشرة شهور أسفين لفراق هذا البلد الجميل والشعب المرح الطروب، لكن متطلعين ايضا الى تجربة مثيرة في نيويورك.. ومن يدري ماذا يخبيء القدر ؟!



علبة الكبريت (هيئة الأمم المتحدة) .. ونيويورك

لماذا وافقت الدول المؤسسة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ على اختيار مدينة نيويورك كمقر دائم للمؤسسة ؟ هناك سببان رئيسيان. فلم يوافق الكونجرس الأمريكي سنة ١٩٢٠ على اشتراك الولايات المتحدة فى عضوية «عصبة الأمم» فظلت العصبة مؤسسة أوروبية واضعف كيانها مقاطعة الولايات المتحدة لها فلم تستطع بريطانيا وفرنسا مواجهة اعتداءات اليابان على الصين ومونغوليا واعتداء ايطاليا على اثيوبيا واعتداء المانيا على النمسا وتشيكوسلوفاكيا أو دانزج ثم بولندا فقامت الحرب العالمية الثانية . وسقطت عصبة الأمم بعد أن فقدت مصداقيتها وبخاصة لدى القادة والشعب الأمريكي.. وكان اسم العصبة مقترنا باسم جنيف المقر الدائم لها .. ومن هنا فعند النظر فى تأسيس هيئة الأمم

المتحدة سنة ١٩٤٥ رفضت الولايات المتحدة، وايدها بعض حلفائها، جعل مقر الأمم المتحدة في جنيف (واوروبا بصفة عامة) حيث اقترن تاريخها بفشل عصبة الأمم .

أما السبب الثاني لاختيار نيويورك مقرا للامم المتحدة فكان الضغط الأدبي الأمريكي وراء هذا الاختيار ومصاحبته بضغط اقتصادي قوي لم يستطع أحد من مؤسسي الأمم المتحدة أن يجاريه. فقد عرضت الولايات المتحدة تبرع عائلة روكفيلر الأمريكية الشهيرة بقطعة أرض بناء يقدر اتساعها بحوالى عشرين فدانا من أجود أراضي البناء في مانهاتان أي وسط مدينة نيويورك وتطل على النهر الشرقي East River الذي يحد مانهاتان من الشرق كهبة من عائلة روكفيلر لتكون مقرا للأمم المتحدة.. ولم يكن لدى دولة أخرى عرض مماثل يجاري هذا العرض الكريم.. كما وافقت الولايات المتحدة على أن تساهم بحوالي ثلثي ميزانية الأمم المتحدة السنوية بشرط أن يكون مقرها الدائم في نيويورك.. أضف إلى ذلك أنها وافقت على الشروط المنصوص عليها في اتفاقية المقر Headquarters المقترحة والموقعة مابين الأمم المتحدة والدولة المضيفة وبموجبها تتعهد الولايات المتحدة بمنح الشروط والتسهيلات اللازمة لسير عمل الأمم المتحدة ومنها الاعفاءات الضريبية والجمركية واحترام شخصيتها الدبلوماسية الدولية، ومنح السكرتير العام للأمم المتحدة وكبار معاونيه الصفة

الدبلوماسية المعتادة لكبار الدبلوماسيين فى القانون الدولى بالاضافة الى التعهد بمنح أعضاء وفود الدول الأعضاء للأمم المتحدة الذين يسكنون نيويورك بصفة دائمة ومندوبيها الذين يفدون اليها لحضور اجتماعاتها الدورية حرية الدخول والخروج والحصانات والامتيازات التى يكفلها القانون الدولى لرجال الدبلوماسية، ومنها حق جميع الدول أعضاء المنظمة الدولية فى اختيار وايفاد مندوبيها لحضور جلسات الأمم المتحدة في نيويورك (بغض النظر عن نوع العلاقات التى تربط الولايات المتحدة بتلك الدول حتى لوكانت فى حالة حرب مثلا مع الولايات المتحدة..

ومن هنا تمكن فيديل كاسترو وممثلو منظمة التحرير الفلسطينية من الحضور الى نيويورك .

كل ذلك، بالاضافة الى أن المكانة الفريدة التى فازت بها الولايات المتحدة عالميا بنهاية الحرب العالمية الثانية، وظهورها كزعيمة العالم الغربى بلا منازع، كان من شأنه ترجيح اختيار نيويورك مقراً للأمم المتحدة، بل واستمرارهاً كمقر لها حتى اليوم رغم ارتفاع أصوات بين الحين والآخر تنادى بعدم مناسبة نيويورك كمقر للأمم المتحدة إما لصعوبة ظروفها المعيشية السكنية وبعدها عن أوروبا وبقية العالم، وإما بدعوى أن وجودها فى نيويورك يجعلها تحت سيطرة الولايات المتحدة سياسيا أو تحت تأثير أجهزة الاعلام الأمريكية أو «الصهيونية» أو غيرها..

ومع ذلك فالعدالة تقضى بالاعتراف بأن الزائر لمقر الأمم المتحدة ومبانيها بنيويورك لابد أن يبهره اتساع رقعة أراضيها وموقعها الفريد وبهاء رونقها وفخامتها ومناسبتها لظروف العمل داخل تلك المؤسسة الدولية الضخمة ومواكبتها لأساليب الحياة الأمريكية ومسايرتها لطرق إدارة الأعمال الأمريكية، وهذا كله بطبيعة الحال إنما يعكس تأثير الوجود الأمريكى المحيط بها.. والمتغلغل لدواليب العمل بالأمم المتحدة صغيرها وكبيرها. فاغلب موظفيها من الأمريكيين.. ويطلقون اسم «علبة الكبريت» على مبنى الأمم المتحدة الذى يشبه علبة كبريت ضخمة واقفة على شاطىء النهر ..

وصلنا نيويورك من مدينة المكسيك بطريق البر أى بالسيارة !! فقد قررت أنا وزوجتى قيادة سيارتنا البويك Buick من مدينة المكسيك شمالا عبر تكساس ولويزيانا وجورجيا وولايتى كارولينا ثم فرجينيا ثم مدينة واشنطن فنيويورك.. والمسافة حوالى خمسة آلاف كيلو متر قطعناها فى سبعة أو ثمانية أيام على مهل، مع توقفنا ليلة فى مونتريه فى المكسيك ثم ليلة فى نيواورليانز وفى كارولينا ثم مدينة واشنطن ثم نيويورك.. وكانت الطرق مريحة سريعة ممهدة وسبل الراحة كلها متوافرة ماعدا بولاية تكساس الأمريكية إذ كان ذلك فى شهر يوليو سنة ١٩٦٠ فقد كانت درجة

الحرارة خارج السيارة أكثر من أربعين درجة مئوية والشمس محرقة والضوء شديداً جداً . ولم تكن السيارات مكيفة الهواء قد انتشرت بعد ..

لكنها كانت تجربة غنية بالفائدة، ولم تكن فى خطورة رحلتنا فى كولومبيا من بارانكيلا إلى بوجوتا.. واتاحت لنا رؤية قطاع كبير من المكسيك ثم من الولايات المتحدة لم أكن قد شاهدته اثناء اقامتى السابقة فى واشنطن ..

وقد وفقنا فى العثور على شقة مناسبة فى نيويورك فى ايست اند افيو East end Avenue على ناصية شارع ٧٩. وايست اند هذا فى منطقة سكنية هادئة ومحترمة وتطل على النهر الشرقى East River الذى تطل عليه ايضا الأمم المتحدة – ولم يكن منزلى يبعد كثيرا عن مقر الأمم المتحدة بالسيارة (عشر دقائق) كما كان قريبا جدا من مقر بعثتنا الدائمة فى باراك افنيو وشارع ٧٩ أى مسافة خمس عشرة دقيقة مشيا على الأقدام. واختيار موقع سكن الدبلوماسى عضو بعثة حكومته الدائمة لدى الأمم المتحدة بنيويورك لمن الأهمية بمكان.. ليس فقط من الناحية المظهرية والاجتماعية وانما ايضا لأسباب عملية.. فغالبا مايود المرء اختيار سكنه قريبا قدر الامكان من مكان عمله.. لكن فى نيويورك بالذات لكل دبلوماسى الأمم المتحدة يوجد مقران للعمل وليس مقرا

واحدا.. فلكل بعثة دائمة حكومية مقرها الخاص الذى يضم مكاتب دبلوماسييها، حيث يمارسون اعمالهم اليومية من المشاورات فيما بينهم الى تلقى تعليمات حكوماتهم الى تحرير التقارير والبرقيات المرسلة الى العواصم والى إعداد الكلمات التى سوف يلقونها داخل الأمم المتحدة وهكذا.. لكن عليهم بعد ذلك التوجه الى علبة الكبريت أو مقر (سكرتارية) الأمم المتحدة First Avenue at 42nd St. أى مقرها الدائم الذى يضم قاعات الاجتماعات التى سوف يحضرونها ويلقون كلماتهم فيها ويتبادلون المشورة والأحاديث مع الوفود الأخرى بشأن القضايا المطروحة عليهم.. أى أن الدبلوماسيين المعتمدين لدى الأمم المتحدة يقضون وقتا طويلا يوميا فى الانتقال من منازلهم مبكرا الى مقار بعثاتهم الدائمة ثم منها الى مقر الأمم المتحدة قبل العاشرة صباحا، ثم اذا ماحانت الساعة الواحدة ظهرا كان عليهم التوجه الى حيث يتناولون غداءهم سواء فى منازلهم أو المطاعم وربما المرور ايضا على مقار بعثاتهم ثم العودة الى حضور اجتماعات الأمم المتحدة التى تستأنف فى الثالثة بعد الظهر وحتى السادسة أو السابعة مساء ثم زيارة مقار بعثاتهم الدائمة لتفقد سير العمل أو التزود بآخر تعليمات حكوماتهم الجديدة وأخيرا العودة الى منازلهم ليلا.. ومن هنا كانت محاولة اختيار مقار البعثات الدائمة قريبا من الأمم

المتحدة قدر الامكان، ومحاولة الدبلوماسيين اختيار سكنهم قريبا من الاثنين.. ولما كان عدد اعضاء بعثات الدول الى الأمم المتحدة يقدر بالآلاف المؤلفة وكانت نيويورك من البداية تعانى من مشاكل السكن المناسب واختناقات المرور فان مشكلة المواصلات والانتقالات فى نيويورك من أهم المشاكل التى تزعج حياة الدبلوماسيين بها.. ناهيك بغلاء الأسعار والايجار للمنازل المناسبة فى وسط المدينة أى وسط مانهاتان غلاء يضطر كثيرا من صغار الدبلوماسيين . الى سكنى الضواحى البعيدة وليس سكنى مانهاتان ذاتها..

هذا .. رغما عن حسن تخطيط المدينة ! فمدينة نيويورك تضم خمسة أحياء Boroughs أهمها وسط المدينة أى حى (أو جزيرة) مانهاتان Manhattan التى يحيط بها النهر الشرقى ونهر الهدسون وتقع بها بعثات الدول الأجنبية ومقر الأمم المتحدة وارقى الأحياء التجارية وحى المال وأرقى الأحياء السكنية.. وتنقسم مانهاتان الى شوارع رئيسية عمودية (أفينو Avenues) تقطع مانهاتان طولا أى من الجنوب الى الشمال والى شوارع جانبية Streets تقطعها عرضا (شرق - غرب) عمودية على الافينو.. تحمل كلها ارقاما فيما عدا قلة قليلة جدا تحمل بعض الأسماء.. ويبدأ العد من النهر الشرقى الافينو الأول فالثانى

فالثالث وهكذا الى أن يصل إلى وسط مانهاتان فتجد الافينو الخامس Fifth Avenue وهو أهم شريان سكنى تجارى حتى نصل الى نهر الهدسون فنجد الافينو الثانى عشر. ويعتبر شرق الشارع الخامس أرقى من غربه.. أما الشوارع الجانبية فيبدأ العد من الجنوب أو من أسفل مانهاتان قرب تمثال الحرية تصاعديا الى الشمال أى الجهة المقابلة فى نهاية مانهاتان قرب حى هارليم حى الزنوج التقليدى فتصل الى الشارع ١٢٥ وهكذا.. وتعتبر الشوارع من الخمسينات الى نهاية الثمانينات أرقى من الأطراف .

ومن هنا يسهل العثور على عنوان معين في مانهاتان بسبب العد التنازلى أو التصاعدى حسب الحالة لكن الأهم من هذا هو كم تستغرق من الوقت للوصول الى الهدف، وكم يستغرق من الوقت العثور على مكان قانونى تترك فيه سيارتك دون أن تتحمل مخالفة مالية كبيرة أو أن تعود فلا تجدها إما لأن إدارة المرور قد سحبتها إذا كنت قد تركتها فى مكان غير قانونى، أو لأن أحدا غيرك أغرم بها ؟!

ومهمة عبور مانهاتان طولا أو عرضا (لكن بالأخص عرضا من الشرق للغرب أو بالعكس (Cross Town) شاقة فى أى وقت من أوقات العمل وتأخذ جهداً ، ووقتا فأما من يضطر إلى سكنى أحد الأحياء أو المدن الأربع Boroughs المحيطة بمانهاتان فيقضى ساعات طويلة من عمره فى سيارته صباحا ومساء ..

ومن هذه الأحياء المحيطة بمانهاتان بروكلين وكوينز ولونج آيلاند وجزيرة ستاتن وريفردايل ونيوجيرسى فضلا عن أحياء سكنية كثيرة أخرى فى ولايتى نيوجيرسى وكونيتيكات القريبتين.. وأغلب سكان «نيويورك» يقطنون هذه المدن المحيطة بمانهاتان وينتقلون إلى وسط المدينة أى مانهاتان يوميا بالقطارات أو المترو تحت الأرض وإما بسياراتهم الخاصة، ويسمون هذه الفئة The commuters أى المتنقلين. ويقدر أن عدد سكان مانهاتان بالنهار هو ضعف عدده بالليل بسبب كثرة من يفد اليها نهارا لقضاء اعماله ثم المبيت خارج مانهاتان ..

.. ولا يرى الأمريكى العادى غرابة أو ضررا فى أن يسكن على بعد خمسين كيلو مترا من مقر عمله يقطعها صباحا ومساء (اذ يتناول غداء سريعا قرب مكان عمله).. وقد اعتاد الأمريكيون قطع المسافات الطويلة وهذه الحياة.. وإن كانوا قد اعتادوا أيضا الشكوى من التعب الذى يصيب المرء من كثرة الانتقال يوميا فى مواصلات صعبة.. لكن ما باليد حيلة فسكنى مانهاتان للجميع استحالة مادية ومالية..

أما مانهاتان شأنها فى ذلك شأن أمريكا كلها فهى مثال للمتناقضات.. فهى افخم واضخم عواصم العالم قاطبة (ولم اقل اجملها لكن افخمها واضخمها) وبها أكبر تجمع من ناطحات

السحاب والعمارات الفخمة الرائعة والمتاجر والحوانيت الراقية والمطاعم التى تفوق افخم مطاعم لندن وباريس وروما . وبها من دور اللهو والمسارح مثال راديو سيتى موزيك هول - ولنكولن سنتر - وكارنيجى هول ، وماديسون سكوير جاردن وكلها ذات شهرة عالمية.. مما لايوجد مثيله فى أى مكان آخر من العالم وبها من الشوارع الفخمة ومن الأحياء السكنية الراقية قرب وسط مانهاتان التى تطل على Central Park والشارع الخامس أو ساتون بلايس Sutton Place أو النهر الشرقى ما يضاهى أرقى الأحياء السكنية فى أرقى عواصم العالم .

لكن مانهاتان تضم ايضا هارليم (حى الزنوج التقليدى) كما تضم احياء وتقسيمات فقيرة Slums مهملة فى وسط الأحياء الثرية الراقية أو على بعد مرمى حجر منها ربما لأن الإدارة السياسية الداخلية اعترضت على ازالتها بسبب أو آخر.. وبمعنى آخر فإنه لا توجد فروق واضحة بين أحيائها الراقية والفقيرة بل قد تتداخل هذه وتلك أحيانا كثيرة.. وفي وسط ثراء وفخامة الشارع الخامس Fifth Avenue تجد أحيانا الشحاذين المفترشين الارض الذين يمدون يدهم الى المارة معلنين عن جوعهم أو بطالتهم ناهيك بما قد تراه ويزعج أحلامك اذ مازرت The Bowery حى جنوب جزيرة مانهاتان .. وهو حى المخمورين والسكارى المدمنين .

ومنظر الفقر والحاجة وسط كل مظاهر الثراء الفاحش منظر يؤلم النفس ويدعو للحسرة والعجب أكثر من منظر الفقر والحاجة في بلد كله فقير ومحتاج واعتاد منظر الفقر.. ورائحته .

كذلك من مساوىء نيويورك أو بعض مدن الولايات المتحدة الضخمة الآخرى المدمنين مثل لوس أنجلوس وسان فرنسيسكو وواشنطن) كثرة مظاهر الادمان.. ادمان الخمور أو المخدرات ادمانا يؤدى الى اعلان المدمنين عن انفسهم وسط جموع المارة (ولست أقصد حى Bowery فى نيويورك بل وسط الأحياء الراقية احيانا) أو لجوء المدمنين الى السرقة بالاكراه Muggings من أجل الحصول على بضعة دولارات سريعة لشراء حاجاتهم من المخدر أو الخمر ، ومن هنا كثرت حوادث السرقة بالإكراه فى نيويورك كثرة دعت سكان نيويورك الى تفادى السير ليلا فى الحدائق العامة أو ركوب عربة مترو الانفاق والسير فى الشوارع الجانبية المقفرة.. كما دعتهم الى ترديد «حكمة نيويوركية» مؤداها انه يستحسن أو يجمل بالمرء الا يحمل معه نقودا كثيرة (وتفضيل الاعتماد على بطاقات الائتمان Credit Cards فى المشتريات) لكن يجب على المرء أن يحمل معه عشرة دولارات على الأقل حتى إذا تعرض للسرقة بالاكراه اعطاها للسارق (أو السارقين) لتفادى غضبه أو ثورته وانتقامه إذا لم يجد أى قدر من المال مع ضحيته ..

هذا وتحضرني امثله على ذلك. فإن الزميل والصديق السفير على تيمور (المعار حاليا سكرتيرا عاما مساعدا ومديرا للمراسم في الأمم المتحدة) وهو يسكن حيا راقيا بنيويورك منذ سنوات قد تعرض لاعتداء بعض الصبية عليه قرب سكنه في حي راق في مانهاتان، اثناء عودته ليلا إلى منزله اذ رفض الاذعان أو حاول مقاومة المعتدين ..

كذلك تعرض نجل السفير اشرف غربال في سن الخامسة عشرة لسرقة دراجته بالاكراه أمام منزل والده - دار سكن سفير مصر في واشنطن ولم يكن ذلك ليلا بل نهارا ..

ومن هنا فقد اختلفت الآراء حول نيويورك.. وانقسم الناس والزائرون مابين المعجبين بنيويورك اشد الإعجاب والناقمين عليها الناقدين لمثالبها.. وكلا الفريقين على حق..

فنيويورك أرقى المدن وأفخمها إلاّ أنها لا تخلو من كثير من مظاهر الفقر والاهمال والفاقة.. بل والقذارة احيانا وهي أمتع المدن لمن أغرم بالمتاجر الضخمة وبالمسارح والملاهي والمطاعم وحياة الطرب واللهو، كما هي من أرقى المدن لمن شاء ان ينهل من ينابيع الثقافة والعلم الوفيرة وزيارة المتاحف والمكتبات الكثيرة الحافلة بكل ماهو جديد وممتع.. أو التردد على واحد من معاهدها وجامعاتها الشهيرة الراقية .

ولكن نيويورك تدعو إلى الخوف والرهبة أحيانا كما أن الحياة بها سريعة الايقاع مرهقة.. وأهلها فيهم المثقف الراقى المهذب ولا شك ، لكن يغلب على أكثرهم أو بعضهم أقصد رجل الشارع هنا قلة الصبر وقلة العلم والاطلاع بل وقلة التهذيب . ومن ثم يجمل بالاجنبى الذكى أن يتفادى الاحتكاك برجل الشارع وسائقى التاكسى فى نيويورك .. واذكر كما يذكر كثير غيرى من دبلوماسيى نيويورك أن أحد السفراء الممثل الدائم لحكومته لدى الأمم المتحدة خرج من مكتبه فى أحد الشوارع الجانبية وسط مانهاتان واراد أن يمر بسيارته فى طريقه إلى مقر الأمم المتحدة حيث كان ينتظره اجتماع عاجل واذا بسيارة (لورى) جمع القمامة تسد الطريق الضيق .. واذا ما حدث هذا فى أحد الطرق الجانبية في مانهاتان فقد تعطل المرور مدة طويلة وسخنت الأعصاب حتى ليتطاير منها الشرر ، وارتفع ضجيج الكلاكسونات !! وهنا نزل السفير من سيارته وتوجه إلى عمال جمع القمامة راجيا أياهم أفساح الطريق للمرور فأجابوه بأنهم سوف يتحركون عندما ينتهون من مهمتهم .. وتبادلوا كلمة من هنا وكلمة من هناك فاذا بعمال جمع القمامة ينزلون ضربا ولكما فى السفير المسكين الذى نقل إلى المستشفى لعلاج كسر فى أنفه .. هذا مثل استثنائى ولا أقول إنه يحدث كل يوم بطبيعة الحال ..لكن ما يحدث كل يوم

ويصدمك أول وصولك إلى أمريكا إلى أن تعتاد طرق الأمريكيين هو كيفية توجيه الكلام ومخاطبة الأجانب أو الزائرين أو الأغراب.. اذا أردت أن تشترى حاجة ما من أحد المحال الكبرى التى تحفل بها نيويورك وتوجهت إلى أحد الباعة تسأله مكان الشىء فإنه سوف ينظر إلى زميله المختص ويخاطبه بصوت ملء الأسماع وملء اسماعك أنت أيضا قائلا له «يافلان ! هلاّ رأيت ما يريد هذا الرجل أو هذه المرأة ؟ Could you See what this man (or this woman wants?!) بدلا من أن يقول ما يريده هذا السيد أو هذه السيدة ؟

This gentle man on this lady wants ?!

كما قد يحدث عادة فى بلدان أوروبا .. لكنها طريقة الأمريكيين، ويجدونها طبيعية وبعيدة عن التكلف..»

ثم إن أحياء كثيرة فى نيويورك ومنها بروكلين ، تضم غالبية من الأمريكيين اليهود (وكثيرا من التجار العرب) ويهود بروكلين خاصة ونيويورك بصفة عامة لا يتكلمون انجليزية أو حتى لهجة أمريكية سليمة واضحة ، بل يتكلمون لهجة بروكلين Brooklyn التى هى خليط غريب من الانجليزية واللغة اليدية yiddish وهى لغة يهود شرق أوروبا عامة وبولندا بصفة خاصة .. واذا ما استمعت إلى يهودى من بروكلين يتكلم Brooklyn Accent لخيل

اليك أنه أجنبى وفد إلى أمريكا حديثا .. حتى لقد سأل بعضهم مرة يهوديا أمريكيا أصيلا من بروكلين من أى بلد فى أوروبا الشرقية جئت الى أمريكا؟ فاجابه الأمريكى محتجا ماذا تقصد؟! أنا أمريكى المولد من بروكلين !!

جملة القول أن نيويورك بحكم كونها «بوابة امريكا» هى أول مايستقبل المهاجرين الأجانب.. وقد يقرر هؤلاء البقاء فى نيويورك وعدم التحرك إلى مدينة أخرى فى داخل الولايات المتحدة.. وهذا مافعله فعلا كثير جدا من اليهود من أوروبا الشرقية ومن الايرلنديين ومن الايطاليين المهاجرين إلى أمريكا فى القرن التاسع عشر..

ومن هنا فإن نسبة كبيرة جدا من سكان نيويورك من هذه الجنسيات الثلاث.. حتى لقد أطلق على سكان نيويورك The thrce"Is" - Inish Italians Israelites اذ إن بها أكبر تجمع من اليهود فى العالم (ثلاثة ملايين يهودى) أكثر من كل سكان اسرائيل كذلك اطلق على نيويورك اسم Jew York ويلاحظ أن منصب عمدة مدينة نيويورك وهو يتم بالانتخاب قد اقتصر غالبا تاريخيا على شخص من هذه الجنسيات الثلاث أى إما إيطالى أو أيرلندى أو يهودى.. وأخيرا جداً انتخب أمريكى أسود عمدة لنيويورك وذلك ايضا نظرا لكثرة عدد الزنوج السود فى المدينة.. لكنها ظاهرة جد حديثة أى ظاهرة بدء الزنوج تنظيم إمكانياتهم وجمع شتات اعدادهم لنيل المزيد من حقوقهم المفقودة ..

أما العمدة السابق ولمدة ثماني سنوات فكان يهوديا.. والسابق له ايضا هكذا .

أما ظاهرة «قلة صبر» هؤلاء من سكان نيويورك وتحفزهم الدائب عند مخالطتهم للغرباء فهى ظاهرة شائعة فى نيويورك وربما فى بعض المدن الكبرى الأخرى فى أمريكا وأوروبا.. ولعل سببها أن الأجنبى عندما وفد الى نيويورك وجد قليلا من الترحيب وقليلا من الصبر فالجميع مشغولون بأمورهم الخاصة ووجد اجواء غريبة قاسية بل موحشة احيانا ومن ثم كان رد فعله محاكاة أهل نيويورك القدامي من حيث نفاد الصبر وقلة التهذيب مع التحفز والاستعداد للدفاع عن النفس ضد أى عدوان حقيقى أو وهمى ومن هنا فان رجل الشارع من سكان نيويورك لا يمثل اجمل أو أرقى مجتمعات الولايات المتحدة بل إن أكثر مجتمعات أمريكا تهذيبا وكرما ولطفا مع الغريب هى البعيدة عن المدن الكبرى وبخاصة عن الساحل الشرقى.. وقد لقيت كرما ولطفا وترحيبا وتهذيبا لدى الكثيرين فى المدن الصغيرة وبخاصة فى وسط وغرب الولايات المتحدة وفى جنوبها .

وصلت نيويورك اذن فى يوليو / اغسطس ٦٠ قبل انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة والتى تبدأ دائما فى يوم الثلاثاء

الثالث من شهر سبتمبر من كل عام.. وكان على رأس وفدنا الدائم لدى الأمم المتحدة انسان رقيق مهذب ذكي ولطيف المعشر هو السفير (المرحوم) عمر لطفى وكان فى صباه قبل تبوئه لهذا المنصب قاضيا فى المحاكم المختلطة. كنا حينذاك فى أيام الوحدة مع سوريا فكان الرجل الثانى فى البعثة هو السفير (السورى) رفيق العشا بصفته مندوبا مناوبا لـ ج.ع.م لدى الأمم المتحدة كما كان هناك مستشار سورى اسمه نجم الدين الرفاعى، أما أنا فكنت أقدم سكرتير أول فى بعثتنا إلى جانب سكرتيرين أول آخرين وسكرتيرين ثوانى وثوالث.. وكان من بين هؤلاء الأخيرين السادة الزملاء المرحوم أحمد صدقى سفير مصر السابق فى باريس ود. محمد شاكر سفير مصر حاليا فى لندن .

وكما هو معلوم فان أهم جهازين للأمم المتحدة فى نيويورك هما الجمعية العامة ومجلس الأمن.. وينضوى تحت لواء الجمعية العامة سبع لجان هى اللجنة الاولى وهى مكلفة باهم المسائل السياسية واللجنة السياسية الخاصة (وهى مكلفة ببعض المسائل السياسية ومنها القضية الفلسطينية) واللجنة الثانية (وهى مكلفة ببحث الشئون الاقتصادية) واللجنة الثالثة (وهى مكلفة بالشئون الاجتماعية والثقافية) واللجنة الرابعة (وهى مكلفة ببحث شئون تصفية الاستعمار والوصاية) واللجنة الخامسة (مكلفة بالشئون

المالية والادارية) وأخيرا اللجنة السادسة (مكلفة ببحث المسائل القانونية) .

أما مجلس الأمن فكان مؤلفا من إحدى عشرة دولة منها . خمسة (أمريكا روسيا بريطانيا فرنسا الصين) تتمتع بعضوية دائمة فى مجلس الأمن باعتبار أن لها مسئولية خاصة فى الحفاظ على الأمن والسلم الدوليين أو إن شئت كانت تحمل مسئولية نواة حكومة عالمية مسئولة عن الأمن والسلام بمساعدة ست دول تنتخب لتمثيل باقى مناطق العالم لمدة سنتين. ولما كانت تلك الحكومة العالمية المصغرة تجربة رائدة جديدة فقد زودت بصمام أمن يمنع انفجارها فى أوائل التجربة، هذا الصمام كان هو فى الفيتو Veto أو حق اعتراض إحدى الدول الخمس ذات العضوية الدائمة على أى قرار يطرح للتصويت أمام مجلس الأمن لاتوافق عليه واحدة من الدول الخمس الكبرى أو تعتبره ضد مصالحها .

وكان المفروض أن تكون قرارات مجلس الأمن التى يقرها المجلس (بافتراض موافقة الدول الخمس الكبرى وأن تنال ثلثى الأصوات أى سبعة أصوات مؤيدة من إحدى عشرة دولة) المفروض أن تكون تلك القرارات بحكم الميثاق ملزمة لجميع أعضاء الأمم المتحدة واجاز الميثاق لمجلس الأمن استعمال سلطات وعقوبات سياسية واقتصادية بل وعسكرية لتنفيذ قراراته وردع المعتدى إن دعت الحاجة ..

أما قرارات الجمعية العامة على عكس قرارات مجلس الأمن - فهى مجرد توصيات تعبر عن آمال وتطلعات وآراء «برلمان الأمم المتحدة» الذى يضم جميع أعضاء المؤسسة..

هذه هى الخطوط العريضة لفلسفة ميثاق الأمم المتحدة، وطريقة العمل بها.. وهى مايمكن تلقيبه ايضا بدبلوماسية الأمم المتحدة ، دبلوماسية المؤتمرات أو الدبلوماسية متعددة الأطراف ..

وتختلف هذه الدبلوماسية عن الدبلوماسية التقليدية أو الثنائية التى تنصب على متابعة العلاقات الثنائية التى تربط دولتين (أو أكثر قليلا) فالدبلوماسية التقليدية (الثنائية) يوكل تنفيذها واداؤها الى السفراء ومساعديهم المقيمين بصفة دائمة فى عاصمة الدولة الأخرى المضيفة.. وتكون مهمتهم توطيد علاقات سفاراتهم برؤساء وبحكام البلد المضيفه وتمهيد الجو لاجراء مفاوضات هادئة بين البلدين لازالة أى خلافات قد تنشب بينهما أو لإرساء دعائم تعاون وطيد فى ميدان من الميادين. ويمكن وصف العلاقات الثنائية التى تمارسها الدبلوماسية الثنائية بأنها تكون عادة علاقات عميقة وهادئة وطويلة النفس بعيدة الأهداف متشعبة الجذور تجرى كلها بعيدا عن الأضواء والعلانية .لأن الدبلوماسية الثنائية ليست فى عجلة من أمرها وليست فى حاجة إلى الإعلان عن خطواتها الهادئة الهادفة ..

أما دبلوماسية المؤتمرات - دبلوماسية الأمم المتحدة وغيرها من المؤتمرات الكبرى فتستلزم نوعا آخر من الدبلوماسيين وطريقة أخرى للعمل. فالمؤتمرات الواسعة : أى مؤتمر ومنها دورات الأمم المتحدة - تنعقد لفترة محددة سلفا ومن ثم فان عنصرى الوقت والسرعة في هذه المؤتمرات من الأهمية بمكان.. كذلك فالهدف من المؤتمرات هو اتفاق المؤتمرين على الاعلان عن نتائج مشاوراتهم واتفاقاتهم فى صورة قرارات وتوصيات يتم اقرارها واعلانها عادة بالتصويت عليها (إلا إذا اتفق سلفا على كتمان نتيجة المشاورات فى بعض المؤتمرات السرية وهو الاستثناء).. ومن ثم فيستلزم فى دبلوماسية المؤتمرات سرعة الحركة والقدرة على اجراء الاتصالات والمشاورات الواسعة مع غالبية المندوبين بخفة وسرعة وبلغات مختلفة وتستلزم شخصية اجتماعية متفتحة غير خجولة تكون قريبة إلى نفوس الآخرين، قادرة على فن صياغة الكلام والقرارات، شخصية تكون ممسكة بزمام فن الخطابة والاقناع ملمة باللغة البرلمانية والارتجال وبالأساليب البرلمانية من مناورات الى الإلمام التام بلوائح الاجراءات، قادرة على القراءة السريعة وعلى استيعاب أهم المشكلات فى لمحات موجزة .

وتقوم الدبلوماسية متعددة الاطراف بالمثل على فن اجراء محالفات سريعة ومؤقتة مع أكبر عدد من وفود الدول الأخرى للاتفاق حول مشروع قرار معين أو لتأييد خطة معينة إلى أن يتم

اقرارها بالاجماع أو بالتصويت عليها.. وحينئذ تنتهى ظروف ومهمة ذلك التحالف المؤقت، وينتقل المندوبون الى بحث قضية أخرى ومشروعات قرارات أخرى والبحث أيضا عن تحالفات جديدة تسندها الى أن ينتهى الفصل فيها وهكذا ..

ومن هنا فإن كثيرين ممن مارسوا الدبلوماسية الثنائية التقليدية لم ينجحوا ولم يرتاحوا الى العمل فى المؤتمرات الدولية وبخاصة فى الأمم المتحدة بجوها المخالف تماما لجو الدبلوماسية الثنائية التقليدية الهادئة العميقة طويلة النفس، وئيدة الخطوات والبعيدة عن الأضواء والضجة والضجيج .

كما أن نجاح بعض الدبلوماسيين فى المحافل والمؤتمرات الدولية لا يضمن بالضرورة تألقهم فى مهام الدبلوماسية الثنائية طويلة النفس والتى تعتمد على الصبر والاناة والهدوء والبعد عن تألق الأضواء .

إلا أننى من المؤمنين بأنه فى عصرنا الحاضر وفى المستقبل المنظور سوف يحتاج العالم الى اللونين من الدبلوماسية إذ لاتكفى واحدة منها محل الأخرى، ولكل مقام مقال ولكل مكان وزمان نوع مختلف من الدبلوماسية .

وقد وجدت عند وصولى إلى نيويورك أن بعض زملائى الأكثر منى حداثة فى ترتيب الأقدميات يتولون مسئولية تمثيل مصر

وحدهم فى اللجان الموكلة اليهم .. فى حين أن المرحوم السفير عمر لطفى اختارنى لأساعده فى اللجنة السياسية الأولى حيث كان يمثل مصر باعتباره رئيس وفدها .. وكنت آمل أن أتولى وحدى مسئولية إحدى اللجان ولو الأقل أهمية - أسوة بزملائى الأقل منى فى الأقدمية .. لكن صديقى وزميلى المرحوم السفير عبدالله العريان أقنعنى بفائدة اسهامى فى تمثيل مصر فى أهم لجنة .. وبالاكتفاء بمساعدة السفير عمر لطفى بها .. لكن مالبث المرحوم عمر لطفى أن أطمأن إلّى وإلى مقدرتى فبات ينيبنى عنه فى القاء الكثير من كلمات وفد مصر فى أهم لجنة سياسية أى فى اللجنة الأولى .. ومالبث أن عهد إلّى بقضايا كاملة أبحثها وأعد كلمة مصر فيها وألقيها نيابةً عنه أمام اللجنة الأولى مثال ذلك فى نزع السلاح .. وكان يعاوننى ويزاملنى فى اللجنة الأولى الزميل «السكرتير الثالث» أحمد صدقى (تولى منصب سفير مصر بباريس) .

وحين حلّ موعد انعقاد دوْرَة الجمعية العامة فى سبتمبر ١٩٦٠ قرر رؤساء دول كثيرة حضور الدورة وإلقاء كلمات بلادهم أمام الجمعية العامة .. وكان منهم الرؤساء عبدالناصر ونهرو وكاسترو وتيتو .. بل وخروشوف نفسه .. وكانت تلك الدورة بما أتت به من مفاجات ومن رجالات العالم أجمع خير مدرسة للدبلوماسيين

المبتدئين بل والمحنكين .. فقد أتاحت لنا مراقبتهم عن كثب أثناء جلوسهم فى مقاعد وفدهم وفى مشاوراتهم ، وأثناء إلقائهم كلماتهم وأحيانا فى ومضات ولمحات سريعة حين يكونون قد أرخوا عن وجوههم اقنعتهم الرسـمية وأظهروا حقيقة مشاعرهم وأخلاقهم ..

وقد أسعدنى الحظ أن أكون فى قاعة الجمعية العامة فى تلك الجلسة التاريخية التى أثمرت القرار الخاص بتصفية الاستعمار ، وحين جلس خروشوف فى مقعد رئيس وفد بلاده ليستمع إلى بعض الخطب اذا به ينفعل لما سمع فيضرب بقبضة يده المائدة أمامه علامة الاحتجاج فلما قلده جروميكو وبعض أعضاء وفود الدول الاشتراكية فى إيقاع سيمفونى متسع إذا بخروشوف تأخذه الجلالة لما أتاه فيخلع حذاءه (كان عبارة عن صندل بنى اللون مقفل من الأمام) ويضرب به المائدة ، وسط ضجيج القاعة وضحك الكثيرين واستمرار دق الكثيرين للموائد بأيديهم ، وسط دهشة الجميع المتزايدة .. أما خروشوف نفسه فكان ينظر حوله مبتسما سعيداً بما أتاه ..

كانت تلك دورة من أهم دورات الأمم المتحدة قاطبة.. كانت الدورة الفاصلة التى آذنت بمغيب شمس الاستعمار وبنوال أكثر من عشرين دولة أفريقية لاستقلالها دفعة واحدة وبدخولها عضويّة

الأمم المتحدة.. ويتغير موازين القوى الفعلية داخل تلك المؤسسة.. وكان مندوبو نيجيريا والسنغال ومالى وغينيا وغيرهم يتيهون عجبا بأزيائهم الوطنية وألوانها الزاهية وهم محط أنظار الجميع، وكانوا يحسون بذلك ويزدادون فيها .

وجاء أحد زعماء قبائل نيجيريا عضوا فى وفد نيجيريا وكان اسمه جاجا واتشوكو وكان يمثلها فى اللجنة الثالثة (المسائل الاجتماعية والثقافية) وكان لطيفا ذكيا لبقا يتيه بنفسه عجبا.. وفى اللجنة الثالثة نوقشت قضايا حقوق المرأة واذا بمندوب أحد الوفود الأوروبية يتهم دول افريقيا بسلب حقوق المرأة وأنها تعامل معاملة العبيد Slaves وإذا بجاجا واتشوكو يأخذ الكلمة ويجيب عن تلك التهمة واصفا المرأة الأفريقية She may be a Slave by day, but she is a queen by night !!

وإذا بالقاعة كلها تضج ضحكا وتصفيقا وإذا بجاجا واتشوكو يصبح حديث الجميع ومحبوب الجميع.. وزاد بنفسه تيها وعجبا!!

أما تأثير اقتحام أكثر من عشرين دولة افريقية مرة واحدة عضوية الأمم المتحدة فلم يلبث أن ظهر للجميع ولم يقف السيل بعد ذلك بل ظل مستمرا الى أن وصلت عضوية الدول الأفريقية الى أكثر من خمسة وثلاثين (بل خمسين دولة حاليا) وأصبحت تشكل أكبر مجموعة داخل الأمم المتحدة .

كانت عضوية مجلس الأمن إحدى عشرة دولة منها الدول الخمس الدائمة العضوية (أمريكا - روسيا - الصين - فرنسا - بريطانيا) بالإضافة إلى ست أعضاء يمثلون بقية انحاء العالم ينتخبون لمدة سنتين وكان لافريقيا مقعدان فقط من هؤلاء.. لكن افريقيا مالبثت ان طالبت بزيادة مقاعدها نظرا لزيادة عدد اعضاء المجموعة الأفريقية.. مما أضطر الأمم المتحدة إلى إعادة النظر.. فاصبحت عضوية مجلس الأمن ١٥ عضوا منها عشرة مقاعد للدول غير الدائمة نالت افريقيا منها ثلاثة مقاعد - وبهذا اختل التوازن السابق داخل المجلس ولم تعد للولايات المتحدة مثلما كان الحال فى الماضى أغلبية عددية من الدول الصديقة تضمن لها وقف مرور أى قرار بفضل الغالبية العددية القديمة (٧ من ١١) إذ أصبحت الغالبية العددية الجديدة (٩ من ١٥) وهى لم تعد سهلة التحقيق لامريكا.. وبعد أن كان الاتحاد السوفييتي هو الذى يضطر لاستعمال الفيتو لايقاف مرور القرارات التى لاتضمن مصالحه واشتهر عنه كثرة استعمال الفيتو حتى لقد لقب فيشنسكي ومن بعده جروميكو بمستر Niet (مستر لا) اصبحت الولايات المتحدة وبريطانيا هما اللتان تلجآن لاستعمال الفيتو.. وبخاصة فى مسائل تصفية الاستعمار وادانة جنوب أفريقيا العنصرية والمطالبة بفرض العقوبات عليها وادانة سياسات

اسرائيل القمعية التى كان يقف فيها العالم الثالث إلى جانب الاتحاد السوفييتى. ووجد العالم الثالث فيها نفسه فى مقعد المواجهة الصريحة لسياسات الولايات المتحدة وحلفائها أحيانا ..

ومن هنا بدأت الدول الكبرى تعفى نفسها من حرج استعمال الفيتو - قدر الامكان - بعدم عرض المسائل الشائكة أما مجلس الأمن حيث لن تجد الحل. وهنا بدأت تقل أهمية دور مجلس الأمن. أما إذا طرحت تلك المسائل امام الجمعية العامة (برلمان الأمم المتحدة وضمير العالم اجمع حيث لا يوجد حق الفيتو) فالسائد أن الاتحاد السوفييتى كان يقف إلى جانب دول العالم الثالث فى قضايا تصفية الاستعمار وإدانة جنوب افريقيا وفرض العقوبات عليها وادانة سياسات اسرائيل القمعية وكذلك من قضايا النظام الاقتصادى العالمى الجديد وحقوق الدول الصغيرة.. فكانت الجمعية العامة تخرج سيلا متواصلا من القرارات التى كانت ترضى الاتحاد السوفييتى والعالم الثالث، ولا ترضى الولايات المتحدة وبعض حلفائها.. فكان الأخيرون يجدون انفسهم دائما فى موقف العزلة ومضطرين الى الاعتراض أو الامتناع عن التصويت على قضايا كان الغالبية العظمى من أعضاء الجمعية العامة تؤيدها بشده .. (١)

---

(١) لا تملك الدول الكبرى حق الفيتو ووقف اصدار القرارات فى الجمعية العامة حتى وإن اعترضت الدول الكبرى على قرارات الجمعية .

ومن هنا تحاشت الولايات المتحدة ايضا عرض بعض القضايا الحساسة والساخنة لا على مجلس الأمن بل حتى أمام الجمعية العامة.. ومن ذلك قضايا فيتنام، ومسائل ازالة الصواريخ النووية واتفاقات Salt بين العملاقين وهكذا ..

وكما سبقت الاشارة فان الفارق بين القرارات التى تصدر عن مجلس الأمن والجمعية العامة حسب مفهوم ميثاق الأمم المتحدة - أن الأولى لها صفة الإلزام على جميع الاعضاء فى حين أن الثانية لها صفة التوصيات وحسب.. ومالبثت أن بعدت الشقة كثيرا مابين كثرة عدد قرارات الجمعية العامة التى تسندها اغلبية من دول العالم الثالث رغم معارضة الولايات المتحدة وبعض حلفائها، وبين قلة عدد القرارات التى عرضت فى مجلس الأمن والتى نالت فيتو أمريكى أو بريطانى اذ وقفنا ضد رغبات دول العالم الثالث. بعدت الشقة مابين قرارات للجمعية العامة ضمير العالم الثالث ومابين مجلس الأمن الذى أصابه الشلل [١] بسبب الحرب الباردة وغزو دول العالم الثالث للمنظمة فعجز عن اداء دوره وفقا للميثاق كالجهاز المسئول عن أمن واستقرار العالم..

ومن هنا بدأت الأمم المتحدة مع الاسف تفقد الكثير من مصداقيتها بعد أن فقدت فعاليتها الى حد كبير.. ولم تستطع وقف

---

(١) بدأ مجلس الأمن يسترد فاعليته بعد انتهاء الحرب الباردة .

سلسلة من الحروب الصغيرة بين دول العالم الثالث بل بعض الشطحات والنزوات العسكرية التى قامت بها بعض الدول الكبرى ذاتها والمفروض انها هى المسئولة عن الحفاظ عن السلم والأمن العالميين ..

إلا أنه من بين المسائل التى طرحت والتى تطرح كل عام أمام اللجنة السياسية الأولى قضايا نزع السلاح وتقرير مؤتمر لجنة نزع السلاح فى جنيف.. وكنت مكلفا بحكم موقعى كمساعد للسفير عمر لطفى فى اللجنة الأولى بمتابعة قضايا نزع السلاح.. وقد تم فى مارس ٦٢ تشكيل الجمعية العامة للأمم المتحدة للجنة من ثمانى عشرة دولة منها مصر لبحث قضايا نزع السلاح فى مؤتمر يعقد فى جنيف وتكليف لجنة نزع السلاح هذه بتقديم تقرير دورى عن تقدم اعمالها الى الجمعية العامة كل سنة ..

كانت مفاوضات نزع السلاح قبل سنة ٦٢ مقصورة على القطبين الكبيرين، ثم ضمّا اليهما بعد ذلك بعض اعضاء حلف وارسو وحلف الاطلسى.. وكانت دبلوماسية نزع السلاح تنحصر فى المقام الأول فى محاولة كل طرف إدانة خصمه والقاء تبعة عدم تقدم المفاوضات على هذا الخصم.. وقد لامتهما على ذلك تقارير الجمعية العامة وانحت على القطبين باللائمة لعدم إحرازهما أى تقدم.. فوجدا مخرجا لهما أن يضما إلى مائدة المفاوضات ثمانى

دول حيادية لا تنتمي إلى حلف وارسو والاطلسي حتى يثبتا حسن نيتهما، وقد ظن كل طرف أنه يستطيع احراج خصمه وألقاء اللوم عليه في حضور شهود العيان، الدول الثماني غير المنحازة.. وكانت منها مصر .

وتقرر بدء أعمال لجنة الثماني عشرة (خمس من الشرق وخمس من الغرب وثماني دول حيادية) في مارس ٦٢ في جنيف في مقر الأمم المتحدة الأوروبي وفي نفس قاعة مجلس الأمن التابع لعصبة الأمم المنحلة !

ولما كنت مكلفا بشئون نزع السلاح في وفدنا في نيويورك فقد قررت الوزارة ندبي كمستشار لوفد مصر في لجنة الثماني عشرة لنزع السلاح إبان عملها في جنيف.. وكلفت بالسفر الى جنيف بدءا من مارس ٦٢ .

كان هذا القرار نيشانا علي صدري ومصدر افتخار لي.. فقد كان رئيس وفد مصر لافتتاح ذلك المؤتمر الدكتور محمود فوزي وزير خارجيتنا حينئذ.. وكان اختياري اعترافا من الوزارة بجهودي السابقة وبإتقاني لعملي ..

وبقدر مارحبت بتلك الفرصة إلا أني اسفت أشد الأسف لاضطراري الى تعطيل دراساتي في جامعة كولومبيا الشهيرة في نيويورك حيث كنت قد قيدت نفسي منذ وصولي سنة ٦٠ للحصول

على الدكتوراة فى العلوم السياسية.. وكنت أسرع لحضور المحاضرات فى جامعة كولومبيا فى ساعات الغداء. مابين جلسات الأمم المتحدة أى مابين الواحدة والثالثة ظهرا، كما كنت أجلس فى منزلى ساعات طويلة أثناء الليل منكبا على دراساتى للدكتوراة بعد أن أكون قد انتهيت من تصفية دراساتى واعمالى الخاصة بالأمم المتحدة ومن قراءة اكداس الوثائق التى يفترض أن يقرأها كل يوم من يعمل فى الأمم المتحدة. وكنت فى بحر تلك السنتين قد انتهيت فعلا وبسرعة لم أكن أتوقعها من إنهاء جميع دراسات ومستلزمات الدكتوراة من دراسة المواد اللازمة، كما اجتزت بنجاح امتحان اللغتين الأجنبيتين اللازمتين للدكتوراة (وكانت الفرنسية والأسبانية بالنسبة لى) إلى جانب الامتحان النهائى الشامل Comprehen-sive ولم يكن أمامى فى تلك الآونة سوى كتابة رسالة الدكتوراة ..

كنت أمثل مصر أمام اللجنة الأولى فى كثير من المسائل اسندها الىّ السفير عمر لطفى.. وكان الجميع يعاملنى بالاحترام الواجب نحو ممثل دولته.. ولما كنت آخذ الكلمة كان رئيس اللجنة يخاطبنى قائلا The honourable delegate of Egypt لكن مابين الواحدة والثالثة ظهرا كنت اجلس كتلميذ أمام أساتذتى فى جامعة كولومبيا حيث كان اساتذتي ينادوننى بمجرد اسم Ahmed ويعاملوننى كأحد الطلبة طبعا.. ثم أعود لمباشرة عملى

الدبلوماسى أمام اللجنة فى الثالثة بعد الظهر لأستعيد لقب «مندوب مصر المحترم» وكنت اقطع المسافة مابين مقر الأمم المتحدة وجامعة كولومبيا، وبينهما مسافة عشرة كيلومترات وضرورة عبور مانهاتان بالعرض، كنت اقطعها ذهابا وايابا وأنا أسابق الزمن.. واستمر هذا الكفاح طوال عامين.. والآن يتعين على أن اتوجه الى جنيف ربما لشهور طويلة كمستشار لوفد مصر فى نزع السلاح، لكن سـفرى إلى جنيف سوف يؤخر ولا شك تقدمى نحو الدكتوراة ..

ومع ذلك فقد كنا - زوجتى وانا - متطلعين للسفر الى جنيف، ومتطلعين ايضا للعودة منها لاستمرار ذلك الجهد الذى بدأته منذ سنة ١٩٦٠ .



نزع السلاح .. علي ضفاف بحيرة ليمان Lac Léman أو بحيرة جنيف

لماذا اختيرت جنيف مقرا لمباحثات نزع السلاح بدءاً من سنة ٦٢ والسنين التالية؟ جنيف مدينة سويسرية وسويسرا دولة تمارس الحياد الدائم المعترف به قانونيا ودوليا كما انها تتوسط اوروبا أى انها تتوسط ايضا المسافة مابين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة. وقد اقترن اسم سويسرا ومدينة لوكارنو بالذات منذ قيام عصبة الأمم بمباحثات تحديد التسلح (ولم يكن العالم قد عرف بعد فكرة نزع السلاح الكامل الشامل) حيث ابرمت فيها عدة اتفاقيات لمنع نشوب الحرب منها اتفاقية بريان - كيلوج سنة ١٩٢٨ لتحديد تسلح بعض الدول فى ميادين الأسلحة البحرية والأرضية والجوية .

أضف إلى هذا أن مقر عصبة الأمم القديم فى جنيف مازال قائما وأصبح مقر الأمم المتحدة «الأوروبى» وفيه تجرى المباحثات الفنية الطابع (من اقتصادية إلى اجتماعية إلى انسانية وقانونية).. ولما كان موضوع نزع السلاح من المسائل الفنية فكان طبيعيا أن تجرى مباحثاته فى المقر الأوروبى للامم المتحدة.. وفيه كل الاستعدادات الفنية من سكرتارية مختصة ومترجمين وكتبة وما إلى ذلك.. هذا وتقضى كثير من الدواعى السياسية والفنية والإدارية ، بعدم تكديس نشاطات الأمم المتحدة كلها فى نيويورك بل توزيعها قدر الإمكان مابين نيويورك والمقر الأوروبى فى جنيف.. بل لقد انشىء مقر أوروبى ثان فى فينا فيما بعد ..

أما جنيف فهى مدينة أنيقة تعدادها ٢٥٠ ألف نسمة فقط جوها معتدل صيفا شديد البرودة شتاء - وتقع على بحيرة جنيف أو بحيرة ليمان Lac Leman ذات المناظر الخلابة وهى أكبر وأهم مدينة فى سويسرا الناطقة بالفرنسية. والمعلوم أن سويسرا تسكنها شعوب تتكلم الألمانية (بلهجة سويسرية يسمونها سويتزر دويش) والفرنسية بلهجة سويسرية ايضا، والايطالية فى جنوب سويسرا فى منطقة Tecino ، واخيرا لغة قديمة اسمها رومانش. وأهم مدن المنطقة الألمانية فى سويسرا زيوريخ وبون عاصمة سويسرا وبال أو بازل ، أما المنطقة الفرنسية فأهم مدنها جنيف ولوزان ومونتريه وفريبورج، والمنطقة الايطالية وأهم مدنها لوجانو

ولوكارنو. وتعداد سويسرا كلها لا يتعدى السبعة ملايين نسمة.. وهى دولة فيدرالية تنقسم الى ٢١ كانتون Cantons أو مقاطعة لكل منها سيادته الداخلية ودستوره الخاص ويحكم سويسرا المجلس الفيدرالى وتكون رئاسة المجلس ورئاسة الدولة بالتناوب بين اعضائه ويمكن لأى مائة ألف مواطن سويسرى طلب اجراء الحكومة لاستفتاء حول شأن من الشئون العامة اذا جمعوا توقيعات مائة الف مواطن ..

وسويسرا تتوسط اوروبا تماما بدليل تركيبة شعبها سالفة الذكر، ورغم أن تعدادها صغير إلا أنها تتمتع بكثافة سكانية كبيرة نظرا لصغر حجمها (٤١ الف كيلو متر مربع فقط) ونظرا لكثرة الجبال والبحيرات فى هذه الرقعة الصغيرة. ومع ذلك فان اشعاع سويسرا واهميتها تجاوزت حدود سويسرا كثيرا.. فهى دولة قد اختارت بحكم دستورها الحياد الدائم فكان منجاة لها فى حروب أوروبا المتكررة كما كان أساس استقرارها وتقدمها العلمى والصناعى والسياحى بل والمالى ايضا.. فقد اجتذبت اليها رءوس الأموال من مختلف أركان العالم بفضل استقرار مؤسساتها السياسية والاقتصـادية وبفضل السرية التـامة التى تتمتع بها رءوس أموال المودعين فى بنوك سويسرا.. أضف إلى هذا أنها كانت مقرا لعصبة الأمم ومازالت مقرا للمقر الأوروبى للأمم المتحدة واقترن اسم سويسرا بالحياد الرسمى الفعلى فى

السياسة الدولية حتى أنها رفضت وترفض إلى الآن الانضمام إلى عضوية الأمم المتحدة خشية المساس بحيادها، وبالطبع لم تنضم الى أى تحالف سياسى أو عسكرى أوروبى لا شرقى ولا غربى ..

وتحتل جبال الألب ٦٠٪ من رقعة سويسرا بالاضافة الى تعدد البحيرات ذات المناظر والاحجام المختلفة مما منحها نعمة الجو الطيب والمناظر الطبيعية الخلابة حتى أنه يتردد دائما أن سويسرا عبارة عن كارت بوستال (بطاقة بريدية مصورة جميلة) أو أنها بونبونييرة Bonboniére (علبة حلوى).. ولا غرو فهى بلد الألبان الطيبة وصناعات الألبان والشيكولاتة النسلة Nestlé الفاخرة (١) ، وبلد مساقط المياه والشلالات الكثيرة ومن ثم فان الصناعات الكهربائية والصناعات الدقيقة التى تعتمد على المهارة والعمالة المتطورة الدقيقة مثل صناعة الساعات والكيماويات هى الصناعات الغالبة فى سويسرا .

إلى جانب صناعة السياحة.. فان سويسرا من أهم بلاد العالم السياحية بفضل جمال طبيعتها ولطف جوها والنظافة التامة والأمن المستتب والخدمة السياحية الفائقة العناية والاستقرار السياسى والاقتصادى .. ووقوعها وسط اوروبا تماما .

ففى الشتاء حين تغطى الثلوج جبال سـويسـرا يغـرقها آلاف

---

(١) النسلة والسوشار, Lindt و Suchard أهم أنواع الشيكولاتة فى سويسرا .

السياح « المحبين لرياضات التزحلق على الجليد» والمعيشة فوق الجبال أى فوق مستوى السحاب مستمتعين بالشمس الدافئة فوق الثلوج.. وفى الصيف حين يسود الطقس المعتدل المنعش تكون سويسرا مهبطا لمئات الآلاف من السياح للاستمتاع بجمال مدنها أو هربا من حرارة اجواء البلاد الدافئة الأوروبية الآخرى المحيطة بسويسرا ..

ومن محاسن سويسرا اجادة أهلها اجادة وصلت بهم الى حد الاحتراف، لفنون الضيافة السياحية .. حتى فى اصغر الفنادق فبغض النظر عن مستوى الفندق أو البنسيون الذى اخترته لنفسك، ستجد مستوى النظافة يفوق أى دولة أوروبية أخرى، وسوف تجد المأكل المتقن الطيب حتى فى أصغر المطاعم أو أرخصها، وسوف تجد المعاملة الطيبة المؤدبة من جميع أصحاب الفنادق والمطاعم والمتاجر بحكم العادة، وبحكم الاحتراف الشديد والاهتمام الشديد بالسائح. ويشتهر عن السويسريين ترديدهم دائما عند استقبال أو وداع الزبائن حتى إذا لم يشتروا شيئا بل دخلوا وخرجوا دون اجراء أى معاملة مالية، يشتهر عنهم ترحيبهم بهم قائلين Bonjour Monsieur, Dame

ووداعهم عند خروجهم !!Merci, Monsieur, Dame

يقول البعض إن السويسريين تنقصهم خفة الدم والحرارة الطبيعية الموجودة فى اخلاق الايطاليين أو اليونانيين مثلا وانهم

يتكلفون هذا الأدب المصطنع.. لكنى أرى غير ذلك وأرى أن مجرد اظهار الأدب والترحيب والمعاملة الطيبة فى حد ذاتها هى كل المراد والمرتجى بغض النظر عما إذا كان أدبا مصطنعا أم لا.. فهو أفضل ألف مرة من قلة الذوق والخشونة التى يلقاها الأجانب فى معاملاتهم مع افراد بعض الشعوب الأوروبية الأخرى أو الأمريكية التى تشتهر بخفة الدم والحرارة.. فالسائح عند السويسرى مصدر رزقه وضمان رخائه ومستوى معيشته المرتفع لأن ميزان التجارة الخارجية السويسرى فى اختلال دائم. إذ إنها تستورد أكثر مما تصدر ولا يصلح من شأنه الا الدخل الكبير الذى يعود على سويسرا من الخدمات المصرفية والسياحية وهكذا ظلت عملة سويسرا أقوى العملات العالمية وانخفض معدل البطالة والتضخم النقدى .

أضف إلى هذا أن تركيبة الشعب السويسرى من عناصر مختلفة بروتستانتية وكاثوليكية المانية وفرنسية وايطالية أدت إلى خروج هذا الشعب بعد محن وحروب خارجية وأهلية، بفلسفة وتجربة من شأنها تعميق وترسيخ فضائل التسامح والانسانية فى عناصر هذا الشعب المختلفة المتآلفة رغم خلافاتها.

ومع هذا فان هناك نوعا آخر من «التعصب» يميز أخلاق وتصرفات السويسرى.. ألا وهو التعصب الشديد للنظافة واحترام

القانون واحترام حقوق الآخرين! فاذا رأى سويسرى أجنبيا [1] يلقى ببعض المهملات (علبة سجائر فارغة مثلا) في الطريق العام لاستوقفه ولفت نظره إلى وجوب اعادة التقاط ما ألقى به فى الشارع ليضعه فى سلة المهملات.. وإذا رأى أحد المارة من السويسريين اجنبيا يوقف سيارته ليتركها فى مكان غير قانونى على جانب الطريق للفت نظره إلى عدم قانونية ذلك ثم إذا لم يستمع الأجنبى لنصحه لذهب السويسرى الى رجل البوليس ليأتى به لمعاقبة السيارة المخالفة ! وكثيرا ماستمعت إلى أصدقائى من المصريين والأجانب يبدون دهشتهم لأن بعض مدن المقاطعات السويسرية تمنع سكان العمارات بها من استعمال الحمامات والمرافق الشبيه بعد العاشرة مساء لعدم ازعاج جيرانهم (فمعروف أن السويسرى يأوى لفراشه مبكرا ويستيقظ ليستأنف نشاطه مبكرا صباح اليوم التالى) .

مع ذلك فيجدر التنويه بأن السويسريين وإن اتفقوا فيما بينهم بصفة عامة على عادات ومثل مشتركة إلا أن اخلاقهم وانواقهم تختلف من مقاطعة أو منطقة لأخرى. فالسويسرى الألماني يشبه الى حد ما فى ميوله ومأكله ومشربه الشعب الألمانى، والسويسرى الايطالى فى منطقة تسينو فى جنوب سويسرا يشبه الى حد ما

---

(١) اقول اجنبيا لأن السويسرى لا يلقى بأى مهملات فى الطريق العام !!

الايطاليين فى الشراب والطعام وأما سكان المنطقة الفرنسية فى سويسرا فهم أقرب إلى الفرنسيين أهل شمال سافوا القريبة الملاصقة.. إلا أن السويسريين بصفة عامة يتميزون عن كل هذه الشعوب بزيادة الضبط والربط واحترام القوانين والنظافة والالتزام التام بالأصول المرعية وبمستوى المعيشة الأكثر ارتفاعا طبعا .

وصلنا اذن الى جنيف في مارس ٦٢ واخترنا فندقا يطل على بحيرة ليمان هو فندق انجلترا وبدلا من اقامتنا شهرين أو ثلاثة فى جنيف كما كنا نتوقع استمرت اقامتنا ستة شهور كاملة عشناها فى غرفتنا فى ذلك الفندق فقد كنا «معلقين» مابين نيويورك مقر عملى الرسمى الذى احتفظت فيه بشقتى وسيارتى وجميع ملابسي، وبين جنيف التى أعمل بها منتدبا من نيويورك «لمدة شهرين فقط» حسب التعليمات التى تلقيتها !!

ولم نكن نعرف اننا سنمكث ستة شهور فى دورة مؤتمر نزع السلاح الأولى ، كما لم نكن نعرف اننا سنعود الى جنيف من نيويورك مرة ثانية – منتدبين ايضا – لحضور دورة مؤتمر نزع السلاح التالية لكى نمكث بجنيف ، في نفس الفندق، تسعة شهور كاملة أخرى.. أى أن المدة التى عشناها فى جنيف استغرقت خمسة عشر شهرا تخللتها عودتنا الى نيويورك لقضاء ثلاثة شهور بها لحضور انعقاد الجمعية العامة ثم العودة إلى جنيف .

وهكذا اتيح لنا الانتقال فى عطلات نهاية الاسبوع واجازات المؤتمر الرسمية لزيارة مختلف معالم سويسرا السياحية والعمرانية.. ومن ميزات جنيف أنها تقع على حدود فرنسا (سافوا العليا) ويمكن لأهل جنيف العبور بالترام الى مدينة آن ماس الفرنسية كما يمكنهم بسياراتهم قضاء يوم عطلة فى مدينتى ميچيف وشامونيكس فى الألب الفرنسية أو مدينة annecy حول البحيرة الجميلة المعروفة بنفس الأسم ..

أما أثناء انتقالاتنا حول جنيف فى الفترة الأولى فلم نكن نملك سيارة فكنا ننتقل بالقطارات السويسرية وهى مثل الساعات السويسرية لا تقدم ولا تؤخر فى الوقت وتتميز بالراحة والنظافة. وقد لاحظ موظف الفندق الذى كنا ننزل به وكنا نكلفه بحجز تذاكر القطارات لنا أننا كنا نسافر وننتقل فى القطارات فى الدرجة الأولى وسألنا ذات مرة لماذا تصرون على السفر بالدرجة الأولى، هل انتم مليونيرات؟ فاجبناه بالقطع لا فقال اذن اسمح لى أن أحجز لك تذاكرك بالدرجة الثانية كما يفعل كل السويسريين فسوف لا تجد فارقا بين الدرجتين يستأهل فارق الثمن الكبير .. وهكذا صرنا ننتقل فى عربات الدرجة الثانية فى سويسرا وهى نظيفة جدا ومريحة جدا. والشعب السويسرى بحكم ادبه والتزامه باحترام حقوق الآخرين لم يكن يسبب لنا أو غيرنا آية مضايقات..

لكن ذات مرة اردنا أن نأخذ القطار إلى مدينة ميلانو فى شمال إيطاليا وكان هذا يستلزم عبور القطار بنا عبر الحدود الايطالية السويسرية وما أن وصلنا إلى أول محطة داخل ايطاليا - وكنا فى عربات الدرجة الثانية كما نصحنا صديقنا السويسرى - الا وحدث هجوم الايطاليين متدافعين متناكبين داخل العربات وحدث الهرج والمرج والصياح والتهريج على الطريقة الايطالية.. ثم استأنف القطار مسيره وبدأ الركاب الايطاليون يفتحون حقائبهم أو اللفافات التى يحملونها ويخرجون منها سندويتشات السلامى والمورتاديلا والجبن الايطالى والسردين وكل ماهو ايطالى نو رائحة قوية نفاذة واخذوا يأكلون بل ويعرضون علينا أن نشاطرهم بعض ما كانوا يحملون من طعام .. لاحظنا الفرق الكبير بين الجمهور الايطالى ومثيله السويسرى الذى يسافر بالدرجة الثانية.. وفى عودتنا الى جنيف اشترينا راحتنا واطمئناننا بدفع الفارق مابين الدرجة الثانية والأولى ففى سويسرا يمكنك السفر بالدرجة الثانية دون خطر الوقوع بين سندوتشات السردين والسلامى.. لكن فى ايطاليا سوف تجد شعبا لطيف المعشر حار المزاج كثير الضحك والنكات مثله فى ذلك مثل الشعب المصرى.. وأقل التزاما ونظاما طبعا من السويسريين ..

من أجمل نزهات سويسرا ركوب البواخر الكثيرة والحديثة التى

تجوب بك أغلب بحيرات سويسرا وهى تعد بالعشرات .. وهذا ما كنا نفعله على بحيرة ليمان (بحيرة جنيف) وهى من أمتع النزهات التى يمكن لانسان الاستمتاع بها . ولابد لك من زيارة Ouchi ولوزان ومونترية Montreux وافيان و Hermance وكلها مدن جميلة رائعة حول البحيرة .. وإذا كنت فى سويسرا فلابد لك من تجربة ركوب الـ Funiculaire والـ Coble cars إلى مراكز التزحلق على الجليد شتاء امثال Gstadt وسان موريتز وفيلار أو إلى قمة من قمم سويسرا الشهيرة أو لمجرد الصعود إلى مدينة من مدنها الجميلة المعلقة فوق الجبال فهى تجربة فريدة وليس بها شيء من المخاطرة. وعادة يكون ذلك باحدى وسيلتين إما بركوب قاطرة متسلقة تسير على قضبان لكن يجرها حبل من الفولاذ الى أعلى لتستطيع أن تتسلق المرتفعات العمودية تقريبا Funiculaire وأما بركوب العربة المعلقة Téléferique Cable car التى لا تسير على قضبان وإنما تظل معلقة فى الهواء اثناء الصعود والهبوط ويجرها إلى أعلى أو إلى أسفل ثقل العربة الأخرى المقابلة لها . ولما كانت جبال الألب تحتل ستين بالمائة من أراضى سويسرا فيمكنك أن تتخيل عدد مدنها وبحيراتها ومراكزها السياحية التى تعلو الجبال التى يمكنك أن تستعمل فيها العربات المعلقة أو المتسلقة ويمكنك اختيار ما يحلو لك وما يتفق مع حالتك الصحية

وفقا لارتفاع المركز السياحى أو العلاجى الذى تقصده.. فالسويسريون قوم فى منتهى الدقة ويعرفون تماما كم ارتفاع هذه المدينة أو ذاك المركز عن مستوى سطح البحر ..

حضر افتتاح مؤتمر نزع السلاح في ١٣ مارس سنة ٦٢ عدد كبير من وزراء خارجية الدول الثمانى عشرة الاعضاء. وكان على رأس وفد مصر (المرحوم) الدكتور محمود فوزى وزير خارجيتنا الأسبق. وكان يرأس بعثة مصر الدائمة فى المقر الأوروبى بجنيف (المرحوم) السفير عبد الفتاح حسن نائب وزير خارجية مصر السابق.. وكان وفد مصر لدى المؤتمر يضم خبيرا عسكريا وعالما فى الذرة وبعض رجال المخابرات الى جانب الدبلوماسيين وكنت واحداً منهم.. أما وفد الهند فكان يضم كريشنامينون وزير الدفاع الهندى.. وهكذا .

ولما كان الدكتور محمود فوزى بسبيل اعداد خطابه الافتتاحى أمام المؤتمر استدعانى الى غرفته بالفندق الذى كان ينزل فيه لكى اقدم له عرضا سريعا عن أخر ماتوصلت إليه مباحثات نزع السلاح فى نيويورك داخل نطاق الأمم المتحدة.. ففعلنا.. وكنت قد اعددت العدة لاشتراكى فى وفد مصر فى ذلك المؤتمر بدراسة آخر ماصدر من كتب متخصصة فى فروع نزع السلاح فى الولايات المتحدة.. وسوف يدهش القارىء إذا علم أن نزع السلاح فى

الولايات المتحدة وبريطانيا أصبح علما من العلوم وأصبح له كثير من المتخصصين الذين اسهموا فيه بمئـــات الكتب وآلاف المقالات فى المجلات العلمية ومنها مجلات متخصصة فى نزع السلاح ..

إلا أن الدكتور محمود فوزى لم يكن ليسمح للتفاصيل الفنية الدقيقة أن تغرق كلمته الافتتاحية فقد أرادها أن تكون كلمة سياسية ، فلسفية اخلاقية بطبيعة الحال تستحث همم الدول الكبرى المسئولة عن مشكلة التسلح ونزع السلاح.. كذلك فعل وزراء خارجية بقية الدول نفس الشىء فلم يكن الدور قد حل بعد لدراسة المشاكل الفنية المعقدة ..

إلا أنه بعد سفر وزراء الخارجية بعد انقضاء الأسبوع الأول على بدء المؤتمر تولى المرحوم السفير عبد الفتاح حسن كما تولى نظراؤه فى الوفود الأخرى رئاسة وفود بلادهم وهنا حل الدور لبدء المناقشات والدراسات الحقيقية الفنية لمشاكل نزع السلاح وآخر ما وصلت اليه مباحثات الدول قبل بدء المؤتمر.. وهنا ظهرت فائدة الاستمرارية والتخصص والتعمق فى دراسات نزع السلاح التفصيلية ..

وكان رحمه الله السفير عبد الفتاح حسن قائدا عاما للقوات المصرية فى السودان قبل أن يعين نائبا لوزير الخارجية ثم رئيسا لوفد مصر في جنيف [(١)].. كان اداريا حازما كما كان انسانا رقيقا عطوفا وكان يتمتع بذكاء سياسى فطرى. وقد طلب عبد الفتاح حسن إلى جميع أعضاء وفد مصر فى مؤتمر نزع السلاح أن يجلسوا سويا ويتدارسوا فيما بينهم وأن يرفعوا إليه خطة أو مشروع كلمة يلقيها تكون محل اتفاق الجميع، من مستشار عسكرى إلى عالم الذرة إلى مندوبى المخابرات إلى دبلوماسيى وزارة الخارجية.. وقد جلسنا وتدارسنا واستغرقت دراساتنا طويلا واظهرت كل مظاهر وعلامات زيادة فترة الدراسة اللازمة زيادتها عن الوقت المتاح لنا.. فلما كان المساء انصرفنا على أن نجتمع فى اليوم التالى لاستكمال مشاوراتنا.. وكنا حوالى ستة أو سبعة أفراد ولكل منا نظرته وخلفياته وتجاربه المختلفة تماما ..

وفى صباح اليوم التالى طلبت مقابلة السفير عبد الفتاح حسن رئيس وفدنا، وقدمت إليه مشروع كلمة اعددتها وحدى فى مساء البارحة في فندقى بعد أن انفض اجتماعنا.. واخبرته بما حدث وأن مشاوراتنا لم تستكمل بعد ويبدو أنها ستستغرق يوما آخر أو يومين على الأقل .. لا أدرى وفى رأيى أنها لا تبشر بسرعة حلول

(١) عندما توفى عبد الفتاح حسن رحمه الله كان وزيرا لشئون مجلس الأمة .

النهاية وأنى وفقا لخبرتى السابقة فى مباحثات نزع السلاح فى اللجنة الأولى فى نيويورك ووفقا لحصيلة اطلاعاتى الشخصية فى نزع السلاح قد أعددت له مشروع كلمة رأيت أنها تناسب المقام وتوفر الكثير من الوقت والجهد ورجوته أن يطلع عليها إذا شاء أو أن يهملها إذا رأى أنى قد تجاوزت حدى كما يمكنه أن يطرحها للمناقشة أمام بقية الزملاء. فلما فعلت ذلك بدت على وجهه مظاهر عدم الارتياح واخبرنى انه كان يفضل لو أن الكلمة كانت حصيلة مشاورات الجميع.. فأمنت على ماقال واضفت أنى أيضا كنت افضل لو أن اخوانى كانوا قد وافقوا على وجهات نظرى وأن الأمر بيده هو إن شاء اطلع عليها او اهملها تماما ..

وقد استدعانى عبد الفتاح حسن بعد ساعة أو أكثر وقد بدت هذه المرة على وجهه علامات البشاشة والارتياح وقال إنه اطلع على مشروع الكلمة وأنه يراها مناسبة تماما للمقام وأنه سوف يلقيها أمام المؤتمر كما سوف يطلع الزملاء الآخرين عليها قبل ذلك.. وشكرنى .

وهكذا وضعتنى الظروف فى مركز المساعد الفنى لرئيس وفدنا فى مؤتمر نزع السلاح طوال خمسة عشر شهرا مكثتها فى جنيف.. كنت أعد مشروع الكلمات التى ألقاها السفير عبد الفتاح حسن أى أنى اصبحت مايسميه الامريكيون Ghost - Writer

ولكل رئيس جمهورية امريكى GHOST WRITER أى كاتب من وراء الستار أو أكثر. عادة يكون اسم هذا الكاتب الذى يعد خطب رئيس الولايات المتحدة معروفا تماما للصحافة والاعلام ولكل المحيطين بالرئيس.. ولا يجد الرئيس أو اعضاء حكومته أى غضاضة في ذلك ..

فالمفروض أن رئيس الحكومة أو رئيس أى جهاز بحكم مسئولياته الكثيرة المتشعبة ووقته الضيق لا يملك الوقت ولا الاعداد الفنى لكتابة كلماته.. ومن ثم يوكل بهذه المهمة إلى المتخصصين فى فن الكتابة والصياغة فضلا عن المتخصصين في تفاصيل المشاكل الفنية التى سوف يتناولها خطاب الرئيس ..

وكان هذا هو الحال الذى ارتاح إليه السفير عبد الفتاح حسن وارتضيته لنفسى بسرور بالغ.. فكم كانت سعادتى غامرة عندما كان يكلفنى باعداد مشروع كلمة وأعدها فى بحر الليلة التالية واضعها امامه صباح اليوم التالى ويطلع عليها ويتهلل وجهه بشرا وهو يستعد لإلقائها .. وكم كانت سعادتى غامرة حين تلقى كلمات عبد الفتاح حسن اعجاب وتهانى رؤساء الوفود الأخرى !

وكان زملائى اعضاء الوفد على علم بطبيعة الحال بهذا الوضع الجديد وكانوا يرونه طبيعيا فقد كنت اكثرهم تخصصا فى ذلك الفرع واطولهم خبرة به واكثرهم علما بفن الصياغة باللغة الانجليزية بحكم خبراتى وتكوينى ..

ولم يخطر ببالى مرة واحدة أن أخبر أحد اعضاء الوفود الآخرى بالمؤتمر بأنى أضع مشروعات الكلمات التى يلقيها رئيس وفد مصر أمام المؤتمر.. لم يخطر هذا ببالى فقد كنت أراه وضعا طبيعيا لا يستحق التنويه أو الإشارة اليه.. مثلما لم يخطر ببالى أن اسأل زملائى فى الوفود الأخرى عن الكاتب وراء الستار لكلماتهم..

إلا أنه ذات مرة سأل بعض اعضاء الوفد الأمريكى زميلا لى في وفدنا عن شخصية الكاتب وراء الستار لخطب رئيس وفدنا .. ويبدو أن الزميل المصرى لم ير غضاضة أو عيبا فى اخطاره باسمى.. وكان هذا طبيعيا بالمثل ..

وبعد أن ألقى السفير عبد الفتاح حسن خطابه فى إحدى المرات، وكان خطابا اتسم بالمقدرة التحليلية الدقيقة لمواقف الدولتين العظميين واحرج كليهما اذ أظهر مراوغات كل منهما، تقدم رئيس وفد الولايات المتحدة الى السفير عبد الفتاح حسن مهنئا له على الخطاب كما تقدم الى أنا أيضا على مرأى من السفير عبد الفتاح مهنئا على حسن اعدادى لهذا الخطاب !!

ما أن وصلنا الى مقر الوفد الدائم إلا واستدعانى السفير عبد الفتاح حسن وقد بدت على وجهه علامات الأسى والحزن سألنى : لماذا أخطرت الوفد الأمريكى أو غيره من الوفود (بأنى أنا) الذى

أعد مشروعات الكلمات؟ ألم يكن من الواجب الاحتفاظ بذلك السر لوفدنا فقط ؟! وقد أكدت له بكل ماأملك من قوة حجة واقناع بانى لم افعل ذلك وأنى آخر من كان يفشى السر ولم تكن لى أى مصلحة فى ذلك بل على العكس.. وأنى أكثر الناس حرصا على النظام والأمانة وعلى ارضائه هو بالذات.. فلما سألنى عن اسم الزميل الذى أفشى ذلك السر قلت له إنى اشك فى شخص معين لكنى لست متأكدا من ذلك تماما وعلى هذا فقد رجوته اعفائى من ذكر اسمه. ففعل ..

ورغم أن الوزارة كانت قد انتدبتنى من نيويورك إلى جنيف لمدة حددتها بشهرين فقط فقد تمسك السفير عبد الفتاح حسن ببقائى معه فى جنيف طوال فترة تلك الدورة فى المباحثات التى استغرقت ستة شهور كاملة.. ثم عندما انتقل موضوع نزع السلاح الى الجمعية العامة فى نيويورك لمناقشة نتائج مؤتمر جنيف اختارته الوزارة ليرأس وفدنا عند نظر الجمعية العامة لذلك الموضوع فرافقته الى نيويورك عائدا إلى مقر عملى الأصلى بها. وفى نيويورك وجدت أنى رقيت الى درجة المستشار بالاختيار. ثم استأنف مؤتمر نزع السلاح فى جنيف بحثه للموضوع فى دوراته التالية من فبراير ٦٣ إلى ديسمبر ٦٣ فصمم عبد الفتاح حسن على إعادة ندبى إلى جنيف حيث امضيت تسعة شهور كاملة فى

نفس الوظيفة السالفة أى «الكاتب من وراء الستار» للكلمات التى ألقاها هو ورؤساء الوفد من بعده أمام المؤتمر.. ولم تنته مهمتى هذه إلا بانقضاء مدة عملي في وفدنا فى نيويورك فنقلت الى ديوان الوزارة بالقاهرة .

وقد بقيت فى جنيف فى ذلك الوقت طوال الخمسة عشر شهرا سالفة الذكر فى حين تبادل زملاء آخرون الذهاب والمجىء من حولى.. كما انه اثناء اجازات السفير عبد الفتاح حسن في مصر تبادل رئاسة الوفد بدلا منه كل من المرحوم السفير محمد حسن الزيات (ووزير الخارجية فيما بعد) والسفير محمد حافظ اسماعيل (مستشار الأمن القومى فيما بعد) وظللت أنا فى نفس الموقع مع كل منهما ايضا.. إلا أن لكل منهما طريقته المختلفة فالدكتور الزيات رحمه الله يكلف مساعديه باعداد مشروع كلمة ما، ثم يستوعب مافيه ويغيره تماما مضفيا عليه شخصيته وفلسفته الخاصة ويعيد كتابته مرة واثنتين وثلاث مرات أو أكثر ويظل يدخل عليه التحسينات بالقلم الرصاص الى لحظة إلقائه أمام المؤتمر.. أما حافظ اسماعيل فمثال الانتظام والحزم والحسم.. ويعلم مايريد منذ البداية ويستقر عليه دون انحناء أو انثناء ومع ذلك فقد قامت بينهما الأثنين زمالة وصداقة متينة منذ أن عملا سويا فى سفارتنا فى واشنطن فى أوائل الخمسينات كما سبق أن ذكرت ..

جمعتنا إذن عبد الفتاح حسن وأنا صداقة عمل وزمالة طيبة واعجاب متبادل فكنت أعجب بذكائه السياسى الفطرى وبدماثة خلقه وكرمه واعتزازه بكرامته كما انه اعجب فيما يبدو بمقدرتى على الصياغة بالانجليزية وبإلمامى التام - ذلك الوقت - بتفاصيل ودقائق مشاكل نزع السلاح وتفاصيل مواقف البلاد المختلفة.. وظلت هذه الصداقة العميقة الجذور تجمع بيننا الى أن وافته المنية وكان وزيرا لشئون مجلس الأمة فى ذلك الوقت ..

إلا أنه عندما كان وزيرا لمجلس الأمة جاءته دعوة شخصية لحضور مؤتمر لنزع السـلاح ضم شخصيات كبيرة دولية مختلفة - وليس حكومات - عقد فى سكاربور Scarborough فى كندا قرب تورنتو وقد اعتذر لضيق وقته الا انه رشحنى للمؤتمر بدلا منه وفعلا تلقيت دعوة شخصية من المؤتمر وحضرته بصفتى الشخصية.. واذكر من بين اعضاء المؤتمر الآخرين كان نائب وزير الخارجية السوفييتى وعلماء سوفييت وأمريكيون.. وشيمون بيريز رئيس حزب العمل الاسرائيلى سابقا ووزير الخارجية حاليا ..

وجدير بالذكر أنه بعد ان انتهت مدة عملى فى بعثتنا الدائمة فى نيويورك ونقلت للعمل بديوان الوزارة بالقاهرة تلقيت دعوة شخصية من مركز العلاقات الدولية بجامعة هارفارد الأمريكية لحضور سنة دراسية ١٩٦٥/١٩٦٦ «كزميل» Fellow فى المركز

ويبدو من استقراء الأحداث أن بعض زملائي اعضاء وفد الولايات المتحدة لمؤتمر نزع السلاح في جنيف وانتهم الفرصة لتقديم اسمى الى ذلك المركز كأحد الجديرين بنيل دعوته اذ كان المركز بالاتفاق مع جامعة هارفارد وجامعة Mit (وكلاهما في بوستون) مهتما اهتماما بالغا بدراسات نزع السلاح في مقدمة اهتماماته بالشئون الدولية المعاصرة .

وقد حصلت على موافقة الوزارة لقبول تلك الدعوة الشخصية. وكنت أول مصرى يدعى ليكون زميلا فى مركز الدراسات الدولية بجامعة هارفاد وكان «الزملاء» Fellows يعاملون معامل اساتذة زائرين لجامعة هارفارد وينالون مكافآت شهرية ويسمح لهم بالاستماع الى ماشاءوا من محاضرات الاساتذة بالجامعة فى أى فرع من الفروع. لكن برنامج «الزملاء» كان يتركز فى عقد ندوات وحلقات دراسية مرتين أو ثلاث مرات اسبوعيا للاستماع الى عرض احد الاساتذة فى هارفارد أو Mit او أحد «الزملاء» انفسهم عن موضوع معين ثم مناقشته فيما بينهم.. وكان على قائمة موضوعات البحث تفاصيل نزع السلاح الى جانب بقية المشاكل العالمية سياسية أو اقتصادية ومن أهم الاساتذة الامريكيين الذين حضروا تلك الندوات واسهموا فيها ، الاساتذة Samuel Hoff-man و Tom Schelling وهنرى كيسنجر وشليسينجر وماسون ولويس سوهن وهالبيرن ..

أما «الزملاء» فكانوا خمسة عشر زميلا من جنسيات مختلفة كنت المصرى الوحيد فيهم [١] وكان بينهم ضباط عظام امريكيون، ومستشارون سياسيون من الخارجية الأمريكية، وعالم برازيلى اقتصادى، ودبلوماسيون من اليابان ووزير مفوض بريطانى ومستشار المانى وكولونيل المانى وهكذا .. كان المفروض أن يكون الزملاء ممن امضوا على الأقل عشرين سنة فى خدمة بلادهم فى المجالات العسكرية أو الدبلوماسية أو العلمية وأن يكونوا قد حققوا سمعة طيبة فى ميادين تخصصهم وأمامهم مجالات الترقى إلى الدرجات العليا فى بلادهم. أما حلقات الدراسة التى دعوا إلى حضورها فكان القصد منها مزج خبرات أو تجارب هؤلاء الـ Practitioners أى أصحاب التجارب العملية فى ميادين تخصصهم مزجها بدراسات وابحاث العلماء النظريين اساتذة جامعات هارفارد و Mit حتى تكون الحصيلة النهائية لبحوثهم قد قامت على التجارب العملية والدراسات النظرية المتعمقة على حد سواء.

إلى جانب هذا كلف كل زميل باعداد بحث أو كتيب فى موضوع يختاره هو من موضوعات متخصصة وأن يقدمه إلى

---

(١) بل كنت أول مصرى دعى ليكون زميلا فى مركز الدراسات الدولية فى هارفارد، وقد دعى فيه من بعدى السفراء احمد توفيق خليل وتحسين بشير الخ .

المركز قبل نهاية السنة الدراسية ١٩٦٦/٦٥.. وقد اتاح المركز للزملاء كل الامكانيات اللازمة من سكرتيرات كاتبات على الآلة الكاتبة إلى مكتبة ضمت آخر البحوث والكتب العلمية المتخصصة، بالاضافة الى مكتبة جامعة هارفارد الشهيرة ..

ومن جانبى أنا اخذت موضوعا لبحثى حول «دور الدول غير المنحازة فى مباحثات وقف التجارب الذرية» اعتمادا على خبرتى العملية داخل مؤتمر نزع السلاح بجنيف.. وقد وافق المركز على اختيارى بل تحمس له فقد كانت خبرتى وسمعتى داخل ذلك المؤتمر فى جنيف الأساس لدعوتى لكى أكون زميلا للمركز.. وفى بحر ثلاثة أو أربعة شهور قدمت بحثى الى المركز وقد نال موافقته واعتبره بمثابة رسالة جديرة بالدكتوراة .. بل لقد شجعنى المركز على أن اضع بحثى تحت انظار الهيئات العلمية الأمريكية الأخرى. ومن ثم فقد اتصل بى مديرو Carnegie Endowment for international peace فى نيويورك (وهى هيئة علمية خيرية تتمتع بسمعة عالمية طيبة فى ميدان الدراسات التى تشجع على استتباب السلام والأمن فى العالم) عارضين علىّ نشر بحثى فى شكل كتاب اختصروه فى حوالى مائتى صفحة أصدرتها تلك الهيئة بعنوان The Non-aligned and the Test-Ban Negotiations ضمن سلسلة الكتب التى تصدرها تلك الهيئة كان ذلك بعد أربعة شهور

من بدء السنة الدراسية ١٩٦٦/٦٥ ولكن مازال أمامى خمسة شهور أخرى امضيها فى المركز!! وفى الحلقات الدراسية التى حضرتها وجدت جهلا واضحا بتجربة نظام الحكم فى مصر فى عهد عبد الناصر (١٩٦٦/٦٥) بين الاساتذة الأمريكيين وأغلب المشتركين فى الحلقات، كما وجدت تعطشا منهم لزيادة فهم أسباب ودواعى تجربة مصر الاشتراكية فى ذلك الحين والى ماذا سوف تؤدى فى النهاية ؟

ومن هنا رأيت أن الوقت يسمح لى بأن ألقى شيئا من الضوء على تلك التجربة الرائدة فى العالم الثالث.. لكن كانت الظروف تحتم على أن استند إلى مصادر غربيه فقط فى تفسير وتبرير تجربة عبد الناصر إذ كنت فى جامعة هارفارد وسط جو علمى أمريكى ولا بد من الاستناد الى المراجع الغربية بل لا توجد غير المراجع الغربية تحت يدى فى ذلك الحين.. إلى جانب ما أمكننى الحصول عليه من الصحف المصرية وكتاب فلسفة الثورة وما إلى ذلك ..

بعد شهرين آخرين أمضيتهما فى التزود بما أمكن الرجوع اليه من مصادر البحث العلمى المتاحة فى مكتبات هارفارد بدأت كتابة بحثى الآخر بالانجليزية وقبل نهاية العام الدراسى بشهرين أخرجت كتابى الثانى فى هارفارد وكان عنوانه

Nasser's Aarab Socialism : Its place in world Ideologies

«اشتراكية عبد الناصر العربية ومكانتها بين الايديولوجيات العالمية » ...

جاء البحث تفسيرا منطقيا وتبريرا علميا لتجربة عبد الناصر فلسفيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.. تبريرا لحتميتها وتفسيرا لاختلافاتها مع الشيوعية والماركسية اللينينية العلمية ومحاولة لوصف مكانتها بين مختلف الايديولوجيات وبخاصة الاشتراكية الفابيانية والاشتراكية الديموقراطية الغربية واشتراكيات العالم الثالث المتزايدة.. ولم تكن نتيجة بحثي تعتبر كلها دفاعا عن تجربة عبد الناصر وبخاصة فى مجال تجربة الديموقراطية والحريات .

وقدمت البحث إلى المركز وقد كتبته على الماكينة إحدى سكرتيرات المركز وكان يقع فى ٢٥٠ صفحة أو أكثر قليلا.. وانتظرت رد فعلهم.. لم يكن ايجابيا بل متهربا حذرا جاء البحث دفاعا عن حتمية اشتراكية عبد الناصر استنادا الى مصادر غربية علمية محترمة !! وهو الأسوأ أو لعلهم كانوا ينتظرون أن يكون نقداً لاشتراكية عبد الناصر وليس تبريرا لها.. فالأمريكيون وبخاصة فى تلك الفترة كانوا كثيرى التشكك فى الاشتراكية غير متقبلين لها، بالاضافة الى أن خلافاتهم السياسية مع عبد الناصر

كانت متصاعدة ومالبثت سنة ٦٧ أن أدت إلى حرب الأيام الستة. وموقف الولايات المتحدة الممالىء لاسرائيل فى الميدان وفى مجلس الأمن فى ذلك الوقت معلوم للجميع [(١)]. ومن هنا لم يتحمسوا لنشره لكن دارا بريطانية للنشر Blandford Press وافقت على نشره بعد ذلك بسنوات قليلة اثناء عملى فى لندن من ٦٨-٧٣ وصدر تحت اسم

Arab Socialism

كما اصدرته دار نشر Ediciones Barbara فى كاراكاس عاصمة فنزويلا باللغة الاسبانية تحت اسم «الطريق العربى إلى الاشتراكية» La Via arabe al Socilismo والفضل فى ذلك يرجع إلى زميلى وصديقى السفير عباس حلمى صدقى الذى زاملته كمستشار فى المكسيك وقد تبوأ بعد ذلك مركز سفير مصر فى كاراكاس فنزويلا وكان هو المحرك والحافز لدار النشر الفنزويلية على نشره بالأسبانية فى مطلع السبعينات ..

ومازالت مباحثات نزع السلاح مستمرة الى يومنا هذا أى إلى سنة ١٩٩٣ ولعلها سوف تستمر سنين طويلة أخرى.. لقد سبق أن نادى سياسيون وفلاسفة بتخفيض السلاح وتحديده من القرن

---

(١) اقرأ كتاب محمد حسنين هيكل الانفجار سنة ١٩٦٧ .

الثامن عشر والتاسع عشر.. وبعد الحرب العالمية الأولى عقدت عدة اتفاقيات في واشنطن سنة ١٩٢١ وفي لوكارنو سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٨ من أجل تحديد التسلح لمنع نشوب حرب جديدة.. لكن المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية خرقت هذه الاتفاقيات وتسلحت واعتدت على غيرها مما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية ..

لكن مباحثات نزع السلاح التي بدأت في مؤتمر الدول الثماني عشرة في جنيف منذ سنة ١٩٦٢ (زاد عدد الدول المشتركة في ذلك المؤتمر حاليا حتي وصل فيما اعتقد إلى ٣٧ دولة) وضعت هدفا لها ليس مجرد تحديد التسلح أو تخفيضه وانما نزع السلاح التام الشامل وهو الهدف الذي طالب به السوفييت أولا ثم تبناه عدد من الدول حتى احرجت الولايات المتحدة واضطرت لقبوله أو ادعت بقبوله..

لكن الفارق الكبير بين مباحثات ماقبل الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ وما بعدها هو نوعية السلاح الذي يراد نزعه أو تحديده.. فقبل الحرب العالمية الثانية كان السلاح كله تقليديا أي غير الاسلحة الذرية التي ظهرت في أواخر تلك الحرب في ترسانة الولايات المتحدة ثم مالبث الاتحاد السوفييتي أن لحق بها ابتداء من سنة ١٩٤٨ واصبح العملاقان يملكان ترسانات أسلحة ذرية

رهيبة : قنابل ذرية ثم قنابل هيدروجينية اشد فتكا، ووسائل إيصالها إلى اهداف تبعد عدة آلاف من الأميال، سواء أكانت هذه الوسائل طائرات سريعة تطير على مستوى شديد الانخفاض وشديد السرعة فيصعب كشفها باجهزة الرادار أم كانت صواريخ عابرة للقارات بعيدة المدى أو صواريخ متوسطة المدى أو قصيرة المدى تحمل قنابل ذرية «تكتيكية» أى لتحقيق انتصارات محلية محددة مقصورة على ميدان قتال واحد معين لوقف تقدم طابور من الدبابات مثلا ثم مالبثت بريطانيا أن لحقت بالعملاقين بفضل مساعدات أمريكا لها مالبثت فرنسا أن اضطرت لمجاراة بريطانيا حتى لاتفقد كرامتها ومكانتها كدولة من دول الصدارة، ثم مالبثت الصين أن فعلت المثل فى أواخر الخمسينات لتخوفها من مقاصد الاتحاد السوفييتى مما اضطر الهند الى اجراء تجارب شديدة التقدم فى ميادين تفجير الذرة واطلاق الصواريخ لكنها وقفت دون اعلان حصولها على الأسلحة النووية وكذا فعلت باكستان.. كذلك عرف عن الأرجنتين والبرازيل أنهما ايضا على شفا تملك أسلحة ذرية.. أما اسرائيل فالمقطوع بأنها تمتلك مالا يقل عن مائتى قنبلة ذرية من حجم القنابل الذرية التى القتها الولايات المتحدة على هيروشيما كما تملك وسائل ايصالها إلى عواصم أغلب الدول العربية ..

كذلك هناك حاليا نوع آخر من الأسلحة الشديدة للفتك التى جرى تطويره فيما بعد الحرب العالمية الثانية وهى الأسلحة الكيماوية الأشد فتكا من الغازات السامة المعروفة منذ الحرب العالمية الأولى، بل وهناك حاليا الأسلحة البيولوجية أى التى تنشر فى بلاد أو مدن العدو الأمراض شديدة الفتك والتى تعصف بالملايين من السكان على غرة ..

وقد انقسمت مباحثات نزع السلاح منذ سنة ١٩٦٢ إلى فروع أساسية هى :

أ - نزع السلاح التام الشامل .

ب - مباحثات الاجراءات الجانبية Collateral Measures التى يمكن أن تساعد على خلق جو من الثقة واقلال حدة التوتر مما يشجع بدوره مباحثات نزع السلاح ومن هذه مثلا معاهدة منع انتشار الأسلحة الذرية .

ج - وقف التجارب الذرية والنووية .

وقد حقق مؤتمر الدول الثمانى عشرة سنة ٦٣ أول انتصار بفضل ضغط الدول غير المنحازة واستمرارها ترديد ضرورة وقف اجراء التجارب الذرية لأن استمرارها من شأنه تحسين وزيادة فتك ومقدرة الأسلحة الذرية ومن شأن وقف تلك التجارب وثوق اطراف النزاع فى عدم انفراد بعضهم بتحقيق انتصارات أو تقدم جديد ناهيك بأن التجارب النووية وبخـــاصة تلك التى تجـرى فى

الفضاء ينتج عنها تساقط الغبار الذرى على المدن الآمنة وتسبب في اضرار بالصحة العامة.. فقد اتفقت الدول الذرية اعضاء المؤتمر وهي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي وبريطانيا (كانت فرنسا والصين قد قاطعتا المؤتمر ومازالتا غير ملتزمتين باتفاقية وقف التجارب) على ايقاف تجارب الأسلحة الذرية في الفضاء الخارجي وتحت الماء.. لكنها احتفظت لنفسها باجراء تجاربها الذرية تحت الأرض على أعماق كبيرة ولأحجام معينة لا تتجاوزها.. وفي هذا الميدان كنت قد كتبت بحثي سالف الذكر في جامعة هارفارد عن دور الدول غير المنحازة في التوصل الى هذه الاتفاقية وعن الصعوبات التي حالت دون الوصول الى المزيد من التقدم وكان أول بحث مصرى عن نزع السلاح نشر على نطاق عالمي .

وبعد ذلك بسنين قليلة توصل المؤتمر بالمثل إلى عقد اتفاقية اخرى لا تقل أهمية هي اتفـــاقية منع انتشار الاســـلحة الذرية إلى دول جديدة غير التي حصـــلت عليها قبل الاتفاقية Non - Prolif eration Treaty (N.P.T) وقد وقعت هذه الاتفاقية كثير من الدول منها مصر لكن لم توقعها اسرائيل وعدد آخر من الدول التي تقف على عتبة الاسلحة الذرية ، وبموجب هذه الاتفاقية تتعهد الدول الذرية بعدم اعطاء الاسلحة الذرية أو

تخزينها أو نقلها عبر الدول غير الذرية وبعدم استعمالها فى الحروب ضد الدول غير الذرية كما تتعهد بعدم تصعيد التسلح الذرى رأسيا « فنيا » بل وقفه وتخفيضه وتتعهد الدول غير الذرية فى مقابل ذلك بعدم الحصول على الاسلحة الذرية وبعدم قبولها على اراضيها (أى بعدم نشر الاسلحة أفقيا) ..

ومازال أهم مطلبين فى مباحثات نزع السلاح إلى يومنا هذا ، وهو ما تطالب به الدول غير المنحازة ومنها مصر باستمرار ، هما مطالبة الدول الذرية باستكمال معاهدة وقف التجارب أى بوقف كل التجارب الذرية حتى كل تلك التى تجرى تحت الأرض لخلق جو الثقة ولوقف سباق التسلح الرأسى الذى تزكيه تلك التجارب .. أما المطلب الآخر فهو احترام الدول الذرية لتعهداتها فى معاهدة N.P.T (منع الانتشار) لعدم تصعيد سباق التسلح الذرى (رأسيا) بل والعمل على تخفيضه والعمل على الضغط على بقية الدول التى لم توقع تلك المعاهدة حتى توقعها لخلق جو الثقة اللازم ولمنع غيرها من الدول الموقعة عن التخلى عن التزامها السابق إذا مارأت الكثير من الدول تمضى الى تملك تلك الأسلحة غير عابئة بمعاهدة وقف الانتشار..

أما مباحثات نزع السلاح التام الشامل فسرعان ماتكشف للدول غير المنحازة ويات معروفا لجميع العاملين فى حقل نزع

السلاح أن هناك تيارا قويا جدا في الغرب لا يرضى عن نزع السلاح التام الشامل إذ يرى في الاحتفاظ بمستوى معين على الأقل من الأسلحة الذرية والنووية ووسائل إيصالها الأمل الوحيد للغرب في معادلة تفوق دول الاتحاد السوفييتي السابق والصين في ميادين الحرب والأسلحة التقليدية وعدد القوات المسلحة وقربها الى ميادين القتال، وكل مايأمله العاملون في مباحثات نزع السلاح حاليا هو الاتفاق على تخفيض مستويات التسلح بالأسلحة الذرية والنووية ووسائل إيصالها.. وقد توصل العملاقان الأمريكى والروسى أخيرا الى اتفاقات جزئية وإن كانت شديدة الأهمية وتبشر ببعض الخير من أجل الحد من عدد الصواريخ عابرة القارات والمتوسطة المدى كذلك الاتفاق على تخفيض عدد الرءوس النووية أو الذرية المخزونة لديها. وأية ذلك انهما لا يحتاجان إلى كل تلك الأعداد الهائلة من تلك الرءوس والصـواريخ فلكل من الاتحاد السوفييتي السابق والولايات المتحدة مايسمى بالمقدرة على أكثر من القتل Over-Kill أى أن ما لدى أحدهما يكفى لتدمير بلد الأخر ليس مرة واحدة وانما عشرات المرات ومن ثم فإنه حتى بافتراض تنفيذهما لتخفيض عدد الرءوس الذرية والصواريخ التى يملكها الواحد منهما الى النصف فتظل لكل منهما المقدرة على دمار الآخر تماما فيما لو قامت الحرب الذرية.. لكن أى اتفاق

بينهما على تخفيض ترساناتهما الذرية يخلق جوا من الثقة ويفتح الباب أمام المزيد من التقدم ..

وإلى جانب رغبة بعض العسكريين فى الغرب فى الاحتفاظ بالتفوق الدائم Superiority على الاتحـاد السوفييتي فى عدد الرءوس الذرية والصواريخ (فى حين أن الاتجاه الأكثر اعتدالا يرى الاكتفاء بالتوازن أو المساواة Parity- Balance إلى جانب الرغبة فى التفوق باستمرار على الاتحاد السوفييتى فهناك صعوبات فنية أخرى لعلها العقبة الحقيقة فى وجه نزع السلاح الكامل الشامل .. أولى هذه العقبات الفنية الكئود هى أن العملاق قد خرج من القمقم "The genie is out of the bottle ولا وسيلة إلى اعادته مرة أخرى داخل القمقم.فسر التوصل إلى التفجير النووى وصناعة الأسلحة النووية لم يعد سرا بل مباحا لغالبية العلماء.. وأصبحت مشكلة صناعة تلك الأسلحة النووية تنحصر فى المصاريف الباهظة والوقت اللازم لكن كثيرا جداً من الدول تستطيع تملك الأسلحة الذرية . وحتى إذا ماإتفق العملاقان على إزالتها وتمت إزالتها فإنه من الممكن نظريا على الأقل لواحد أو مجموعة من الأفراد أو الدول إعادة صنعها للأسلحة النووية سرا ! وهل يمكن للعالم التحقق من عدم صناعتها سرا فى جميع انحاء العالم المترامى الأطراف ؟ هل يمكن اقامة نظام للتفتيش والرقابة

والتحقق الدائم يضمن عدم اخفاء لجوء دولة أو مجموعة من الصناعات الى إعادة صناعة الأسلحة الذرية سرا دون أن يتنبه العالم إلى ذلك ؟ هذا هو ما يقض مضاجع علماء نزع السلاح حتى الآن خاصة لأن الاتحاد السوفييتي السابق وحلفاءه كانوا يعارضون بشدة قبول أى نظام دقيق للتفتيش والرقابة والتحقيق داخل المصانع والمعسكرات.. ولو أن الاتحاد السوفييتي السابق حاليا قد أصبح أقل انغلاقا وأكثر تقبلا لأنظمة التفيش والتحقق داخل اراضيـــه إلا أن علماء نزع السلاح مازالوا يشيرون الى أن الدول الذرية فى كلا المعسكرين اجادت تماما طرق واسرار إخفاء رء وسها الذرية وصواريخها تحت الأرض وتحت المـــاء ومإإلى ذلك ..

هناك ايضا مشكلة فنية أخرى هى كيفية الموازنة بين تفوق الاتحاد السوفييتي السابق وحلفائه تفوقا واضحا فى ميدان الأسلحة التقليدية والحرب التقليدية بحكم الاعداد والموقع والطبوغرافيا الخ – من ناحية – وحاجة الولايات المتحدة والغرب من ناحية أخرى إلى الاحتفاظ بمستوى معين متفوق (ماهو بالضبط؟) من الأسلحة النووية لمعادلة ذلك التفوق فى وسائل الحرب التقليدية.. ماهى المعادلة أو التركيبة التى يمكن الاتفاق عليها ؟ وبمعنى آخر فإنه لا يدخل فى تفكير العسكريين الغربيين

محاولة الاتفاق على ازالة جميع الأسلحة الذرية لأن ذلك يعطى للاتحاد السوفييتى السابق ميزة تفوقه فى ميدان الحرب التقليدية. فهل يقبل «الاتحاد السوفييتى» اتفاقية تطالبه بتخفيض مستويات تسلحه الذرى والتقليدى عن مستوى الولايات المتحدة والغرب لتجريده من ميزة التفوق سالفة الذكر فى ميادين الحرب التقليدية؟! إن انحسار مد الحرب الباردة هو الأمل الوحيد فى احراز اى تقدم فى هذا الميدان رغم ان تفكك الاتحاد السوفييتى قد خلق بدوره مشاكل كثيرة جديدة من حيث امكانيات انتشار الاسلحة الذرية وحول مصداقية ومدى دوام شهر العسل الحالى مابين الشرق والغرب .

تتبقى بعد ذلك مشكلة الاسلحة الكيماوية والبيولوجية وهى وإن كانت تختلف عن الأسلحة النووية إلا أنها يمكن أن تكون أكثر خطورة وأكثر انتشارا وفتكا خاصة أن صناعاتها لاتستلزم علوماً وفنوناً شديدة التقدم مثل العلوم الذرية ويمكن لكثير من الدول الأقل تطورا صناعتها واستعمالها.. ويصعب إلى حد كبير جدا التحقق من عدم صناعتها سرا .. ومن عدم اخفاء مخزونها وقد تم فى مطلع عام ١٩٩٣ فى باريس التوقيع على معاهدة لمنع انتشار الأسلحة الكيماوية .لكن مصر وبعض الدول العربية ترفض التوقيع عليها حتى توقع اســـرائيل اتفاقية منع انتشار الاسلحة الذرية أولا .

حصيلة القول إنه وإن تم تحقيق بعض التقدم فى ميدان نزع السلاح أو تخفيض السلاح إلا أن الطريق مازال طويلا وعرا .. وسوف يظل القرن العشرون يتحدث عن نزع السلاح أو تحديد السلاح مثلما فعل من قبله القرن التاسع عشر والثامن عشر حتى وإن اختلفت طبيعة الأسلحة وطبيعة الحروب وشكل المفاوضات .. ومن المحتمل كثيرا أن مظاهر تخفيف حدة الحرب الباردة والتقارب مابين المعسكرين قد تساعد على الوصول الى مستويات أقل من الحالية لتسلح الجانبين ..

لكن جنيف باقية ، مبتسمة وفاتحة ذراعيها للدبلوماسيين والساسة والباحثين عن أفضل سبل «نزع السلاح» ..

الفهـــرس

★ **الفصل السابع :**

★ **الفصل الثامن :**

★ **الفصل التاسع :**

★ **الفصل العاشر :**

★ **الفصل الحادى عشر :**

رقم الإيداع : ٧٤٥١ / ١٩٩٣
I . S . B . N
977 - 07 - O277 - X

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولاراً ـ أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

كتاب فريد في موضوعه غني في مادته يعتمد على أسلوب أدبي رفيع شيق ، يجمع بين ادب الرحلات وأدب السياسة ، حيث يقدم للقارىء رحلات فكرية سياحية رائعة عبر بلدان البحر المتوسط والمحيط الاطلسي وأوروبا الغربية والامريكتين وجنوب شرقي آسيا واستراليا ونيوزيلاندا وهونولولو ، وجزر فيجي وأفريقيا وهذا الكتاب لا يستهدف تسلية القارىء وحسب بل يرى لزاما على الأديب والدبلوماسي أن يمزج المتعة السياحية بالثقافة السياسية ، وأن يشرك القارىء في تفهم وتذوق تجارب الكاتب وانفعالاته سياحية وأدبية كانت أو سياسية ، وأن يتيح للقارىء نتيجة أو حصاد حياته في ميدان السياسة الخارجية والعمل الدبلوماسي وعلاقات تلك الدول والشعوب بمصر والعالم الخارجي ومن خلال هذه الحصيلة وهذه التجارب التي جمعها الكاتب الأديب عبر ثمانية وثلاثين عاما تنقل فيها بين سفارات مصر يعقد الكاتب السياسي المقارنات والمفاضلات ويسرد التأملات والتحليلات ضمن مجموعة هامة من الملاحظات والمعلومات السياسية والإحصائية والسياحية في مزيج شيق من أدب الرحلات وأدب السياسة .